

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

١٨
٢٧٤٦



١٨
٢٧٤٦

في مناسبات سور القرآن الكريم

إعداد

محمد يعقوب زو الكفل بن الماج يوسف

إشراف فضيلة الدكتور

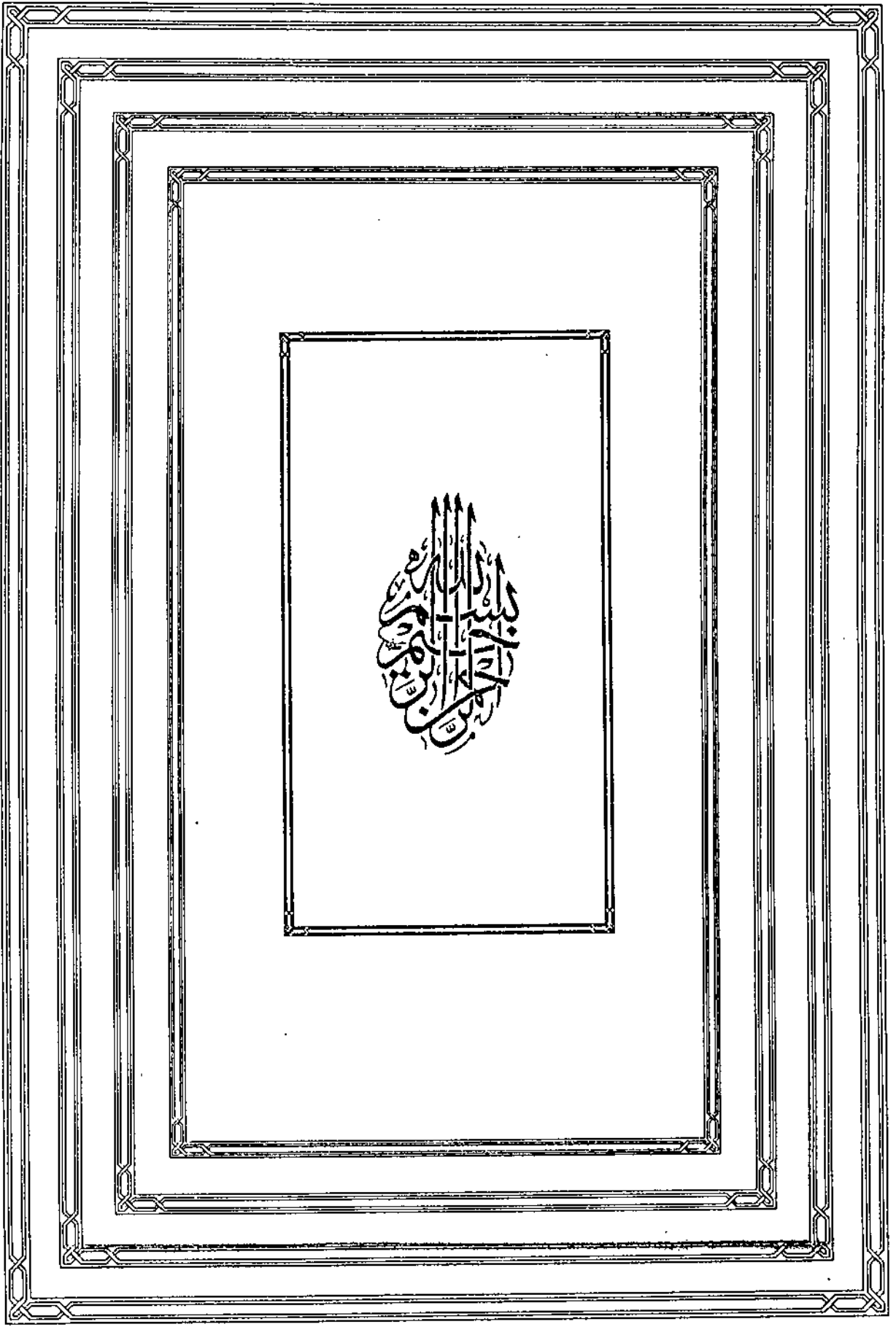
أحمد إسماعيل نوفل

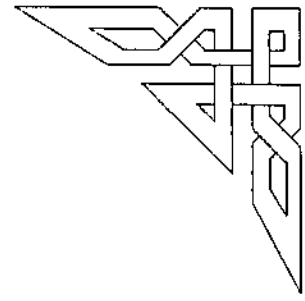
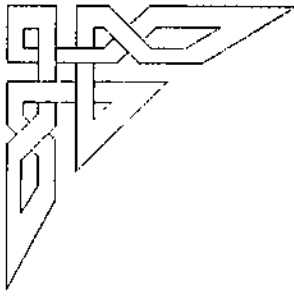
قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول

الدين / التفسير بكلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية

كانون الأول / ١٩٩٢

عميد كلية الدراسات العليا



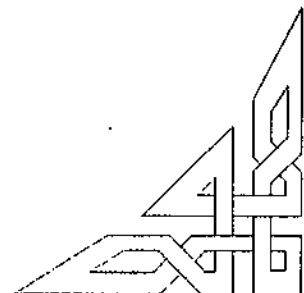
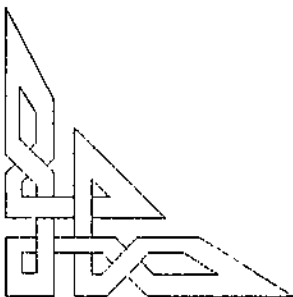


نوقشت هذه الرسالة بعنوان "في مناسبات سور القرآن"
بتاريخ ١٢/١٢/١٩٩٢ وأجيزت .

التقييم
مؤيد
مؤيد

لجنة المناقشة

- | | |
|-------|---------------------------------|
| مشرفا | (١) الدكتور أحمد إسماعيل نوفل |
| عضوا | (٢) الدكتور عبدالجليل عبدالرحيم |
| عضوا | (٣) الدكتور أحمد فريد |



الإهداء

إلى والدي
وإلى روح جدي وجدتي
وإلى أشقائي وشقيقاتي وزوجتي وبنتي الأعزاء
وإلى كل من أحب القرآن الكريم
وعمل على تطبيق أحكامه
إليهم جميعاً
أهدي هذا العمل ، ، ،

ذو الكفل

في مناسبات سور القرآن

الحمد لله الذي أفاض النور على قلوب أهل العرفان وجعل أشرف هذه الأمة حملة القرآن والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإذا قرأنا القرآن من أول وهلة لم يخطر ببالنا أنه قد نزل مفردا لكونه منسجما ومرتبنا بعضه مع بعض، ولكن حقيقة التاريخ تبين لنا أن القرآن نزل مفردا منجما في بضعة وعشرين عاما حسب الوقائع المختلفة وفي ظروف متباينة وإجابة لاستفسارات متنوعة.

فإذا قبلنا أنه نزل مفردا فلا بد من حكمة لترتيب التلاوة كما هو في المصحف، فسورة الأنعام وهي الخامسة والخمسون في ترتيب النزول - مثلا - تتقدم في ترتيب المصحف، ووضعت الآيات التي تأخر نزولها في أماكنها المناسبة في السور متلاحمة تمام التلاحم مع سوابقها ولواحقها حيث لا تنافر بينها في المعنى ولا في جرس الكلام، فما حكمة هذا الترتيب وما سره؟ لماذا وضعت الآيات التي تأخر نزولها في أماكنها المناسبة في السور؟

ثم إذا أمعنا النظر وجدنا أن القرآن ليس منسجماً ولا مرتبطاً في الآيات المكية والمدنية فقط، وليس من ناحية انسجام الآيات المدنية في السور المكية وحدها، أو الآيات تتلو الآيات مع أن الفاصل بين نزولهما يبلغ عدة سنوات وإنما تجد ذلك أيضا بين السورتين المكيين أو المدنيتين وبين السور المكية والمدنية.

فأي عقل بشري يستطيع أن يراعي هذه الدقة! إن عقلا بشريا مهما أوتي من القوة والحفظ والإحكام لا يستطيع أن يذكر موضع فقرة من كلام سابق مضى عليه سنوات طويلة فيضعها في مكانها بحيث تلتحم مع سابقتها ولاحقاتها في اللفظ والمعنى والسياق، ولو أن عقلا أتقن ذلك في حال فلن يستطيع أن يحكمه في حالات كثيرة وفي سور كثيرة بحيث لا تشذ حالة واحدة عن قاعدة الإحكام المشهودة في كتاب الله الحكيم.

أهمية هذا الموضوع وبواعث اختياره:

أستطيع إجمال أهمية هذا الموضوع وبواعث اختياره في أربع نقاط:

أولاً: إن البحث سيساهم في اكتشاف حكمة ترتيب سور القرآن كما هي في المصحف الحكيم كما أنه يحاول استخراج أكثر اللطائف القرآنية من خلال المناسبات في السورة والمناسبات بين السور.

ثانياً: إن ارتباط سور القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالسورة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم يهمله كثير من المفسرين لدقته، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى دراسته ووضع ضوابطه وقواعده.

ثالثاً: إن إدراك المناسبات في السور ومطالعها وخواتمها وسائر آياتها أمر على جانب كبير من الأهمية لمن أراد تفسير السورة تفسيراً موضوعياً، فوجوه المناسبات هذه تلقي أضواء كاشفة على محور السور وهدفها، وبالتالي تحدد الزاوية التي ينطلق منها المفسر في بيان معاني الآيات الكريمة.

رابعاً: عدم الاكتفاء بما ألف السابقون في علم المناسبات، وما كتبه السابقون لا يفي بالغرض في علم المناسبات حيث لم أجد - فيما أعلم - بحثاً خاصاً وشاملاً يتناول المناسبات الموضوعية والبيانية والدعوية..

الجهود السابقة التي بذلت في هذا الموضوع:

إن الناظر في كتب السابقين والمعاصرين التي ألفت لأجل إبراز المناسبات، يجد أن مؤلفيها قد بحثوا هذا الموضوع، وذلك مثل السيوطي في "تناسق الدرر في تناسب السور" وابن الزبير في كتابه "البرهان في تناسب سور القرآن" وابن شهيد ميسلون في "نظرة العجلان في أغراض القرآن" إلا أن كلامهم في جزئيات الموضوع، أحياناً يأتي لبيان المناسبة من الناحية اللفظية وأحياناً من الناحية المعنوية ولكن دون مراعاة ترتيب نظام السورة من مطلعها وعمودها وخواتمها إذ رأينا في كلتا الناحيتين شيئاً من التكلف.

وقد يُظن أن تأليف الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم المسمى "الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره" قد أكمل الموضوع حيث عرض لأنواع المناسبات في

الباب الثالث من كتابه، ولكني رأيت اختلافا شاسعا بين منهجي ومنهجه في التأليف. ومن أقرب كتب التفسير إلى هذا البحث هو "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للشيخ برهان الدين البقاعي، وتفسير "في ظلال القرآن" للأستاذ الشهيد سيد قطب، ولكن كون دراستها من صلب كتب التفسير لا يعني من أن أسلك هذا الطريق، لأن الدراسة من خلال كتب التفسير دراسة مفرقة ومشتتة، وإنما هنا نريد أن نجعل هذه الدراسة دراسة منهجية ذات ترتيب ونظام ليكون قريب المتناول وسهل المأخذ.

ثم من المعاصرين الفراهي والغماري، ولكن تفسير الفراهي المسمى "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" لم يتمه، أمّا كتابه "دلائل النظام" فإنه كان لمجرد القواعد التي وضعها لإبراز ربط الآيات بموضوع السورة وبناء قواعد النظام في سور القرآن. ومحاولة الغماري تعتبر من أحسن المحاولات إلا أنها لا تخلو من عدم تقييد المؤلف بمنهج خاص في ربط السور، حيث يبين المناسبات أحيانا بين السورة وبين ما قبلها حسب التناسب بين فاتحة السورة والخاتمة لما قبلها وأحيانا بين جزئيات موضوع السورة وما قبلها، وأكبر مشكلة فيها أن يستعجل المؤلف في تحديد خاتمة السورة قبل انتهاء السورة وكذلك نجد أن خاتمة السورة أحيانا تأتي في الربع الأخير من السورة وأحيانا قبل انتهاء السورة بآيتين أو أكثر.

ومن أجل ذلك كله رأيت أفراد هذا الموضوع في بحث مستقل جمعا لشتاته واستيعابا لجزئياته، والله من وراء القصد.

طبيعة عملي في البحث:

أستطيع حصر جهودي في هذا البحث في النقاط التالية:

أولا: حاولت أن أتبع كل الكتب التي كتبت في بيان المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة والمؤلفات التي ألفت في بيان المناسبات بين السور.

ثانيا: هذا التتبع لا يقتصر على المؤلفات في المناسبات الموضوعية فحسب وإنما البيانية والدعوية، فحصرتها وأجلت النظر فيها ووقفت على موضع حديثهم عنها وأمكنت النظر فيها وسجلت آراءهم وجمعت النظر إلى النظر ثم شرعت في استنباط المناسبات الأخرى إضافة إلى ما توصلوا إليه إن أمكن ذلك.

وهذا الاستنباط إما أن يكون بين الآيات في السورة الواحدة وإما أن يكون بين

السور.

ثالثاً: في بعض الأحيان لم أجد كتاباً كتب في مبحث معين، لذلك حاولت قدر الإمكان استخراج الآراء لإبراز المناسبات القرآنية فيها، والحق يقال: إنني لست فارساً فيها... ولكنها محاولتي في خدمة القرآن، فإن أصبت فذلك الفضل من الله وإلا فهي محاولة. رابعاً: عزوت آيات القرآن إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية فيها. خامساً: خرّجت الأحاديث التي وردت في البحث تخريجاً علمياً من مصادرها الأصلية إلا في حالة عدم العثور على المصادر الأصلية فإنني أكتفي بالكتب التي تهتم بالروايات والأسانيد.

سادساً: حاولت قدر الإمكان الدقة في نسبة الآراء لأصحابها، فلم أنسب رأياً لأشخاص دون الرجوع إلى كتبهم.

سابعاً: ترجمت للأعلام والتي هي حسب ظني أنها غير معروفة، كما أنني لم أترجم إلا الأعلام التي مرت في صدد البحث ولم أكن أرجع إلى كتبهم من قبل، وفي حالة أنني قد رجعت إلى كتبهم فإنها تعتبر معروفة لدي.

ثامناً: وضعت علامة الاقتباس ("....") لاقتباس نصوص دون التصرف وما سوى ذلك فإنه يعني نقلاً مع التصرف.

وأخيراً أسأل الله العليّ القدير الغفور الرحيم أن يتقبل عملي هذا وأن يجعله في صحائف أعمال والديّ وصحائفي، وأن يجعل عملي المتواضع هذا خالصاً لنور وجهه الكريم وأن يعفو عني يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يفتح لي بهذا العلم مجال خدمة الإسلام والمسلمين في بلدي حين عودتي.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون من تمهيد وباين وخاتمة على النحو التالي:

التمهيد:

تمهيد في علم المناسبة واتجاهات العلماء فيه مع فكرة تاريخية عن تطور التكاليف فيه. الباب الأول: التناسب الموضوعي.

الفصل الأول: التناسب الموضوعي في السورة الواحدة.

المبحث الأول: مناسبة فاتحة السورة لموضوعها.

المطلب الأول: مناسبة فاتحة سورة الفرقان لموضوعها.

المطلب الثاني: مناسبة فاتحة سورة سبأ لموضوعها.

المطلب الثالث: مناسبة فاتحة سورة محمد لموضوعها.

المطلب الرابع: مناسبة فاتحة سورة الممتحنة لموضوعها.

المبحث الثاني: مناسبة خاتمة السورة لموضوعها

المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة الرعد لموضوعها

المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة البقرة لموضوعها

المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة الحجر لموضوعها

المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة النحل لموضوعها

المبحث الثالث: مناسبة قصص السورة لموضوعها

المطلب الأول: مناسبة قصص سورة المائدة لموضوعها

المطلب الثاني: مناسبة قصة موسى وآدم في سورة طه لموضوعها

المطلب الثالث: مناسبة قصص في سورة النمل لموضوعها.

المطلب الرابع: مناسبة قصة سورة البروج لموضوعها.

المبحث الرابع: مناسبة خاتمة السورة لفاحتها

القسم الأول: ظاهرة المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع وتختتم بنفسه.

المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة يوسف لفاحتها.

المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة الممتحنة لفاحتها.

المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة المزمل لفاحتها.

المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة ق لفاحتها.

القسم الثاني: خفاء المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع،

وتختتم بغيره ولكن التناسب بينهما في الموضوع الآخر.

المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة الروم لفاحتها.

المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة العنكبوت لفاحتها.

المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة الفتح لفاحتها.

المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة المؤمنون لفاحتها.

المبحث الخامس: مناسبة المعارضات في السورة:

المطلب الأول: مناسبة المعارضات في سورة الزخرف

المطلب الثاني: مناسبة المعارضات في سورة القيامة.

المطلب الثالث: مناسبة المعارضات في سورة الأعراف.

المطلب الرابع: مناسبة المعارضات في سورة المجادلة.

الفصل الثاني: التناسب الموضوعي بين السورتين المتجاورتين

المبحث الأول: المناسبة الموضوعية بين السورة والتي قبلها.

المطلب الأول: المناسبة الموضوعية بين سورة القيامة وقبلها المدثر.

المطلب الثاني: المناسبة الموضوعية بين سورة يوسف وقبلها هود.

المطلب الثالث: المناسبة الموضوعية بين سورة التين وقبلها ألم نشرح

المطلب الرابع: المناسبة الموضوعية بين سورة اللهب وقبلها النصر

المطلب الخامس: المناسبة الموضوعية بين سورة الفيل وقبلها الهمة

المبحث الثاني: المناسبة الموضوعية بين السورة والتي بعدها

المطلب الأول: المناسبة الموضوعية بين سورة الضحى وبعدها ألم نشرح

المطلب الثاني: المناسبة الموضوعية بين سورة المزمل وبعدها المدثر

المطلب الثالث: المناسبة الموضوعية بين سورة يونس وبعدها هود

المطلب الرابع: المناسبة الموضوعية بين سورة الجاثية وبعدها الأحقاف

المطلب الخامس: المناسبة الموضوعية بين سورة الواقعة وبعدها الحديد

الباب الثاني: التناسب البياني والدعوي

الفصل الأول: التناسب البياني

المبحث الأول: التناسب البياني بين موضوع السورة وإطارها

المطلب الأول: تناسب موضوع السورة وإطارها من جهة جو عرض الموضوع

المطلب الثاني: تناسب موضوع السورة وإطارها من جهة لون الصورة أو مشاهدتها في

السورة.

المبحث الثاني: التناسب البياني في صياغة مفردات السورة

المطلب الأول: جمال وقعها في السورة

المطلب الثاني: تناسب دلالتها لما لا تتناسب له عادة دلالات المفردات أو العبارات

الأخرى

المطلب الثالث: صياغة مفردات السورة بما يناسب موضوع السورة

المبحث الثالث: التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه

المطلب الأول: وجوه التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه

المطلب الثاني: التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه في بداية السورة.

المطلب الثالث: التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه في وسط السورة.

- المبحث الرابع: التناسب البياني في التفصيل بعد الإجمال .
المطلب الأول: التفصيل بعد الإجمال في السورة الواحدة
المطلب الثاني: التفصيل بعد الإجمال بين السور
المبحث الخامس: التناسب البياني في التقابل
المطلب الأول: التقابل من ناحية طبيعة وقوعه في القرآن
المطلب الثاني: التقابل من ناحية طبيعة صورته في القرآن
الفصل الثاني: التناسب الدعوي
المبحث الأول: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المكي
المطلب الأول: العقيدة هي موضوع القرآن المكي
المطلب الثاني: التناسب الدعوي في كون العقيدة الموضوع الأول للدعوة.
المبحث الثاني: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المدني
المطلب الأول: التناسب الدعوي في موضوع تحويل القبلة
المطلب الثاني: التناسب الدعوي في موضوع تحريم الخمر
المبحث الثالث: التناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها
المطلب الأول: التناسب الدعوي بين سورة هود وجو نزولها
المطلب الثاني: التناسب الدعوي بين سورة الفتح وجو نزولها
المطلب الثالث: التناسب الدعوي بين سورة الكهف وجو نزولها
المبحث الرابع: التناسب الدعوي في المرحلية في الجهاد
المطلب الأول: الجهاد ومراحله
المطلب الثاني: التناسب الدعوي في المرحلية في الجهاد
الخاتمة في بيان أهم نتائجه.

الشكر والتقدير

في هذا المقام لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير والامتنان لأستاذي الفاضل الدكتور أحمد إسماعيل نوفل حفظه الله تعالى الذي أكرمني بعمله وأشرف علي في تجهيز هذه الرسالة بمثابرة وحب. فأسأل الله سبحانه أن يجزيه عني خير الجزاء .

كما أنني أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذين الكريمين الجليلين فضيلة الدكتور عبدالجليل عبدالرحيم حفظه الله تعالى وفضيلة الدكتور أحمد فريد حفظه الله تعالى. وذلك على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة ولما تكبداه من جهد في قراءتها وما قدماه إلي من توجيهات مفيدة نافعة.

كما أنني أقدم شكري إلى الأستاذين الحبيين أستاذي الدكتور أحمد حسن فرحات وأستاذي الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي - حفظهما الله تعالى - اللذين أرشداني إلى موضوع المناسبات القرآنية وزوداني من مكتبتيهما بمراجع كثيرة تتعلق بمادة الرسالة. كما أتقدم بالشكر إلى جميع أساتذتي الكرام حفظهم الله تعالى في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية...

وأتقدم بالشكر والتقدير والإجلال إلى والديّ وزوجتي وابنتي على تحملهم مشاق الدراسة معي.

وأخيراً لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لهذا البحث يدا ابتداءً من الأخوات في البيت المبارك والإخوة في الطباعة وزملائي الأفاضل وجزاهم الله خير الجزاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وأصحابه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

تمهيد في علم المناسبات

وفيه المناسبة في اللغة وعلم مناسبات القرآن

واتجاهات العلماء فيه

مع فكرة تاريخية عن تطور التأليف فيه

المناسبة في اللغة

المناسبة: المشاكلة (١) ويقال: بين الشيئين مناسبة وتناسب أي: مشاكلة وتشاكل (٢)، والنسب: المناسب (٣).
التَّسَبُّ: القِرابَة (٤) وفلان يناسب فلانا فهو نسيبه أي قريبه (٥). ويقال: ناسب الأمر أو الشيء فلانا: لاءمه ووافق مزاجه.... ويقال رجل نسيب: شريف معروف حسبه وأصوله (٦). ويرى أحمد بن فارس (٧) في معجم مقاييس اللغة أن "نسب: النون والسين والباء كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء، ومنه التَّسَبُّ سمي لاتصاله ولاتصال به.... ومنه التَّسَبُّ في الشعر إلى المرأة كأنه ذكر يتصل بها.... والنسب (٨): الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض" (٩).

(١) القاموس المحيط. العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. مؤسسة الرسالة. بيروت: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ط٢، ص ١٧٦. وحيث يأتي يشار إليه: القاموس المحيط. الفيروزآبادي.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس. السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: عبد العليم الطحاوي. ج ٤، ص ٢٦٥ و٢٦٦. وحيث يأتي يشار إليه: تاج العروس. الزبيدي.

(٣) المعجم الوسيط. الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور عبد الحلیم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد. إشراف: حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، دار الأمواج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧-١٤٠٧م، ط٢، ص ٩١٦-٩١٧. وحيث يأتي يشار إليه: المعجم الوسيط. الدكتور إبراهيم أنيس ومجموعة.

(٤) لسان العرب. العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري. دار الفكر، حرف الباء وفصل النون، م/١، ج ١، ص ٧٥٥. وحيث يأتي يشار إليه: لسان العرب. ابن منظور.

(٥) مختار الصحاح. زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي. تحقيق وضبط حمزة فتح الله. ترتيب محمود خاطر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨-١٩٨٨م، ص ٦٥٦. وحيث يأتي يشار إليه: مختار الصحاح. الرازي.

(٦) المعجم الوسيط. الدكتور إبراهيم أنيس ومجموعة. ص ٩١٦-٩١٧.

(٧) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب. أصله من قزوين وأقام مدة في همدان. ثم انتقل إلى الرّي فتوفي فيها عام ٤٣٩٥هـ. ترجمة في: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م. ط ٦، م ١٩٣. وحيث يأتي يشار إليه: الأعلام، الزركلي.

(٨) وفيه ((التَّسَبُّ)) فيبدو خطأً، والتصحيح من لسان العرب. ابن منظور. حرف الباء وفصل النون، م/١، ج ١، ص ٧٥٦.

(٩) معجم مقاييس اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. دار الفكر، م/٥، ص ٤٢٣-٤٢٤. وحيث يأتي يشار إليه: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس.

وإذا أردنا ربط هذه المعاني اللغوية مع المناسبات التي وقعت بين آيات القرآن وسوره نقول: هي وجوه الاتصال والارتباط بين الايات ووجوه الارتباط بين السور طبقاً لترتيب التلاوة في المصحف العثماني. (١)

علم مناسبات القرآن:

علم المناسبات بشكل عام هو: "علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه: أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب. وثمرته: الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب". (٢) ومن هنا نفهم ان علم مناسبات القرآن هو علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن في آياته وسوره طبقاً لترتيب التلاوة في المصحف العثماني.

وفائدته كما قال الزركشي (٣): "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء". (٤) وعبارة الزركشي هذه توهم أن علم المناسبة هو الذي يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض في حين أن الارتباط قائم وموجود في الأصل، إلا أن علم المناسبة يكشف هذا الارتباط ويميط عنه اللثام فيبدو بعد أن كان خافياً. (٥)

(١) فكرة المناسبات بين آيات القرآن وسوره. الدكتور أحمد حسن فرحات. بحث مخطوط. ص-٣٢ وحيث يأتي يشار إليه: فكرة المناسبات. د. أحمد فرحات.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الإمام المفسر برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، إشراف: الدكتور محمد عبد المعيد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية- بجيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٦٩-١٩٦٩م، ط١/، ج١/، ص٥، وحيث يأتي يشار إليه: نظم الدرر، البقاعي.

(٣) محمد بن بهادر بن عبدالله المصري الزركشي الشافعي فقيه أصولي محدث أديب ومن مؤلفاته "البرهان في علوم القرآن". توفي ٧٩٤هـ، له ترجمة في: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كخالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ج٩/، ص١٢١-١٢٢، وحيث يأتي يشار إليه: معجم المؤلفين، عمر رضا كخالة. وله ترجمة أيضاً في طبقات المفسرين، الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ط١، ج٢، ص١٦٢-١٦٣، وحيث يأتي يشار إليه: طبقات المفسرين، الداوودي.

(٤) البرهان في علوم القرآن. الإمام بدر الدين الزركشي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة، م١/، ج١/، ص٣٦. وحيث يأتي يشار إليه: البرهان في علوم القرآن. الزركشي.

(٥) فكرة المناسبات. الدكتور / أحمد فرحات. ص/٣٣.

لذلك فإن دور علم المناسبات هو اكتشاف الارتباط القائم الموجود في الأصل في كلام الله تعالى. وهكذا مما فهمنا من كلام الفراهي (١) حينما تحدث عن موضوع الربط حيث يُفهم أن الارتباط موجود قبل المناسبة (٢).

والإمام السيوطي (٣) حينما ذكر ذلك في "مناسبة الآيات والسور" اقتصر في إرجاعها إلى معنى رابط بينها فقط، إما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعللة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه (٤) وهو ما نجّمعه في التناسب الموضوعي.

ومن الممكن أن أقول: إن المناسبات القرآنية لا تقتصر في مرجعها إلى معنى رابط بينها فقط وإنما يصلح أن يكون مرجعها الوقائع التاريخية التي عاشت فيها الدعوة الإسلامية وهي المراد بالتناسب الدعوى أو الحركي كما أن مرجعها إلى طبيعة مواجهة القرآن الانسان في خطابه وهي المراد بالتناسب المنطقي ومع مراعاة مرجعها إلى قضية الإعجاز القرآني وهي التناسب البياني في سور القرآن وآياته.

اتجاهات العلماء في مناسبات القرآن:

إذا تأملنا فيما كتبه العلماء حول المناسبات يمكننا أن نقسم اتجاهاتهم إلى أربعة اتجاهات:

(١) هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الأنصاري الفراهي ولد سنة ١٢٧٠هـ، في قرية فريها من قرى مديرية "أعظم كره" في الولايات المتحدة بالهند. أخذ الأدب العربي واللغة العربية بلاهور.

وفي العشرين من عمره عزج على اللغة الإنجليزية ودخل في كلية على كره الإسلامية وهو صاحب مؤلفات كثيرة. وتوفي ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م، وله ترجمة في: ترجمة صاحب هذه الرسالة المعلم عبد الحميد الفراهي. السيد سليمان الندوي. دار المصنفين، الهند، ١٣٤٩هـ. ص/أ- ح وحيث يأتي يشار إليه: ترجمة المعلم عبد الحميد الفراهي. السيد سليمان الندوي.

(٢) دلائل النظام. المعلم عبد الحميد الفراهي. الدائرة الحميدية ومكتبها، الهند، ١٣٨٨هـ. ط١، ص ٤، وحيث يأتي يشار إليه: دلائل النظام، الفراهي.

(٣) هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الحضيري السيوطي جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب ولد ٨٤٩هـ ونشأ في القاهرة بيتا. له نحو ٦٠٠ مصنف. منها الكبير والرسالة الصغيرة. توفي ٩١١هـ. وله ترجمة في: الأعلام/ الزركلي. م/٣، ص/٣٠١. وله ترجمة أيضا في: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة: ج/٥، ص/١٢٨.

(٤) الإقتان في علوم القرآن. الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث، القاهرة، ١٩٨٥-١٤٠٥م. ط/٣، م/٢، ج/٣، ص/٣٢٣. وحيث يأتي يشار إليه: الإقتان في علوم القرآن، السيوطي.

الاتجاه الأول:

وهو القول بعدم وجود المناسبة. وخير من يمثل هذا الاتجاه هو الإمام الشوكاني (١) حيث عرض لهذا الموضوع بصفتين أثناء تفسيره لسورة البقرة. حيث الكلام عن بني إسرائيل (٢) بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام. (٣)

ولما لم يجد الشوكاني مناسبة لهذا الانتقال قال: "أعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتزده عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه". (٤)

فيرى أن طلب المناسبة ليس إلا فتحاً لأبواب الشك وتوسيعاً لدائرة الريب والقرآن ليس بليغا معجزا لمجرد ظهور الوجه المقتضى للمناسبة وتبيين الأمر الموجب للارتباط... ولو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشاءاته أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحاً وأخرى هجاءً وحيناً نسيباً وحيناً رثاءً وغير ذلك من الأنواع المتخالفة فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعته ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في النكاح ونحو ذلك؛ وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء وما يشابه ذلك، نُعِدُّ هذا المتصدي لمثل هذا مصابا في عقله متلاعبا بأوقاته عابثا بعمره. وإذا كان مثل هذا بهذه المتزلة وهو ركوب الحماقه في كلام البشر فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه؟ (٥)

(١) محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، ولد بهجرة شوكان له ١١٤ مؤلفاً منها "نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار" و"فتح القدير" في التفسير، ولد ١١٧٣هـ-١٧٦٠م، ومات بصنعاء سنة ١٢٥٠هـ-١٨٣٤م. وله ترجمة في: الأعلام، الزركلي، ٦م، ص ٢٩٨.

(٢) انظر البقرة: ٤٠.

(٣) انظر البقرة: ٣٠-٣٩.

(٤) فتح القدير الجامع بين في الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. ج ١، ص ٧٢. وحيث يأتي يشار إليه: فتح القدير، الشوكاني.

(٥) المرجع السابق، ص ٧٢-٧٣.

الاتجاه الثاني:

وهو القول بالمناسبة في حال دون حال. وعلى هذا الشيخ عز الدين بن عبد السلام (١) حيث قال: "إن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ويتشكك بعضه ببعض لثلا يكون مقطعاً مُتَبَرِّأً، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد فيرتبط أوله بآخره. فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر. ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يضان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه. فإن القرآن نزل على الرسول عليه السلام في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض إذ ليس بحسن أن يرتبط تصرف إله في خلقه وإحكامه بعضه ببعض مع اختلاف العلل والأسباب". (٢) وهو متوسط في رأيه إذ يقول بالمناسبة الظاهرة دون الخفية وذلك ليهرب من التكلف الذي يتصوره لو قال بالمناسبة والذي ربما وجد شيئاً منه عند من قالوا بالمناسبة ممن خاضوا هذا البحر ولم يحسنوا فيه السباحة فأشرفوا على الغرق.... فهو يرى حسن المناسبة ولكنه يشفق على من يسعى إليها مخافة ألا يصل إليها. (٣)

الاتجاه الثالث:

وهو القول بالمناسبة وعليه جمهور من المفسرين وذلك مثل الإمام فخر الرازي. (٤)

(١) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن شيخ الإسلام، الشافعي، عز الدين الملقب بسطان العلماء، وصار رأس الشافعية في وقته، وله كتاب "الإشارة إلى الإيجاز" توفي سنة ٨٦٦٠-١٢٦٢م. له ترجمة في: فوات الوفيات والذيل عليها. محمد بن شاکر الكبشي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ٢ ص ٣٥٠-٣٥٢ وحيث يأتي يشار إليه: فوات الوفيات، الكبشي، وله ترجمة أيضاً في طبقات المفسرين، الداودي ج ١/ ص ٣١٥-٣٢٠.

(٢) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. الإمام الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي. تقديم رمزي سعد الدين دمقبة. دار البشائر الإسلامية. ٨١٤٠٨-١٩٨٧م. ط ١، ص ٢٢١. وحيث يأتي يشار إليه: الإشارة إلى الإيجاز، عز الدين. وانظر أيضاً: العز بن عبد السلام حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، دكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، ٨١٤٠٢-١٩٨٢م، ط ٢، ص ٧٥، وحيث يأتي يشار إليه: العز بن عبد السلام، الوهبي. (٣) فكرة المناسبات. الدكتور أحمد فرحات ص ٤٠.

(٤) محمد بن عمر بن حسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي، الإمام المفسر الفقيه الشافعي وله كتب كثيرة منها "المحصول في علم الأصول" و"مفاتيح الغيب" في التفسير توفي سنة ٨٦٠٦-١٢١٠م له ترجمة في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م، ج ٤، ص ٢٤٨-٢٤٩، وحيث يأتي يشار إليه: وفيات الأعيان، ابن خلكان، وله ترجمة أيضاً: في سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد عثمان الذهبي، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط ومجموعة، مؤسسة الرسالة، بيروت ٨١٤٠٩-١٩٨٨م، ط ١، ج ٢١، ص ٥٠٠-٥٠١، وحيث يأتي يشار إليه: سير أعلام النبلاء، الذهبي.

والبقاعي (١) وابن الزبير (٢) وغيرهم.

قال الإمام فخر الرازي في تفسيره لسورة البقرة: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الامور". (٣)

وقال البقاعي في نظم الدرر: "وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما: نظم كل جملة على حياها بحسب التركيب والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب". (٤)

لذلك اعتبر البقاعي كأن هذا العلم في غاية النفاسة وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها. ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها. (٥) ومن بين أصحاب هذا الاتجاه من أفرد بالتأليف في مناسبة سور القرآن وحدها، مثل ابن الزبير والغماري (٦) ومن بينهم من أفرد بالتأليف في مناسبة آيات القرآن وسوره وذلك مثل البقاعي ومنهم من تحدث عنها من خلال عرضهم في تفسير القرآن الكريم وذلك مثل فخر الرازي والنيسابوري. (٧)

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن الزُّباط بن علي بن أبي بكر البقاعي أبو الحسن برهان الدين الشافعي مؤرخ أديب مفسر محدث وله "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" و"عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران" توفي سنة ٨٨٥-١٤٨٠هـ. وله ترجمة في: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ج ١، ص ٧١، وأيضا في: الأعلام، الزركلي، ١٣، ص ٥٦.

(٢) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر محدث مؤرخ من أبنا العرب الداخلين إلى الأندلس، ولد في جيان وتوفي في غرناطة سنة ٧٠٨-١٣٠٨م، ومن كتبه "ملاك التأويل في التشابه اللفظي في التنزيل" و"البرهان في تناسب سور القرآن" و"الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام" وغيرها. وله ترجمة في: الأعلام، الزركلي، ١٣، ص ٨٦.

(٣) التفسير الكبير: الإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣/٣، ج ٧، ص ١٢٨، وحيث يأتي يشار إليه: التفسير الكبير. الإمام الفخر الرازي.

(٤) نظم الدرر، البقاعي: ج ١، ص ١١.

(٥) المصدر السابق ج ١، ص ٦.

(٦) أبو الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري الحسيني، له "جواهر البيان في تناسب سور القرآن" سيأتي.

(٧) الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، نظام الدين، مفسر، أصله من بلدة "قم" ومنشأه وسكنه في نيسابور له كتب منها "غرائب القرآن ووعائب الفرقان" يعرف بتفسير النيسابوري و"شرح الشافية" في الصرف و"أوقاف القرآن" و"لب التأويل" وغيرها توفي بعد ٨٥٠هـ. له ترجمة في: الأعلام، الزركلي م ٢، ص ٢١٦.

الاتجاه الرابع

وهو القول بأكثر من المناسبة ويمثل هذا الاتجاه العلامة الفراهي والأستاذ الشهيد سيد قطب والدكتور عبدالله دراز حيث يعرف الفراهي بنظرية النظام .

أما الأستاذ سيد قطب فقد اعتنى في ظلال القرآن عناية كبيرة بالوحدة الموضوعية للسورة وبالوحدة الموضوعية للقرآن كله (١). كما تحدث عن التناسق والتناسب بين الآيات القرآنية في كتابه التصوير الفني في القرآن الكريم. (٢)

والذي يقول بالنظام يرى أن المناسبة جزء من أجزائه، قال الفراهي: "التناسب إنما جزء من أجزائه، والنظام شيء زائد عليه بل أوسع منه وأعم... فعلم النظام لا يظهر التناسب وحده بل يجعل السورة كلاماً واحداً ويعطيها وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها ذات عمود تجري إليها أجزاؤها ويربط الآيات بعضها ببعض حتى يأخذ كل آية محلها الخاص... فمن تدبر القرآن في ضوء النظام فلا شك أنه لا يخطأ في فهم معانيه، وذلك لأن النظام قد بين له سمت الكلام وينفي عنه تشاكس المعاني ويرد الأمور إلى الوحدة...." (٣) وذهب الدكتور عبدالله دراز إلى النظرة الشمولية للسورة حيث يرى أن لا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين أجزاء السورة إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معيناً له في معرفة تلك التفاصيل. (٤) تطور فكرة المناسبة والتأليف فيها:

ظهرت المناسبة القرآنية كفكرة متمشية مع فكرة تناسب آياته وسوره بعضها مع بعض . ويبدو أن اول من أظهرها ونبه إلى جلالة قدرها وعاب على العلماء تقصيرهم في الكشف عن أسرارها هو الشيخ أبو بكر النيسابوري (٥) وكان غزير العلم في الشريعة والأدب وكان يقول على الكرسي إذا قرىء عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة. (٦)

(١) مدخل إلى ظلال القرآن. الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي. دار المنارة، جدة، ١٩٤٠٦-١٩٨٦م. ط ١، ص ١١١/ وحيث يأتي يشار إليه: مدخل إلى ظلال القرآن، الدكتور صلاح الخالدي.

(٢) التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. بيروت: دار الشروق، بيروت، ١٩٤٠٧-١٩٨٧م. ط ٩. ص ٣٦ و ٨٧، وحيث يأتي يشار إليه: التصوير الفني، سيد قطب. (٣) دلائل النظام، الفراهي، ص ٥.

(٤) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن. الدكتور محمد عبدالله دراز. دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م. ط ٣، ص ١٥٨-١٥٩ وحيث يأتي يشار إليه: النبأ العظيم، الدكتور عبدالله دراز.

(٥) عبدالله بن محمد بن زياد النيسابوري، أبوبكر، حافظ الحديث، كان إمام الشافعية في عصره بالعراق. ولد سنة ٢٣٨هـ - ٨٥٢م، وتوفي سنة ٣٢٤هـ - ٩٣٦م. وله ترجمة في: الأعلام، السزركلي، م ٤، ص ١١٩.

(٦) البرهان في علوم القرآن. الزركشي. م ١/ ج ١، ص ٣٦. وانظر أيضاً: الإتيان في علوم القرآن، السيوطي. م ٢/ ج ٣، ص ٣٢٢.

ثم انتقلت المناسبة كفكرة إلى مرحلة التأليف حيث وجدت التأليفات والتصنيفات في ذلك سواء كان في المناسبة بين الآيات أم في المناسبة بين السور.

إلا أن الطريقة التي يلجأ إليها العلماء في المناسبة بين الآيات غالباً الأحيان هي طريقة التحليل. حيث إنهم لا يجاوزون الآيتين المتجاورتين وبالتالي ينحصر البحث في معنى الآيتين ولا يجاوزهما إلى معانٍ أخرى تفهم من مجموع الآيات في السورة الواحدة، وهذه الطريقة تؤدي إلى وقوع المشكلات لأنها لم تكن دائماً تسعفهم في الحصول على المناسبة القوية والارتباط الحقيقي فيلجأون إلى مناسبات ضعيفة ربما اضطررتهم إلى شيء من التكلف. (١) وبناءً على هذا الأساس حمل أصحاب الاتجاه الثاني مثل عزالدين على القول بها في حال دون حال على الرغم من أنه يصرح بأنها علم حسن، إلا أنه يشترط أن تكون في أمر متحد مرتبطاً أولاً بآخره. فإذا لم يكن الأمر متحداً فلا داعي للقول بالمناسبة وفي هذه الحالة ترك بحث المناسبة أولى من أن يخوض في بحر لا يحسن فيه السباحة.

كما سلك الفريق الأول في إنكار المناسبة والتشجيع على القائلين بها. ولكن تهزب الشوكاني عن القول بالمناسبة لا يبنى على وجود التكلف فقط، وإنما استتر بالشواهد والأدلة التي أوقعته في مشكلات أكبر؛ منها ما توهمه من أن نزول القرآن بشكل منجم حسب الحوادث المختلفة، يعني أن القرآن النازل فيها لا بد أن يكون مختلفاً كاختلافها، فالتماس المناسبة فيه تكلف محض وتعسف بين. والمشكلة الثانية ما توهمه من أن القرآن قد وقع ترتيبه عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة. (٢)

٤١٦٣٩٨

وتطورت نظرية المناسبة حتى وصلت إلى أوائل القرن العشرين حيث ظهر دور الفراهي بتوضيح نظرية النظام والشهيد سيد قطب بنظرية الوحدة الموضوعية والدكتور عبدالله دراز بنظرية النظرة الشمولية للسورة. ويبدو أنهم قد استنبطوا من كلام المتقدمين الذين تحدثوا في موضوع المناسبة القرآنية فخرجوا بعد دراستهم وتأملاتهم للقرآن بالنظرية الجديدة ونستطيع أن نتصور أن الشوكاني لو عاصرهم لما امتنع عن قوله بالمناسبة. (٣)

(١) فكرة المناسبات. د/ احمد فرحات. ص ٤٠ .

(٢) فتح القدير، الشوكاني. م/١، ج/١، ص ٧٣ .

(٣) هذا الافتراض مبني على استسلام الشوكاني وقبوله نظرية النظم القرآني حينما فسر قوله تعالى "قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين" الزخرف/٨١، انظر فتح القدير. الشوكاني. م/٢، ج/٣، ص ٥٦٦ .

ولا شك أن ما ذهب إليه أصحاب هذا الاتجاه هو الراجح وهو القول المصيب الملاحظ للحكمة المعتمد على الأدلة المقنعة. ولما كانت مقدرة الباحثين المتأملين في النص القرآني متفاوتة فلا بد أن تتفاوت النتائج التي ينتهون إليها، ومن ثم فقد تكون هناك أكثر من وجهة نظر في الوحدة الموضوعية للسورة أو للمناسبات بين الآيات أو بين السور. وإنما يكون الترجيح بينها طبقاً لأصول الترجيح المعروفة. وعلى هذا يعتبر القول بالوحدة الموضوعية للسورة أو وجود المناسبات بين الآيات وبين السور نوعاً من الاجتهاد يقوي ويضعف حسب قوة الدليل وضعفه. (١)

وإذا أردنا أن نرتب تطور التأليف في موضوع المناسبة نذكره كما يلي:
الأول: من أفرده بالتأليف:

- ١- الأستاذ أبو جعفر بن الزبير المتوفى ٧٠٨هـ في كتاب سماه "البرهان في تناسب سور القرآن". (٢)
- ٢- الشيخ برهان الدين البقاعي المتوفى ٨٨٥هـ في تفسيره "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".
- ٣- الإمام جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١هـ في كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور". (٣)
- ٤- العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي المتوفى ١٣٤٩هـ في كتابه "دلائل النظام". وكذلك تفسيره الذي لم يتمه المسمى "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". (٤)
- ٥- الشيخ أبو الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري الحسيني في كتابه "جواهر البيان في تناسب سور القرآن". (٥)

(١) فكرة المناسبات. د/ أحمد فرحات. ص/ ٤٤ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن، الإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق: د. سعيد الفلاح، وزارة التعليم العالي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، وحيث يأتي يشار إليه: البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير.

(٣) تناسق الدرر في تناسب السور. الإمام جلال الدين السيوطي. دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م وحيث يأتي يشار إليه: تناسق الدرر، السيوطي .

(٤) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان. المعلم عبد الحميد الفراهي. سلسلة دائرة الحميدية، الهند، ١٣٥٧هـ. وحيث يأتي يشار إليه: تفسير نظام القرآن، الفراهي.

(٥) جواهر البيان في تناسب سور القرآن، أبو الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري الحسيني، عالم الكتب، بيروت. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، وحيث يأتي يشار إليه: جواهر البيان، الغماري.

- ٦- ابن شهيد ميلسون محمد بن كمال أحمد الخطيب. وكتابه المسمى "نظرة العجلان في أغراض القرآن. بمناسبة آياته ووحدة الموضوع في سورة". (١)
- ٧- الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم في كتابه "الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره". (٢)
- الثاني: من عرض له من المفسرين والكتاب:
- ١- الإمام محمود بن عمر الزخشي المتوفى ٥٣٨هـ في تفسيره "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". (٣)
- ٢- الإمام فخر الدين الرازي المتوفى ٦٠٦هـ في تفسيره "التفسير الكبير".
- ٣- القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي المتوفى ٦٨٥هـ في تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل". (٤)
- ٤- محمد بن يوسف الشهرير بأبي حيان الأندلسي المتوفى ٧٤٥هـ في تفسيره "البحر المحيط". (٥)
- ٥- العلامة أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي المتوفى ٧٩٠هـ في كتابه "الموافقات في أصول الشريعة" في المسألة الثالثة عشرة. (٦)

(١) نظرة العجلان في أغراض القرآن بمناسبة آياته ووحدة الموضوع في سورة. ابن شهيد ميلسون محمد بن كمال أحمد الخطيب. المطبعة العصرية دمشق، ١٣٦٥هـ. وحيث يأتي يشار إليه: نظرة العجلان في أغراض القرآن. ابن شهيد ميلسون.

(٢) الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره. الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم. ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. ط١، وحيث يأتي يشار إليه: الإعجاز البياني. د/ محمد أحمد يوسف القاسم.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الإمام محمود بن عمر الزخشي. تصحيح مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م. وحيث يأتي يشار إليه: الكشاف، الزخشي.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل. القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. ط١، وحيث يأتي يشار إليه: أنوار التنزيل. البيضاوي.

(٥) تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ط٢، وحيث يأتي يشار إليه: البحر المحيط، أبو حيان.

(٦) الموافقات في أصول الشريعة، العلامة أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي ضبط الأستاذ: محمد عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، ط٢، ص ١٤١٢، وحيث يأتي يشار إليه: الموافقات، الشاطبي.

- ٦- الإمام بدر الدين محمد الزركشي المتوفى ٧٩٤هـ في كتابه "البرهان في علوم القرآن".
- ٧- نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري المتوفى ٨٥٠هـ في تفسيره "غرائب القرآن و رغائب الفرقان". (١)
- ٨- الإمام جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١هـ في كتابه "الإتقان في علوم القرآن".
- ٩- أبو السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى ٩٨٢هـ في تفسيره المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (٢)
- ١٠- العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي المتوفى ١٣٤٢هـ في تفسيره "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني". (٣)
- ١١- السيد محمد رشيد رضا المتوفى ١٣٥٤هـ في تفسيره "تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار". (٤)
- ١٢- الاستاذ أحمد مصطفى المراغي المتوفى ١٣٧١هـ في "تفسير المراغي". (٥)
- ١٣- الدكتور محمد عبدالله دراز المتوفى ١٣٧٧هـ في كتابه: "النبأ العظيم".
- ١٤- الإمام الأكبر محمود شلتوت المتوفى ١٣٨٣هـ في تفسيره "تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى". (٦)

-
- (١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، تحقيق ابراهيم عطوه عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م، ط١، وحيث يأتي يشار إليه: غرائب القرآن، نظام الدين النيسابوري.
 - (٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أو تفسير أبي السعود. العلامة أبو السعود. دار الفكر، وحيث يأتي يشار إليه: إرشاد العقل السليم. أبو السعود.
 - (٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي. البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، وحيث يأتي يشار إليه، روح المعاني. الآلوسي.
 - (٤) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار. الإمام محمد رشيد رضا. دار المعركة، بيروت، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير المنار، محمد رشيد رضا.
 - (٥) تفسير المراغي. الأستاذ أحمد مصطفى المراغي. دار الفكر، ١٣٦٥هـ وحيث يأتي يشار إليه: تفسير المراغي. أحمد مصطفى .
 - (٦) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى. الامام الأكبر محمود شلتوت. دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ط١٠، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير القرآن، شلتوت.

- ١٥- الأستاذ الشهيد سيد قطب المتوفى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م في تفسيره "في ظلال القرآن" (١)
وفي كتابيه "التصوير الفني في القرآن" و "مشاهد القيامة في القرآن". (٢)
- ١٦- الأستاذ سعيد حوى المتوفى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م في تفسيره "الأساس في التفسير". (٣)
- ١٧- الدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج". (٤)

-
- (١) في ظلال القرآن. سيد قطب، دار الشروق، بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. ط ١٥، وحيث يأتي يشار إليه: في ظلال القرآن، سيد قطب.
 - (٢) مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ط ٧، وحيث يأتي يشار إليه: مشاهد القيامة، سيد قطب.
 - (٣) الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ط ٢، وحيث يأتي يشار إليه: الأساس في التفسير، سعيد حوى.
 - (٤) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ط ١، وحيث يأتي يشار إليه، التفسير المنير، الزحيلي.

الباب الأول التناسب الموضوعي

الفصل الأول: التناسب الموضوعي في السورة الواحدة

الفصل الثاني: التناسب الموضوعي بين السورتين المتجاورتين

التناسب الموضوعي هو المناسبات القرآنية التي ترجع إلى معنى يربط بينها وهو كما قال الإمام السيوطي إما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعللة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه (١).

والحديث عنه في هذا الباب على النحو التالي:

الفصل الأول: التناسب الموضوعي في السورة الواحدة

الفصل الثاني: التناسب الموضوعي بين السورتين المتجاورتين.

(١) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، ٢م، ج ٣، ص ٣٢٣ .

الفصل الأول

التناسب الموضوعي في السورة الواحدة

المبحث الأول: مناسبة فاتحة السورة لموضوعها

المبحث الثاني: مناسبة خاتمة السورة لموضوعها

المبحث الثالث: مناسبة قصص السورة لموضوعها

المبحث الرابع: مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها

المبحث الخامس: مناسبة المعارضات في السورة

المبحث الأول

مناسبة فاتحة السورة لموضوعها.

ذكر الإمام الزركشي أن الله سبحانه وتعالى قد افتتح كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام ولا يخرج شيء من السور عنها، الأول: استفتاحه بالثناء عليه - عزوجل - مثل "تبارك الذي نزل الفرقان" الفرقان: ١، والثاني: الاستفتاح بحروف التهجي مثل "الم" البقرة: ١، والثالث: الاستفتاح بالنداء مثل "يا أيها الذين آمنوا" المائدة: ١، والرابع: الاستفتاح بالجمل الخبرية مثل "أتى أمر الله" النحل: ١، والخامس: الاستفتاح بالقسم مثل "والذاريات" الذاريات: ١، والسادس: الاستفتاح بالشرط مثل "إذا وقعت الواقعة" الواقعة: ١، والسابع: الاستفتاح بالأمر مثل "قل يا أيها الكافرون" الكافرون: ١، والثامن: الاستفتاح بالاستفهام مثل "هل أتى على الإنسان" الإنسان: ١، والتاسع: الاستفتاح بالدعاء مثل "ويل لكل همزة" الهمزة: ١، والعاشر: الاستفتاح بالتعليل مثل "إيلاف قريش" قريش: ١. (١)

ونلاحظ أن كلام الزركشي يشير إلى أن منبع أنواع الفواتح مأخوذ عن الألفاظ أو الكلمات التي وقعت في أوائل السور. ولذلك نجد أحياناً تأتي الشئاء لورود كلمة "تبارك" وبالنداء لوجود كلمة "يا أيها" وبالتهجي لورود الأحرف المقطعة وغيرها. ونحن إذا قلنا فاتحة السورة فلا نقصد الأنواع العشرة وإنما الآيات الأولى التي صدرت في السورة وتشير إلى موضوعها. وهي إما أن تكون في آية واحدة أو آيتين أو أكثر من ذلك. (٢)

وللوصول إلى معرفة فاتحة السورة فإنه يحتاج إلى مزيد تدبر وتأمل في الآيات الكريمة في أوائل السور، والاختلاف في تقسيمها راجع إلى قوة الاستدراك والاستنباط فيها. ثم فواتح السور تعتبر كالابتداء في كلام البشر. والابتداء هو أول ما يقرع السمع، لذلك ينبغي للمتكلم ان يتأنق في كلامه حتى يكون أعذب لفظاً وأحسن سبكاً وأصح معنى. فإن كان كذلك أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه. وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه، وأحسن الابتداء هو ما ناسب المقصود. (٣)

ومن أوضح فواتح السور التي تدل على ما تقدم هي: سورة الفرقان وسورة سبأ، وسورة محمد، وسورة الممتحنة.

(١) البرهان في علوم القرآن. الزركشي ١م . ج ١ . ص ١٦٥-١٨١ .

(٢) مثل افتتاح سورة المؤمنون بإحدى عشرة آية.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني. شرح وتعليق وتنقيح: الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. ط ٢، ج ٦، ص ١٤٩ و ١٥١. وحيث يأتي يشار إليه: الإيضاح، الخطيب القزويني.

المطلب الأول: مناسبة فاتحة سورة الفرقان لموضوعها

وفي ضوء سورة الفرقان جاء افتتاحها في ثلاث آيات "تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون. ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً". الفرقان ١-٣. تتضمن فاتحة السورة ما يدل على تعاليه جل شأنه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله أو على كثرة فضله تعالى ودوامه. وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً شاهداً على فضله محذراً من عقابه. (١)

ولمّا كان القرآن العظيم نعمةً الله الكبرى على الإنسانية لذلك بدأت السورة الكريمة بتمجيد الإله الذي أنزل هذا الكتاب فاصلاً وفارقاً بين دعوة الخير ودعوة الشر وبين نور الإيمان وظلمة الكفر والطغيان. (٢)

وبعد أن وصف سبحانه نفسه بصفات العزة والجلال وبين وجه الحق في ذلك أردف بحكاية أباطيل عبدة الأوثان الذين اتخذوا من دونه آلهة. ليعجب أولو النهى من حالهم وتنبهوا إلى خطأ أفعالهم وتسفيهاً لأحلامهم. فقد انحرفوا عن منهج الحق وركبوا المركب الذي لا يركبه إلا كل آسن الرأي مسلوب العقل. (٣)

أما هذه السورة من السور المكية التي كانت - بشكل عام - تعنى بأمور العقيدة وأصول الدين وتعالج شبهات المشركين حول الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء وحول القرآن الكريم المعجزة الخالدة. ثم ختمت بأوصاف عباده المخلصين الذين يمشون على الأرض هوناً. أما الموضوع الأساسي للسورة هو العناية بالرسول صلى الله عليه وسلم بحيث تسلي آلامه ومتاعبه وتحقق عنه وتفيض عليه من الثقة والطمأنينة. وذلك في مواجهته مشركي قريش وعنادهم وجدالهم له بالباطل ووقوفهم في وجه الهدى وصددهم عنه. (٤)

وفي علاج ذلك قسم الأستاذ الشهيد سيد قطب هذه السورة إلى أربعة أشواط وجعلها وحدة متصلة يصعب فصل بعضها عن بعض. فالشوط الأول: بدأ بتسبيح الله وحده على تنزيل هذا القرآن مع حكاية مقولات المشركين المؤذية عن الرسول صلى الله عليه وسلم. والشوط الثاني: بدأ بتناول المكذبين بلقاء الله على الله. والشوط الثالث: جولة في مشاهد

(١) تفسير روح المعاني. الآلوسي. ج/١٨، ص/٢٣٠.

(٢) إيجاز البيان في سور القرآن. الدكتور محمد علي الصابوني. مكتبة الغزالي ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ط ٢، ص ١٠٥، وحيث يأتي يشار إليه: إيجاز البيان، الصابوني.

(٣) تفسير المراغي، أحمد مصطفى، ج ٦، ص ١٨، ص ١٤٨.

(٤) في ظلال القرآن. سيد قطب، ج ٥، ص ١٩، ص ٢٥٤٤.

الكون. والشوط الأخير: يصور عباد الرحمن الذين يسجدون له ويعبدونه ويسجل مقوماتهم التي استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة. (١)

أما مناسبة فاتحة السورة لموضوعها تظهر من النواحي التالية:

١- جاء في مقدمة السورة تمجيد الإله الذي أنزل الفرقان الفارق بين الحق والضلال والذي ثبت الثناء والمدح له، والذي خضع له ما في السموات والأرض والذي هو خالق كل شيء. هو الإله الذي اعتنى برسوله صلى الله عليه وسلم في مواجهة خصومة قومه ومقولاتهم المؤذية عنه في تكذيبه فيما جاءهم به. فتلك العناية من هذا الرب تخفف أحزانه وتمسح آلامه وتثبت قلبه.

٢- إخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن من جدال قومه له ادعاءهم بأن القرآن إفك افتراه من عنده وأنه أساطير الأولين قد كتبها عنهم، عدا عن أنه رسول من البشر... فنفى الله تعالى ذلك في فاتحة السورة وذكر بأنه أنزل القرآن ليكون فرقانا بين الحق والضلال وإشارة إلى أن ادعاءاتهم ناتجة عن مبادئهم الفاسدة واتخاذهم إلهة من دون الله.. وذلك مما يخفف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويكشف همّه وغمّه ويطمئن بذلك صدره - صلى الله عليه وسلم - .

ولاشتمال السورة على ذكر المعاندين لمنهج الله تعالى، وتصويرها للمعركة العنيفة بين صاحب الرسالة والمعاندين، وما أوقع ذلك الرسول الكريم في جهد ومشقة، اختصت الفاتحة بالإنذار دون البشرى إيداناً لهؤلاء بوقوع العقوبة وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم الذي وقف بمواجهة هذا كله وحيداً فريداً مجرداً من القوة والمال.

المطلب الثاني: مناسبة فاتحة سورة سبأ لموضوعها:

استهلّت سورة سبأ بحمد الله. قال تعالى: "الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض. وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير. يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور." سبأ ١-٢ .

وهي من السور التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية وتتناول أصول الدين من إثبات الوحدانية وإثبات النبوة وتقرير الإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور كسائر السور المكية. (٢)

(١) في ظلال القرآن م/٥ ، ج/١٩ ، ص/٢٥٤٦-٢٥٤٧ .

(٢) إيجاز البيان، الصابوني، ص ١٤٠ وانظر أيضاً: التفسير المنير، الزحيلي ج ٢٢، ص ١٣١-١٣٢ .

أما مقصود السورة بشكل عام فهو بيان حجة التوحيد وبرهان نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزات داود وسليمان ووفاتهما وهلاك سبأ وشؤم الكفران وعدم الشكر وإلزام الحجة عابدي الأصنام ومناظرة مادة الضلالة وسفلتهم ومعاملة الأمم الماضية مع النبيين ووعده المنفقين والمصدقين بالإخلاف والرجوع بإلزام الحجة على منكري النبوة وتمنى الكفار عند وفاتهم الرجوع إلى الدنيا. (١)

ومهما كانت موضوعاتها متعددة فالتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء أمر واضح ويبدو أنه هو الموضوع الأساسي الذي جاء به.

وفي معالجة تلك القضية فإنها جاءت بأساليب شتى تتكون من عرض إنكار الكافرين لمجيء الساعة وأسلوب القصص كقصة داود وسليمان وقصة سبأ، وتتحدى المشركين أن يدعوا الذين يزعمون أنهم آلهة من دون الله وتسفيه آرائهم. كما أنها جاءت بمشاهد القيامة والجزاء وبدعوة المشركين إلى الإيمان بالله الواحد القهار وأن يتفكروا في شأن هذا الرسول الذي بعث منهم وهم يعرفون سيرته وحياته وصدقه وأمانته.

تتركز فاتحة السورة بأن الحمد المطلق الكامل هو لله مالك السموات والأرض وما فيهما والمتصرف بشؤونهما يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (٢). ويرتفع الحمد من عباده على النعم التي أنعم بها على خلقه حتى ممن كانوا يجحدونه في الدنيا (٣). وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره والخبير الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء (٤). وهو الله الذي يعلم ما على الأرض وما يغيب فيها من شيء. كما أنه يعلم ما يخرج من الأرض وما يصعد في السماء إنه العالم الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض مما ظهر فيها أو بطن. وهو الرحيم الغفور. (٥)

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، ج ١، ص ٣٨٢، وحيث يأتي يشار إليه: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ج ٢٢، ص ١٣٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، م ٥٠، ج ٢٢، ص ٢٨٩١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تقديم: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٧-١٩٨٧م، ط ٢، ج ٣، ص ٥٣٣، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨-١٩٨٨م، ج ١٢، ص ٢٢، م ٥٩، وحيث يأتي يشار إليه: جامع البيان، الطبري.

وتظهر المناسبة بين فاتحة السورة وموضوعها كما يلي:

١- ذكر في الفاتحة قضية التوحيد وهو التوحيد المطلق لله. والحمد صفة الملك لما في السموات وما في الأرض فليس لأحد معه شيء. وهذه تعتبر القضية الأولى في العقيدة. وموضوع السورة كذلك يتحدث عن قضية التوحيد وهي قضية البعث والجزاء.

٢- جاء الافتتاح تمهيدا لمشاهد البعث والجزاء حيث تكون الافتتاح من أمر هائل ومؤثر في القلب لإحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه. وهو مناسب كتعبير ليوم البعث والجزاء ممثل في رقعة السموات والأرض الفسيحة وفي عالم الغيب المجهول وفي ساحته الهائلة العظيمة، حيث تثير الرهبة والحشية

فمنذ افتتاح السورة تفتح العيون على هذا الكون الهائل وتعرض صحائفه وما فيها من آيات الله وعلى مجال علمه تعالى الشامل الدقيق الهائل (١). "يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها". سبأ: ٢.

٣- هذه السورة كما عرفناها استعرضت إشراك المشركين بالله وتكذيبهم لرسوله وشكهم في الآخرة واستبعادهم للبعث والنشور. وهذا مناسبة بابتدائها بالحمد لله، وذلك لأن هؤلاء المشركين لا يمدونه ويشركون به، ويكذبون برسوله ويشكّون بالآخرة ويستبعدون البعث والنشور. وهذا سبب شركهم.

ولو لم يَقم هؤلاء المشركون بحمده فهو محمود لذاته ومحمود في هذا الوجود الذي يسبح بحمده، ومحمود من شتى الخلائق ولو شذ البشر عن سائر خلائق الله.

المطلب الثالث: مناسبة فاتحة سورة محمد لموضوعها:

تأتي فاتحة هذه السورة في هذه الآيات الثلاث "الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. كذلك يضرب الله للناس أمثالهم" محمد ١-٣.

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم. دكتور عبدالله محمود شحاته. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٦م. ط ٣، ج ١، ص ٣١٢-٣١٣، وحيث يأتي يشار إليه: أهداف كل سورة ومقاصدها، شحاته.

تتضمن هذه الفاتحة الكلام عن الذين جحدوا بتوحيد الله وعبدوا غيره وصدوا من أراد عبادته فجعل الله أعمالهم تسير على غير هدى. فما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم الأخلاق من عمارة المسجد الحرام ونحو ذلك، لن يشبههم عليه في الآخرة شيئاً. وأما الذين صدقوا الله وعملوا بطاعته وصدقوا بالكتاب الذي نزل على محمد محمداً الله بفعلهم سيء ما عملوا، فلم يؤاخذهم به وأصلح شأنهم في الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جناته. أما سبب إبطال أعمال الكفار فلأنهم اختاروا الباطل على الحق بما وسوس إليهم به الشيطان. وسبب إصلاح بال المؤمنين فلأنهم آمنوا واتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم فأنار بصائرهم وهداهم إلى سبيل الرشاد.(١)

وكذلك يبين الله في فاتحة السورة أمثال حسنات المؤمنين وضلال أعمال الكافرين.(٢) وهي سورة مدنية، ولها اسمان، سورة محمد وسورة القتال. وكون القتال عنصراً بارزاً للسورة يظهر فيما إذا قسمناها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يحرض على قتال المشركين ويحث عليه ويشمل الآيات (٣-١٥).
القسم الثاني: يفضح المنافقين ويكشف نفاقهم ويشمل الآيات (١٦-٣٠).
القسم الثالث: دعوة المسلمين إلى مواصلة القتال والجهاد بالنفس والمال ويشمل الآيات (٣١-٣٨).

وطالما أن هذه السورة سورة مدنية فاهتمامها الأكيد كالسور المدنية حيث إنها مشغولة بالتشريعات والتنظيمات وبناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة المسلمة وتثبيت أركانها إزاء الكيد الذي يكيد لها أعداؤها وإن كانت لا تخلو بحال من الأحوال من حديث العقيدة الذي لا ينقطع الحديث عنه في كتاب الله من أوله إلى منتهاه.(٣)

وذكر البقاعي مقصودها العام وهو الطلب من المؤمنين أن يحفظوا حظيرة الدين بإدانة الجهاد للكفار حتى يلزمهم الصغار أو يبطلوا ضلالهم كما أضل الله أعمالهم لا سيما أهل الردة الذين فسقوا عن محيط الدين إلى أودية الضلال المبين والتزام هذا الخلق الشريف إلى

(١) تفسير المراغي، أحمد مصطفى م، ٩، ج ٢٦، ص ٤٥-٤٦.

(٢) تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل، الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ط ١، ج ٤، ص ١٧٧، وحيث يأتي يشار إليه: معالم التنزيل: البغوي.

(٣) دراسات قرآنية . محمد قطب. دار الشروق، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ط ٣، ص ٢٠، وحيث يأتي يشار إليه: دراسات قرآنية، محمد قطب.

أن تضع الحرب أوزارها بإسلام أهل الأرض كلهم. (١)

أما مقصودها الخاص كما ركزت في موضوعها فقد قال الأستاذ سيد قطب إن القتال هو موضوعها، وهو القتال والجهاد لإعلاء كلمة الله وتطهير الأرض من رجس المشركين، وواجب المؤمنين في نصرة دين الله ووعدته تعالى بنصرهم. (٢)

أما مناسبة فاتحة السورة لموضوعها فهي كما يلي:-

١- علاقة فاتحة السورة لموضوعها وثيقة إذ أنهما تتحدثان عن الجهاد. إلا أن الفاتحة إعلان الحرب السافرة على أعداء الله وأعداء رسوله من الكفار الذين حاربوا الإسلام ووقفوا في وجهه بكل سبيل. وأما موضوعها فهو يدل على أن غاية هذا الجهاد إعلاء كلمة الله وتطهير الأرض من رجس المشركين أعداء الله وأعداء رسوله وواجب المسلمين في نصرة دين الله لكي ينصرهم الله عليهم.

٢- لما كان الموضوع الأساسي للسورة هو القتال ففاتحتها عبارة عن إعلان علنية ذلك القتال من الله تعالى لأعدائه وأعداء دينه. وذلك لبيان أن من آداب الحرب في الإسلام إعطاء الإعلان والإنذار قبل القتال لإعطاء الفرصة لهم إما أن يختاروا الحرب أو السلام مع الجزية.

٣- نظراً إلى أن قضية الوقت وعدم التأجيل في إصدار الأمر والقرار في مواجهة العدو أمر مهم في المعركة فنلاحظ هناك مناسبة أخرى بين فاتحة السورة وموضوعها. حيث لاحظنا أن إصدار قرار الحرب في فاتحة السورة دون تردد وتأجيل. وهو إعلان الحرب السافرة على أعداء الله ورسوله من الكفار الذين حاربوا الإسلام "الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم".

المطلب الرابع: مناسبة فاتحة سورة الممتحنة (٣) لموضوعها:

السورة مدنية بالاتفاق (٤) وموضوعها الرئيسي هو تحريم اتخاذ أعداء الله أولياء. (٥)

(١) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، الحافظ المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تقديم وتحقيق وتعليق وتخريج الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسين، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٨-١٩٨٧م، ط ١، ج ٢، ص ٤٨٧، وحيث يأتي يشار إليه: مساعد النظر، البقاعي.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦، ص ٢٦، ص ٣٢٧٨.

(٣) الممتحنة: إما بفتح الحاء أو كسرهما، فعل الأول هي صفة المرأة التي أنزلت بسببها وعلى الثاني صفة السورة أي المختبرة مثل تسمية سورة براءة بالفاضحة لما كشفت من عيوب المناقنين، راجع: الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، دار الفكر، ط ٢، ج ١٨، ص ٤٩، وحيث يأتي يشار إليه: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ج ٤، ص ٣٢٨.

(٥) الأساس في التفسير، سعيد حوى، م ١٠، ص ٥٨٦٩.

لقد تناولت السورة موضوعها في عدة مقاطع، المقطع الأول: يتمثل في الفاتحة وهي في ثلاث آيات الأولى من السورة، والثاني في الخاتمة.

وخلالهما مقاطع أخرى حيث ضرب فيها المثل بإيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه حين تبرؤوا من قومهم المشركين ليكون ذلك حافزا لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء خليل الرحمن. (١) "قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم، لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد" الممتحنة: ٤-٦ .

وفيها بيان حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين" الممتحنة: ٨، وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وأذوهم "إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون" الممتحنة: ٩ (٢) ليكون أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم (٣) تجنباً من الوقوع في موالاتهم إن كان الأمر ليس في غاية الوضوح. وقبل الخاتمة جاء المقطع يقارن بين موالة الكافرين وموالة المؤمنين التي تتمثل في الولاء الكامل لأحكام الله، وهي أحكام المؤمنات المهاجرات .

فقد جاءت بعد صلح الحديبية النبي - صلى الله عليه وسلم - نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام في المدينة، وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذا للمعاهدة (٤)، ويظهر أن هذا المقطع إنذار بعدم تلبية طلبات قريش إذ المسألة نوع من موالاتهم ومنع رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار تنفيذاً لأحكام الله.

وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحري سبب الهجرة فلا يكون تخلصاً من زواج مكروه ولا طلباً لمنفعة ولا جرياً وراء هوى في دار الإسلام.

(١) إيجاز البيان، الصابوني ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٢ .

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ج ٢٨، ص ١١٦ .

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٤، ص ٣٧٤-٣٧٥ .

فإذا حلفت على قصدتها للهجرة سمح لها عندئذ بالعيش في المجتمع المسلم، فإن تزوجت أعاد زوجها المسلم إلى الزوج المشرك ما أنفقه عليها، وكذلك إذا ذهبت زوجة مسلمة إلى المشركين مرتدة فإذا تزوجت يرد المشركون للمسلم المهر الذي دفعه لها. (١)
ثم بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كيف يبايعهن وغيرهن، لمن يردن الدخول في الإسلام على الأيمان وشروط هذه البيعة. (٢)

وأخيرا في مقطع الخاتمة تحذير للمؤمنين من موالاته أعداء الله الكافرين مثل ما بدأت فاتحة السورة "يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور". الممتحنة: ١٣.

كيف تناسبت فاتحة السورة لموضوعها؟

١- إن موضوع السورة هو تحريم اتخاذ أعداء الله أولياء وهو مناسب لفاتحتها حيث افتتحت السورة بوصية المؤمنين بالبعد عن موالاته أعدائهم والتودد إليهم ونهيهم عن ذلك وأمرهم بالتبري من منهم. فالفاتحة هي نفس حديث الموضوع.

٢- ذكر في موضوع السورة تحريم اتخاذ أعداء الله أولياء، وذكر في الفاتحة مظاهر التولي، قال الاستاذ سعيد حوى أن للتولي مظاهر متعددة، ومن مظاهرها هي التي يدل عليها سبب نزول هذه الآيات (٣) أن ينقل المسلم للكافرين أسرار المسلمين وأن يطلعهم على مخططاتهم (٤)، وقد كتب حاطب كتابا وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يدا. (٥)

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها، شحاته ج ٢، ص ٢٦٦.

(٢) انظر قوله تعالى: الممتحنة: ١٠-١٢.

(٣) لقد روى البخاري في سبب نزولها. انظر: صحيح البخاري بشرح فتح الباري، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، وتحقيق: عبد العزيز عبد الله بن باز، دار الفكر، كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٨٩٠، ج ٨، ص ٦٣٣-٦٣٤، وحيث يأتي يشار إليه: صحيح البخاري.

(٤) الأساس في التفسير، سعيد حوى، م ١٠، ص ٥٨٤٦، وانظر أيضا: جند الله ثقافة وأخلاقا، الأستاذ سعيد حوى، دار عمار، عمان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ١٩٠، وحيث يأتي يشار إليه: جند الله، سعيد حوى.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٤، ص ٣٦٩.

فالفاتحة التي نزلت لسبب قضية حاطب بن أبي بلتعة بيّنت "أن أخبار الكافرين بأسرار المؤمنين لدفع خطط المؤمنين أو لتوقّي الكافرين من المؤمنين ولاء" (١) وهي إذا تناسب موضوعها.

٣- ويجوز أن تكون المناسبة بينهما من ناحية العلة، إذ الفاتحة ذكرت منع اتخاذ المشركين والكفار أولياء لسبب أنهم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولم يكن عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله رب العالمين... "ولو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال.. ويحرصون على أن لاتنالوا خيرا فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة فكيف توالون هؤلاء؟.. قرباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوء ونفعهم لا يصل إليكم إذا أَرْضَيْتُمُوهم بما يسخط الله ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قربته من أحد...". (٢)

(١) جند الله، سعيد حوى، ص ١٩١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٤، ص ٣٧١ .

المبحث الثاني

مناسبة خاتمة السورة لموضوعها

كما كانت خاتمة الشيء تقصد بلوغ آخر الشيء (١). فإننا نقصد بخاتمة السورة آخر الكلام في السورة. وهي إما أن تأتي في آية واحدة مثل سورة الحجرات: "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" الحجرات ١٨. أو آيتين مثل قوله "فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" الجاثية ٣٦-٣٧ أو أكثر من ذلك مثل قوله تعالى في سورة المعارج: "فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ. يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سُرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ. ذَلِكَ الْيَوْمَ كَانُوا يَوْعَدُونَ". المعارج ٤٢-٤٤.

وتأتي خواتم السور مثل فواتحها في الحسن. وذلك لأنها آخر ما يقرع الأسماع. فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع تنبيه السامع انتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوّف النفس إلى ما يذكر بعد. (٢)

وتتضمن خواتم السور أموراً متعددة. من بينها التحريض على العبادة بوصف حال الملائكة (٣) وبإيجاب العمل الصالح والنهي عن الشرك (٤) وبأمر المؤمنين بأفراد التقوى (٥) وبالحدِيث عن الوحي (٦) وبالثناء على نبيه ومن معه من أصحابه (٧) وبذكر يوم البعث والجزاء (٨)، وبالأمر بتسبيح الله (٩)، وبالثناء على الله (١٠) وبالنهي عن موالاة الكفار (١١)، وبالكلام على قيام الليل (١٢)، وبذكر القدرة على البعث (١٣) وبوصف يوم القيامة (١٤) وغير ذلك.

(١) معجم مقاييس اللغة. ابن فارس م ٢، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن. الزركشي م ١، ج ١، ص ١٨٢.

(٣) مثل: الأعراف / ٢٠٦. (٤) مثل: الكهف / ١١٠. (٥) مثل: الحج / ٧٧-٧٨.

(٦) مثل: الشورى / ٥١-٥٣. (٧) مثل: الفتح / ٢٩. (٨) مثل: الذاريات / ٥٩-٦٠.

(٩) مثل: الواقعة / ٩٦.

(١٠) مثل: الرحمن / ٧٨.

(١١) مثل: الممتحنة / ١٣.

(١٢) مثل: المزمل / ٢٠.

(١٣) مثل: القيامة / ٤٠.

(١٤) مثل: الانفطار / ١٧-١٩.

كما أنها تشتمل على الدعاء، كالدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة. والوصايا كالوصايا التي ختمت بها سورة آل عمران بالصبر على تكاليف الدين، والمصابرة لأعداء الله في الجهاد ومعاقبتهم والصبر على شدائد الحرب والمرابطة في الغزو المخصوص عليها، وكالوصايا والفرائض التي ختمت بها سورة النساء، وبالوعد والوعيد الذي ختمت به سورة الأنعام وبالخض على الجهاد وصلوة الأرحام الذي ختمت به الأنفال. (١)

وحديثنا في ذلك سيكون من خلال سورة الرعد وسورة البقرة وسورة الحجر وسورة النحل.

المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة الرعد لموضوعها.

إن السورة مكية (٢)، وموضوعها ككل موضوع السور المكية كلها، هو العقيدة حيث إنها عرضت تقرير التوحيد والرسالة والبعث ودفع بعض الشبهات التي يثيرها المشركون حول الوحي والرسالة والبعث والنشور وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب

(١) انظر بالتفصيل كلام الإمام الزركشي في ذلك. راجع: البرهان في علوم القرآن. الزركشي م، ج١، ص ١٨٣-١٨٤.

(٢) السورة مكية بخلاف ما ورد في بعض المصاحف اعتماداً على بعض الروايات والأحاديث الواردة في سبب نزول آية الرعد في أربد وعامر بن الطفيل وغيرهما مما يدل على أنها مدنية. قال ابن عطية: "والظاهر عندي أن المدني فيها كثير. وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني". انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن عطية، تحقيق: عبدالله الأنصاري والسيد عبدالعال، طبع على نفقة أمير دولة قطر ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ط١، ج٨، ص١٠٨، وحيث يأتي يشار إليه: المحرر الوجيز، ابن عطية. وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٥٢٤/٢ في سبب نزولها وأنه في قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة حيث قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. ولم يعقب الحافظ ابن كثير عليه.

كما أنه ذكر حديثاً آخر في تفسيره ٥٢٤/٢-٥٢٥، عن الحافظ أبي القاسم الطبراني بإسناده إلى ابن عباس أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنهيا إليه وهو جالس فجلس بين يديه فقال....، ولم يعقب الحافظ عليه كذلك. ولكن في سننه عبدالعزيز بن عمران وعبدالرحمن وعبدالله ابنا زيد بن أسلم، فصاحب ميزان الاعتدال في نقد الرجال قال: "عبدالعزیز بن عمران الزهري المدني... قال البخاري: لا يكتب حديثه. وقال النسائي وغيره: متروك وقال عثمان بن سعيد: قلت ليحيى: فابن أبي ثابت عبدالعزيز بن عمران ما حاله؟ قال: ليس بثقة...". انظر: ميزان الاعتدال، في نقد الرجال، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار المعرفة بيروت. م٢، ص٦٣٢-٦٣٣، وحيث يأتي يشار إليه: ميزان الاعتدال، الذهبي. ثم عبدالرحمن بن زيد أسلم العمري مولاهم المدني أخو عبدالله وأسامة: "روى عثمان الدارمي عن يحيى أنه ضعيف. وقال البخاري: عبدالرحمن ضعفه علي جداً. وقال النسائي: ضعيف. وقال أحمد: ==

العالمين وإلى غير ما هنالك من أهداف ومقاصد. (١)

وقد وجدت صعوبة كبيرة في تحديد الموضوع الرئيسي لهذه السورة الكريمة. وذلك لشدة الالتحام بين مقاصدها الأربعة. ولكن بعد التأمل اتضح لنا أن تركيز السورة على موضوع الرسالة أكثر وضوحاً. وكل مقاصدها الأخرى تخدم هذا الموضوع الرئيسي. حتى قال الشيخ ابن عاشور: "إن هذه السورة أقيمت على أساس إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أوجي إليه من أفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين. وحكاية قولهم ذكرت أكثر من مرة موزعة على السورة بدءاً ونهاية". (٢)

أما خاتمة السورة فإنها في قوله تعالى: "ويقول الذين كفروا لست برسلاً. قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب". الرعد: ٤٣ .

== عبدالله ثقة والآخران ضعيفان". انظر ميزان الاعتدال، الذهبي م ٢، ص ٥٦٤، ترجمة رقم ٤٨٦٨ . "وعبدالله بن زيد بن أسلم عن أبيه ضعف يحيى وأبو زرعة. ووثقه أحمد وغيره وقال النسائي: ليس بالقوي.... وقال البخاري: ضعف عليّ عبدالرحمن بن زيد بن أسلم. قال: وأما أخواه أسامة وعبدالله فذكر عنهما صحة. قال الجوزجاني: الثلاثة ضعفاء في الحديث من غير بدعة ولا زيف. انظر: ميزان الاعتدال. الذهبي . م ٢، ص ٤٢٥، ترجمة رقم ٤٣٣١ .

فخلاصة القول نرى أن الإسناد الذي ذكره الحافظ ابن كثير في نزول الآية في المدينة يدور حول إسناد مختلف فيه حتى قال أبو يعلى الموصلي: "سمعت يحيى بن معين يقول: بنو زيد بن أسلم ليسوا بشيء". انظر: ميزان الاعتدال. الذهبي م ٢، ص ٥٦٤، ترجمة رقم ٤٨٦٨ . كما أننا نرى أن الحافظ نور الدين الهيثمي قد ذكر هذا الحديث في مجمع الزوائد ٤١/٧-٤٢ . ثم قال: "رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه. وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف".

انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ط ٣، م ٤، ج ٧، ص ٤١-٤٢ . وحيث يأتي يشار إليه: مجمع الزوائد، الهيثمي. ومما يؤكد قولنا في مكة سورة الرعد هو قول الشهيد سيد قطب "..... مكة السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها أو طريقة أدائها أو في جوها العام الذي لا يخطيء. تنسبه من يعيش فترة في ظلال القرآن". انظر هامش: في ظلال القرآن. سيد قطب، م ٤، ج ١٣، ص ٢٠٣٩ .

(١) إيجاز البيان، الصابوني، ص ٥٣، وانظر أيضاً: قيس من نور القرآن الكريم، الدكتور محمد علي الصابوني، دار القلم، دمشق ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ط ٣، ج ٥، ص ٢٢٣، وحيث يأتي يشار إليه: قيس، الصابوني. وانظر أيضاً: دراسات قرآنية. محمد قطب ص ١٤٨ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤، ج ١٣، ص ٧٦، وحيث يأتي يشار إليه: التحرير والتنوير، ابن عاشور.

ومناسبتها لموضوعها نذكرها فيما يلي:

- ١- لما ركزت السورة على موضوع إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه أنت الخاتمة تلخيصا لما قدمتها السورة من بيان طبيعة المشركين وإنكارهم لرسالة خاتم المرسلين "ويقول الذين كفروا لست مرسلا. قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب". وفائدتها بيان استمرارية المواجهة والصراع بينه وبين المشركين. وموقف الكافرين من أمر الرسالة المحمدية - وهو الحق من عند الله - لا يتغير مهما عرّضت لهم دلائل القدرة الإلهية من البرق والرعد والصواعق وغيرها.
- ٢- ختمت السورة بالشهادة للرسول عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة. وإن أعرضوا بعد إثبات صدقه كما ركز موضوع السورة فتكفيه شهادة الله له بأنه رسول مرسل من عند الله. بعثه الله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا. وشهد له بالنبوة كذلك علماء أهل الكتاب المخلصون الصادقون الذين رأوا فيه ما يوافق صفاته الصادقة في التوراة والإنجيل. "والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك...." الرعد: ٣٦.

المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة البقرة لموضوعها:

هذه السورة تضم عدة موضوعات ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا... فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها... وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى... (١) وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم.... وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين. (٢)

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب، م/١، ج١، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق.

ومن هنا نستنتج أن الموضوع الأساسي للسورة هو استعراض التكاليف وعدم النكول عنها في حمل أمانة تكوين الدولة الإسلامية.

وتناولت السورة في بدء الحديث صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين مع توضيح حقيقة الإيمان والكفر والنفاق للمقارنة بين أهل السعادة والشقاء. ثم تحدثت عن بدء الخليفة فذكرت قصة أبي البشر آدم عليه السلام وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري. (١)

ثم انتقل الحديث بإسهاب إلى أهل الكتاب، ويوجه خاص بني إسرائيل "اليهود" لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة. فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم. وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة. وأما بقية السورة فقد تناولت جانب التشريع لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين "الدولة الإسلامية" وهم بأمر الحاجة إلى المنهاج الرباني، والتشريع السماوي الذي يسرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات. (٢)

ثم ختمت السورة بقوله تعالى: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين" البقرة: ٢٨٦ .

ومناسبة خاتمتها لموضوعها كما يلي:

وإذا كان الموضوع الأساسي للسورة هو استعراض التكاليف وعدم النكول عنها، فهو مناسباً بخاتمة السورة لما اشتملت عليه السورة من التكاليف الكثيرة كالصلاة والزكاة والحج والصوم والجهاد والإنفاق والطلاق وغير ذلك من التكاليف التي كلفنا الله عز وجل بها.... لأن كل هذه التكاليف في استطاع الإنسان "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت".

(١) صفوة التفاسير، محمدعلي الصابوني، إدارة الشؤون الدينية، قطر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ط ٢، ج ١، ص ٢٩، وحيث يأتي يشار إليه: صفوة التفاسير، الصابوني.

(٢) المرجع السابق.

وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكالييف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض. وفي ابتلائه أثناء الخلافة، وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف. ويطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله، فلا يتبرم بتكالييفه، ولا يضيق بها صدرا، ولا يستثقلها كذلك، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته ولو لم تكن في طاقته لما فرضها عليه - ومن شأن هذا التصور فضلا عما يسكبه في القلب من راحة وطمأنينة وأنس أن يستجيب عزيمة المؤمن للنهوض بتكالييفه، وهو يحس أنها داخلية في طوقه، ولو لم تكن داخلية في طوقه لما كتبها الله عليه، فإذا ضعف مرة أو تعب مرة أو ثقل العبء عليه، أدرك أن الضعف لافداحة العبء! واستجاش عزمته ونفض الضعف عن نفسه وهم همة جديدة الوفاء. ما دام داخلا في مقدوره! وهو إجماع كريم لاستنهاض الهمة كلما ضعفت على طول الطريق! فهي التربية كذلك لروح المؤمن وهمة وإرادته، فوق تزويد تصوّره بحقيقة إرادة الله به في كل ما يكلفه. (١)

ثم توجه الحاقمة المؤمن إلى التوبة والإنابة والتضرع إلى الله جل وعلا برفع الأغلال والآصار وعدم التقصير في أداء الواجبات والتكالييف في السورة وتعليمهم الدعاء لكي يغرس في نفوسهم سنة الله في التشريع لهم وبناء أحكامه وتكالييفه على اليسر والوسع. (٢) "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا" واعف عنا وافرغ لنا وارحمنا" مع طلب النصرة على كل المواجهة لأنهم كانوا يواجهون اليهود المجاورين لهم في المدينة المنورة من خبيثهم ومكرهم وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والكيد والغدر والخيانة ونقض العهود، والمواثيق من هذه العصبية المجرمة الطاغية لئلا يقع المؤمنون فريسة كيدهم ومكرهم لنكولهم عن التكالييف في حمل أمانة الخلافة (٣). "أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين".

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، م، ج ١، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) صفوة التناسير، الصابوني، ج ١، ص ٣٠.

(٣) واليهود هم الزمرة الأولى من أهل الكتاب أما الزمرة الثانية فهم النصارى وقد تناولتهم سورة آل عمران.

المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة الحجر لموضوعها

إن خاتمة هذه السورة هي قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، فسوف يعلمون. ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" ٩٤-٩٩ .

أما موضوع السورة فهو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصلية للتكذيب وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين. وفي معالجة هذا الموضوع يدور السياق في عدة جولات. ويمكن أن نقسمها إلى خمس جولات (١).

- ١- تتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها والتكذيب.
- ٢- تعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون.
- ٣- تعرض الجولة الثالثة قصة البشرية وأصل الهداية والغواية في تركيبها وأسبابها الأصلية، ومصير الغاوين والمهتدين في النهاية .
- ٤- الجولة الرابعة حول مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح.
- ٥- أما الجولة الخامسة والأخيرة فهي تكشف عن الحقي الكامن في خلق السموات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب.

ومناسبة خاتمة هذه السورة لموضوعها كما يلي:

- ١- إذا تأملنا خاتمة السورة نجد أنها تذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بالنعمة العظمى عليه بإنزال هذا الكتاب المبين المعجزة الخالدة لسيد المرسلين. وهي مناسبة لموضوع السورة الذي جاء لإبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين. وهذه النعمة العظمى تأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى في سبيل تبليغ الدعوة في مواجهة طبيعة المكذبين بهذا الدين فتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين.
- ٢- إضافة إلى الصبر على الأذى في سبيل الله فالخاتمة تذكر الرسول بشكر الله وعبادته والإكثار من الصلاة والتبذل والطاعة له تعالى وذلك لأنها مصدر القوة في مواجهة العدو.

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب، م ٤، ج ١٤، ص ٢١٢٣-٢١٢٤ .

٣- لقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه الخاتمة بالجهر بتبليغ الدعوة مهما كانت طبيعة المكذبين كما ذكرها موضوع السورة لأن العدو على موقف واحد "وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون" الحجر: ١١-١٥. وجاء على لسان نوح عليه السلام: "قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا. فلم يزداهم دعائي إلا فرارا. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا" نوح: ٥-١٠. مع إعراض أهل الكفر والضلال بشره بإهلاك أعدائه المستهزئين.

فكفاه الله شرهم وقطع دابرهم وقد كان صلوات الله عليه يضيق صدره منهم لاستمرارهم في الاستهزاء والتكذيب، فنجاه الله منهم. ونظرا إلى تلك النجاة أمره الله تعالى في هذه الخاتمة بتسبيح الله وتمجيده والمواظبة على عبادته والاستقامة على طريق الدعوة حتى انتهاء الأجل طاعة لله. (١)

المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة النحل لموضوعها

أتت سورة النحل لمعالجة موضوعات العقيدة الكبرى وهو الألوهية والوحي والبعث والنشور. فيبدو أنها - أي العقيدة - هي موضوعها الرئيسي. وإضافة إلى هذا الموضوع تلم السورة بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية (٢). وهي:

١ - تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التي تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد صلى الله عليه وسلم.

٢- تلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال.

٣- تلم بوظيفة الرسل وسنة الله في المكذبين لهم.

٤- تلم بالهجرة في سبيل الله وفتنة المسلمين في دينهم والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله.

(١) قيس، الصابوني ج/٦ ص/٧٩.

(٢) في ظلال القرآن. سيد قطب م٤، ج١٤، ص٢١٥٨.

كما أنّ السورة لا تترك من أن تضيف إلى موضوعات العقيدة، موضوعات المعاملة وهي العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة.

فإذا وصلنا إلى خاتمة السورة نجد بينها وبين موضوعها صلة. إذ موضوعها يتحدث عن موضوعات العقيدة الكبرى وهي من منهج دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. وجاءت الخاتمة في قوله: "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولئن صيرتم لهو خيراً للصائرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" النحل: ١٢٥-١٢٨. لبيان أسلوب منهج الدعوة. إن المنهج من دون الأسلوب عقيم. والأسلوب من دون المنهج فاسد.

لذا جاء موضوع السورة يعرض قضية الألوهية والوحدانية والوحي والبعث والنشور للمشركين في مكة. ومنهم من يؤمن ومنهم من يكفر. والرسول صلى الله عليه وسلم يتمنى أن يستقبل المشركون كلهم دعوته. فهنا جاءت الخاتمة لتبين أن موضوع الهداية ليس بيد الإنسان وإنما بيد الله "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين". النحل: ١٢٥. وجاء قوله في آية أخرى "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين" القصص: ٥٦.

وقد تنزل الخاتمة منزلة النصيحة. وهذه النصيحة مهمة جداً خصوصاً خلال فترة مواجهة خصومات العدو. وبالنصيحة تستقر حركة الدعوة و من دونها ستتوقف حين اصطدامها مع حركة العدو.

وتنصح الخاتمة الرسول صلى الله عليه وسلم بتحمل الأذى والصبر على سفاهة الجاهلين ورعاية العدل والإنصاف في جميع الأمور والأحكام مع الخصوم والأعداء. فإن الداعي لا بد أن يناله شيء من الأذى والمكروه. فما لم يكن متدرعاً بالصبر ورحابة الصدر أخفق في دعوته ولم يصل إلى غرضه ومبتغاه. (١)

(١) قيس، الصابوني، ج ٦، ص ١٧٤.

وهكذا تنير الخاتمة الطريق للدعاة المرشدين والهداة المصلحين، ليسلكوا السبيل القويم في إصلاح المجتمع ومعالجة الأمراض الاجتماعية. والداعي كالطبيب ينبغي عليه أن يتحمل أذى وسفه المريض حتى يوصله إلى السلامة.

المبحث الثالث

مناسبة قصص السورة لموضوعها

القصة: الخبر، وجمعها القصص بكسر القاف (١). وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص (٢). وهو مصدر سمي به المفعول (٣).
وقد وردت مادة "القصة" في القرآن في عديد من حالاتها واستعمالاتها وتصريفاتها. في صورة الفعل الماضي "وقص عليه القصص"، القصص: ٢٥ وفي صورة الفعل المضارع "نقص عليك أحسن القصص" يوسف: ٣ وفي صورة فعل الأمر "فاقص القصص" الأعراف: ١٧٦ وفي صورة المصدر "إن هذا لهو القصص الحق" آل عمران: ٦٢ .
وإذا قلنا: القصة هي الخبر فإنها لا تعني ما في القرآن من ذكر الأخبار والأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم.... لأن القصة التي نعني بها هي الإخبار عن حادثة غائبة عن المخبر بها.
ولم تأت القصص من القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب التاريخ بل كانت متفرقة موزعة على مقامات تناسبها (٤)، كما لا تكاد تجد القرآن يسرد حوادث القصة سردا تاريخيا تبعا لسلسلة الوقائع والأحداث، إذ من شأن ذلك أن تبتعد القصة بالقارئ عن المناسبة والغرض الأصلي اللذين ذكرت بصددهما... تقرأ مثلا في قصة أصحاب الكهف قوله تعالى: "نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا" الكهف: ١٣-١٤. (٥)

(١) لسان العرب. ابن منظور، حرف الصاد. فصل القاف. م/٧، ص/٧٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أصول التفسير وقواعده، الشيخ خالد عبدالرحمن العك. دار النفائس، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ط ٢، ص ٦٧، وحيث يأتي يشار إليه: أصول التفسير وقواعده الشيخ خالد العك. وانظر أيضا: الدراسات القرآنية الموضوعية. الدكتور مسموع أحمد أبو طالب، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م، ط ١، ص ٨٢، وحيث يأتي يشار إليه: الدراسات القرآنية الموضوعية، الدكتور مسموع.

(٤) أصول التفسير وقواعده، الشيخ خالد العك، ص ٦٨.

(٥) منهج تربوي فريد في القرآن. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق ط ٢، ص ٥١-٥٢، وحيث يأتي يشار إليه: منهج تربوي فريد، البوطي.

فأنت ترى أنه بدأ بوصف أصحاب الكهف، بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم الكافرين. فأمنوا بالله وحده وأنهم من أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم في شواهد الجبال وبطون الكهوف. فمن هؤلاء القوم؟..... وفي أي بلدة كانوا يعيشون؟.... وكم كان عدد هؤلاء الفتية؟ وما هي أسماؤهم؟(١)

لقد كان مقتضى السرد التاريخي أن تجيب القصة عن هذه الأسئلة كلها. ولكنها لو سارت على هذا المنوال لما وفت بالغرض الذي استهدفته. ولانصرف فكر القارئ إلى تتبع أحداث تاريخية شيقة يتطلع إلى معرفتها ولغفل بذلك عن العبرة والعظة التي سبقت القصة من أجلها.(٢)

وقصص القرآن كثيرة متنوعة شملت مختلف سوره وآياته، منها القصير ومنها المطول ومنها القصة القصيرة ذات اللقطة السريعة أو اللقطات القصيرة. ومنها القصة متوسطة الطول ذات المشهد الواحد أو المشاهد القصيرة ومنها القصة المطولة ذات المشاهد الكثيرة والعرض المتنوع.(٣)

فمثلا قصة إيلياس مع قومه في سورة الصافات مثال للقصة القصيرة. وقصة سليمان مع النملة والهدهد ملكة سبأ وعرشها في سورة النمل مثال للقصة متوسطة العرض. وقصة يوسف في سورة يوسف مثال للقصة المطولة المعروضة كلها في موضع واحد. بينما قصة موسى مع فرعون ثم مع بني إسرائيل التي عرضت في كثير من سور القرآن مثال للقصة المطولة المكررة المتنوعة.(٤)

لقد وصف الله قصص السابقين في سور القرآن بأنها الحق الذي لا يتطرق إليه شك. كما قرر أنها عبرة لأولي الألباب الذين يقفون على تلك القصص ويدركون ما فيها من عبر وعظات ويستخرجون ما فيها من دروس ودلالات.(٥)

(١) منهج تربوي فريد، البوطي ، ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق. ص ٥٢-٥٣ .

(٣) مع قصص السابقين في القرآن(١)، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ط ١، ص ١١، وحيث يأتي يشار إليه: مع قصص السابقين(١)، الدكتور صلاح.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق، ص ٧ . وهناك دروس أخرى من الممكن الاستفادة منها من خلال دراستك عن حكمة ذكر القصص في القرآن الكريم وانظر في ذلك على سبيل المثال: التصوير الفني. سيد قطب ص ١٤٣-١٥٥ . والدراسات القرآنية الموضوعية. الدكتور مسموع . ص ٨٦-١٠٤ . وأصول التفسير وقواعده. الشيخ خالد العك ص ٦٨-٧١ .

وهنا نحاول أن نستخرج ما فيها من دروس ودلالات من خلال مناسبة قصص السورة لموضوعها. إذ اختصاص القصص المعينة في سور القرآن لا شك لأجل تناسبها وشدة التناسق لموضوعها.

وحدثنا في ذلك سيكون من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: مناسبة قصص سورة المائدة لموضوعها.

المطلب الثاني: مناسبة قصة موسى وآدم في سورة طه لموضوعها.

المطلب الثالث: مناسبة قصص سورة النمل لموضوعها.

المطلب الرابع: مناسبة قصة سورة البروج لموضوعها.

المطلب الأول: مناسبة قصص سورة المائدة لموضوعها

سورة المائدة من السور المدنية. وبالتأكيد أنها تناولت جانب التشريع - كما كانت في السور المدنية الأخرى - مع عدم ترك بعض أمور العقيدة، مثل الإشارات إلى عقائد أهل الكتاب.

فابتدأت السورة بتوجيه المؤمنين إلى الوفاء بالعقود والعهود: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود" المائدة: ١، وهو لفظ يشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان. فتشمل التكاليف الشرعية التي فرضها الله على عباده المؤمنين. وتشمل عقود المبيعات والشركات وعقود الإجارة والرهن، وعقود النكاح واليمين. وفي ذلك اهتمام وعناية من الإسلام بالعقود والمواثيق. (١)

ونظرا لتأخر نزولها (٢)، فإن لها أهمية خاصة إذ إنها نزلت بعد أن وصلت التربية الربانية لهذه الأمة إلى مرحلة عالية من النضج. من أجل ذلك نرى موضوعها الرئيسي هو: تقرير الالتزام بشريعة الله وضرورة التقيد بعقوده وعدم العدول عنها.

(١) قيس، الصابوني، ج ٢، ص ٧٢ .

(٢) هذا القول لا يعني كون سورة النصر هي آخر سورة نزلت بجملةتها وإنما المراد من القول هو أنها من آخر ما نزل من السور. لقد روى الترمذي حديثا في اخريه سورة المائدة. ثم قال: هذا حديث حسن غريب. انظر: سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: أحمد محمد شاكر وغيره، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب ٤٨، باب ٦، حديث رقم ٣٠٦٣، ج ٥، ص ٢٦١، وحيث يأتي بشار إليه: سنن الترمذي، وانظر أيضا: النوع الثامن من (معرفة آخر ما نزل): الإقتان في علوم القرآن، السيوطي، م ١، ج ١، ص ٧٩. وروى الإمام مسلم حديثا بشأن نزول سورة النصر كآخر سورة نزلت جميعا. انظر: صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ط ١، كتاب ٥٤، حديث رقم ٣٠٢٣، ج ٤، ص ٢٣١٨، وحيث يأتي بشار إليه: صحيح مسلم.

وقد سلكت السورة طريقتين في معالجة موضوعها، وذلك للتشريع للمسلمين في خاصة أنفسهم وللإرشادات لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق في المزامع التي كان يثيرها أهل الكتاب سواء كان مما يتصل بالعقائد أو بالأحكام.

الطريقة الأولى: تعرض الأحكام التشريعية بتفصيل وإسهاب. فالأحكام التي تناولتها هذه السورة مثل - أحكام العقود وأحكام الذبائح وأحكام الطهارة والتيمم وأحكام البغي والإفساد في الأرض وأحكام السرقة وأحكام من ترك العمل بشريعة الله وعدم موالة اليهود والنصارى وأحكام الأيمان وتحريم الخمر والميسر وأحكام الصيد وقتل الصيد حالة الإحرام وأحكام الوصية وغير ذلك من الأحكام التشريعية التي زخرت بها هذه السورة الكريمة. والطريقة الثانية: بعرض القصص في السورة. ومن أبرز القصص قصة نبي الله موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وقصة ابني آدم وقصة المائدة التي كانت إحدى معجزات عيسى بن مريم، أظهرها الله على يديه أمام الحواريين.

بعد أن أنقذ الله بني إسرائيل من فرعون وأخرجهم إلى سيناء بقيادة موسى عليه السلام وأنعم عليهم بنعم عظيمة طلب منهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة. وأخبرهم أن الله سينصرهم على أعدائهم الكافرين الذين فيها، وما عليهم إلا أن يقاتلوا في سبيل الله... فرفضوا تنفيذ أمر موسى عليه السلام جنبا وذلا وقالوا: إن فيها قوما جبارين، لا طاقة لنا بقتالهم، فلن ندخلها حتى يخرجوا منها. وخرج من بينهم رجلان من الله عليهما بالشجاعة والقوة فرسما لهم طريق القتال والنصر، وشعر اليهود بأن الرجلين قد أفحماهم، وقضيا على أعدائهم فتواقحوا وأعلنوا التمرد وقالوا لموسى عليه السلام: "إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون". المائدة: ٢٤ (١) وتوجه موسى عليه السلام إلى ربه قائلا: "رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي. فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين..". المائدة: ٢٥، وعاقب الله ذلك الجيل الجبان من اليهود بأن حرمهم من التنعم بدخول الأرض المقدسة. فكتب عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة وهي مدة كافية ليموت ذلك الجيل الخنوع الذليل الجبان. (٢) ثم قص علينا قصة ابني آدم "القاتل والمقتول" وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين الخير والشر.

(١) مع قصص السابقين (١) الدكتور صلاح، ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

وتتحدث عن نمودجين من المخلوقات البشرية. نمودج النفس الشريرة الأثيمة التي تنحرف عن شريعة الله وتحب الاستعلاء والطغيان، ونمودج النفس الحيرة الكريمة التي تميل نحو الفضيلة والإيمان، وكان من نتيجة الصراع أن أريق الدم البريء الطاهر على جنبات الأرض بيد الظلم والطغيان فأقدم "القاتل" على قتل أخيه الوديع "المقتول". وكانت هذه أول جريمة نكراء تحدث على سطح البسيطة وتنقل إلينا صورة الإثم والعدوان "فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غربا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلنا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين". المائدة: ٣٠-٣١ (١)

أما قصة المائدة فإليها تنسب السورة... وهي حكاية طلب الحواريين من عيسى عليه السلام ليترى عليهم مائدة من السماء. وقال لهم عيسى: اتقوا الله أن تقترحوا عليه أمثال الاقتراحات التي كان سلفكم يقترحها لئلا تكون فتنة لكم... ولما علم عيسى عليه السلام صحة قصدهم وصدق سؤالهم وأنهم لا يريدون تعجيزا ولا تجربة، دعا الله تعالى: "اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين". المائدة: ١١٤ (٢)

فأنزلها الله عليهم وامتن بها على عبده ورسوله عيسى عليه السلام لما أجاب دعاءه بتزولها. فأنزلها الله آية باهرة وحجة قاطعة. (٣)

مناسبة قصص السورة لموضوعها:

لما كان موضوع السورة تقرير الالتزام بشريعة الله وضرورة التقيد بعقوده وعدم العدول عنها، فإنه مناسب بقصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام، لأن القصة هنا، ترمز إلى التمرد والطغيان وعدم التزام بشريعة الله وعدم التقيد بعقوده بل التكبر على أوامر الله. وهي تمثل الشرذمة الباغية من اليهود حين دعاهم موسى إلى دخول الأرض المقدسة. فأجابوه بكلمتهم الغليظة، وهي كلمة تدل على عدولهم عن شريعة الله: "قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون".

المائدة: ٢٤

(١) إيجاز البيان، الصابوني ص ٢١-٢٢ .

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج ٧، ص ٢٥٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٢/ ص ١٢٠ .

فإذا قبلنا أن الحديث بمناسبة قوله تعالى "....إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون...." قد تكرر (١) للاحظنا أن هناك مناسبة أخرى في ذكر هذه القصة لموضوعها. وذلك لإبراز الموضوع من خلال موازنة ومقارنة المواقف في مشاهد القصة.

فالقصة ذكرت أن موسى عليه السلام دعا قومه إلى دخول الأرض المقدسة.... والنبى صلى الله عليه وسلم أعلن لأصحابه أنه متوجه إلى مكة معتمرا.

والقصة ذكرت موقف اتباع موسى عليه السلام في قولهم: إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن خرجوا منها فإننا داخلون. والسيرة صوّرت موقف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حيث تبعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار وأحرم صلى الله عليه وسلم بالعمرة في الطريق. وساق معه الهدى ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائرا البيت ومعظما له. (٢) حين رسم لهم رجلان طريق القتال والنصر، هم قالوا: "إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"، أما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم قالوا: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

إذن، فالقصة تعريض للمسلمين وتقرير لهم لكي يلتزموا بشريعة الله ويشتوا على التمسك بها وعدم العدول عنها، ومنعهم من أن يسلكوا مسلك اليهود المذكور. إن توجههم إلى مكة معتمرين طاعة لأمر رسول الله، وانصرافهم بعد صلح الحديبية الذي تضايق المسلمون بادىء الأمر من موافقة النبي صلى الله عليه وسلم على الشرط الذي أملاه المشركون (٣) أيضا طاعة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه كلها شريعة الله التي يجب أن يتقيدوا بها.

إضافة إلى ذلك فهذه قصة دخول الأرض المقدسة التي كتب الله عليهم تشير إلى قضية كبرى ألا وهي فتح مكة في السنوات القادمة، وكأن القصة نفس القصة وكأنها تمهيد. لذلك فإذا جاءكم الأمر فلا تتولوا كما تولى من كان قبلكم "ولا ترتدوا على أديباركم" المائدة: ٢١ كما ارتدوا فتنقلبوا خاسرين"، المائدة: ٢١ "فاذا دخلتموه فإنكم غالبون" المائدة: ٢٣ .

(١) نقل ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير فقال: وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم الحديبية حين صدّ المشركون الهدى وحيل بينهم وبين مناسكهم "إني ذاهب بالهدى فنأحره عند البيت"، فقال له المقداد بن الأسود: أما والله لا نكون كالملا من بني إسرائيل، إذ قالوا لنبيهم "إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون" ولكن "إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون"، فلما سمعها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تتابعوا على ذلك. ثم قال ابن كثير؛ وهذا إن كان محفوظا يوم الحديبية فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر. انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١ وراجع الطبري م ٤ . ج ٦ ص ١٨٠ .

(٢) السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق وتعليق وتخريج، الدكتور همام سعيد ومحمد بن عبدالله أبو صعيك، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ط ١، ص ٣، ٤٢٧-٤٢٨ وحيث يأتي يشار إليه: السيرة النبوية، ابن هشام. (٣) انظر الشرط الذي أملاه المشركون في ذلك الصلح من هذه الرسالة ص ١٦٥ .

وفي قصة ابني آدم عليه السلام فإنها تأتي لتصوير كيف كانت الانحرافات عن شريعة الله قد وقعت. فأحد ابني آدم قد عصى حكم الله لعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين. وقال: لأقتلن الذي تقبل الله منه.

ويبدو أن هذه الصورة تنقل إلينا وضع المسلمين من زاوية الكافرين في زاوية والصراع العنيف والمستمر بينهما، وأن غالب الأحيان أن يراق الدم بيد الظالم والطاغوت ولكن الشر سيلقى مصرعه كما لقي أحد ابني آدم مكانه في النار. وأصبح من الخاسرين. ثم قصة المائدة قصت قصة تصور فيها صورة الرجال الملتزمين بشريعة الله مع عدم العدول عنها. وهم الحواريون أصحاب عيسى عليه السلام ذكرها - هنا - للمقارنة بينهم وبين الملتزمين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم. وذلك لأن الملتزمين متفاوتون كما قال الأستاذ سيد قطب: "إن الحوار كشف لنا طبيعة قوم عيسى عليه السلام... المستخلصين منهم. وهم الحواريون... فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا صلى الله عليه وسلم فرق بعيد... إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به ورسوله عيسى عليه السلام. فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم... ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا يطلبون خارقة جديدة تطمئن بها نفوسهم. ويعلمون منها أنه صدقهم. ويشهدون بها له لمن وراءهم... فأما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم... لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان. ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك أي برهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن..."^(١) هذا هو الفارق الكبير بين حوار عيسى عليه السلام وحواري محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك مستوى، وهذا مستوى... وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون... وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون... ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله...^(٢) وهكذا لاحظنا مناسبة قصص السورة لموضوعها. فإنها تأتي على أحسن العرض حيث إن القصة الأولى قد عرضت صورة من صور عدم الالتزام بشريعة الله وأما القصة الثانية ففيها صورتان. صورة من صور الالتزام بشريعة الله وصورة أخرى لعدم التقيد بشريعة الله. والقصة الثالثة عرضت صورة من صور الالتزام والتقيد بشريعة الله.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب م ٢، ج ٧، ص ٩٩٨ .

(٢) المرجع السابق .

المطلب الثاني: مناسبة قصة موسى وآدم في سورة طه لموضوعها؛ نظراً لمكية السورة فلا شك أن أهدافها هي نفس الأهداف التي تعالجها السور المكية؛ حول أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث. ولكن هناك غرض آخر يظهر من خلال عرض السورة.

وهذا الغرض هو حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر على ما يلقاه من إغراض قومه عن دعوته (١)، وتقوية روحه حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد ولإرشاره إلى وظيفته وحدود تكليفه حيث إن مهمته هو التبليغ والتذكير والإنذار والتبشير. (٢) ويبدو أنه موضوع الأساسي للسورة .

وهذا الحث جاء في بداية السورة وخاتمتها كما أنه جاء في ثنايا القصص الموجودة فيها. تبتدىء السورة الكريمة بخطاب الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فتبين مهمته وغاية الوحي المنزل عليه وأنها مهمة التبليغ والتذكير، فلا عليه إن آمن الناس أم لم يؤمنوا ويكفي أنه يبليغ الرسالة ويؤدى الأمانة وينصح الأمة. (٣)

وفي الختام تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عن إغراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم ولا يحزن عليهم، فلهم أجل معلوم لهلاكهم.

المعنى الإجمالي للقصة:

في السورة قصتان. قصة موسى وقصة آدم عليهما السلام. تقصّ السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم نبأ أخيه موسى بأسلوب مشوّق يشفّ عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته، وتبليغ دعوته، تطمينا وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم. (٤) تقضي السورة تتحدث عن مناجاة موسى لربه، وعن تذكير الله له برعايته من الطفولة وإنقاذه من كيد فرعون، وعن تكليفه مع أخيه هارون بتبليغ فرعون رسالة ربهما مع الملاحظة ولين الجانب. وما جرى من المناظرة والمحاورة (طه: ٤٢-٤٦) ثم يأتي الحديث عن طغيان فرعون بعد رؤيته تلك الآيات الباهرة، ويجمع السحرة ليستعين بهم على إطفاء نور الله (طه: ٥٦-٥٩) وتكون المفاجأة الضخمة التي يرتعد لها فرعون شرودا وذهولا وهي إيمان السحرة وسجودهم لرب العالمين. (طه: ٧٠-٧١) ولا يفزع السحرة للوعيد والتهديد بعد أن امتلأت قلوبهم بالإيمان. وأشرقت عليهم أنواره فيعلنون مرة أخرى استمسакهم بدعوة الله مهما كلفهم ذلك من شدائد ونكبات (طه: ٧٢-٧٣). (٥).

(١) النظم الفني في القرآن، عبد المتعال الصعيدي. المطبعة النموذجية. ص/١٩٤. وحيث يأتي يشار إليه: النظم الفني في القرآن، الصعيدي.

(٢) إيجاز البيان، الصابوني، ص ٨٣.

(٣) المرجع السابق ص ٨٤. (٤) المرجع السابق. (٥) المرجع السابق ص ٨٤-٨٥.

وتُحتم قصة موسى وفرعون بمشهد أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى أن يسري بعباده فيضرب لهم طريقاً في البحر يبسا. ولكن فرعون تبعهم بجنود فغشاهم من اليم وغطاهم ما غشاهم. (١)

وبعد الحديث عن فرعون وإغراقه تنتج الآيات لخطاب بني إسرائيل. فذكر أنه أنجاهم من فرعون عدوهم إلى غير هذا مما ذكره من نعمه عليهم. ثم ذكر ما كان من فتنهم بعبادة العجل بعد ذهاب موسى لميعاد ربه. فأمر موسى بطرد السامري بعد عودته إلى قومه وأتى بالعجل فحرقه بالنار. ونسف رماده في اليم ليبين لهم أن مثل هذا لا يصح أن يتخذ إليها. "إنما الحكم الله الذي لا اله إلا هو...." طه: ٩٨ (٢)

أما قصة آدم عليه السلام. فإنها تأتي سريعة قصيرة. يبين الله لآدم بأنه تتوافر له الراحة في الجنة، فلن يجوع ولن يعرى ولن يظمأ ولن ترعجه الضحوة، ولكن الشيطان وسوس له موهماً إياه بأنه سيدله على شجرة الخلد وملك لا يبلى وأكل هو وزوجه من الشجرة. فكان ما كان من بدو السوءات ومحاولة إخفائها من ورق الجنة. وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه وتاب عليه فهدي وأمروا جميعاً بالهبوط (طه: ١٢٣-١٢٤). (٣)

مناسبة قصة موسى وآدم عليهما السلام لموضوع السورة:

لما كان موضوع السورة حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر على ما يلقاه من إغراض قومه عن دعوته. فجاءت هذه القصة تصور إغراض فرعون وأتباعه عن دعوة سيدنا موسى عليه السلام، وفرعون قوة كما كان للمشركين في تعذيب الرسول والمؤمنين. فإن قضية المعارضة بين الحق والباطل قضية متلازمة مع الزمان.

ثم تتجلى في ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه وعنايته وحفظه له في قوله: "ولتصنع على عيني" طه: ٣٩ وامتن عليه بعد ذلك بما كان من خبره يوم كان عند فرعون، ولم يقبل أن يرضع من أي امرأة فمشت أخته تدلهم على من يكفله ويرضعه، وأرجعه سبحانه إلى أمه. ثم امتن عليه بأنه حينما قتل نفساً نجاه من الغم وفتنة فتونا وابتلاه بأنواع كثيرة من الابتلاء ولبث سنين في أهل مدين ثم جاء على قدر واصطنعه لنفسه فأكرمه بالرسالة. وبعد هذه المن يأتي دور التكليف (٤).

(١) القصص القرآني إيجازاً وفتحاً. الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس. دار الفرقان، الأردن، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ط ١، ص ٢٣٨، وحيث يأتي يشار إليه: القصص القرآني، الأستاذ الدكتور فضل.

(٢) النظم الفني في القرآن. الصعيدي، ص ١٩٦.

(٣) القصص القرآني، الأستاذ الدكتور فضل، ص ٤٨.

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٥-٢٣٦.

وهذه الأمور التي مرت في حياة موسى عليه السلام إشارة إلى رعاية الله لمن حمل عبء التكليف في الدعوة إلى الله وبالطبع يقوى روحه، لكي لا يتأثر بما يلقي إليه من كيد المشركين وعنادهم خاصة في هذا الزمن المكي. والقصة - كما ذكرنا - قصت على الرسول صلى الله عليه وسلم قصة موسى من أولها إلى آخرها مع اهتمامها بثبات موسى أمام فرعون ومن صبره على عناد بني إسرائيل وموقف المناجاة بينه وبين ربه. وذلك ليتأسى به بثباته أمام الكفار وصبره على عناد قومه ولإرشاده صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن إلى مهمته ووظيفته من التبليغ والتذكير ولا يشعر بأي مشقة من ذلك.

وهذا العرض كله نموذج كامل لرعاية الله سبحانه وتعالى لمن يختارهم لإبلاغ دعوته وحثهم على الصبر فلا يشقون بها وهم في رعايته.

وقصة آدم عليه السلام أيضا تسير في اتجاه قصة موسى عليه السلام. وجاءت هذه القصة سريعة قصيرة تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد الخطيئة وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ثم تركه الخيار لهم لاختيار طريق السعادة أو الشقاوة بعد التذكير والإنذار. (١)

وهذه القصة ومضمونها مناسبة لموضوع السورة ليحذر الرسول صلى الله عليه وسلم مما وقع فيه آدم عليه السلام بسبب التعجل وعدم الصبر على الابتلاء والاختبار وهي إشارة إلى مهمة الالتزام بالصبر والتقيد بالارشاد الإلهي.

وبعد ذكر هبوطه عليه السلام إلى الأرض ورحمة الله له بعد خطيئته وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين وتركه الخيار لهم لاختيار طريق السعادة أو الشقاوة بعد التذكير والإنذار قال: "اهبط منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإذا يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا" طه: ١٢٣-١٢٤، إشارة إلى موضوع السورة وتوجه لبيان أن مهمته صلى الله عليه وسلم هي التبليغ والتذكير والإنذار والتبشير فأمامهم اختيار طريق السعادة أو الشقاوة. فلا عليه إن آمن الناس أم لم يؤمنوا ويكفي أنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة...
المطلب الثالث: مناسبة قصص سورة النمل لموضوعها.

سورة النمل من السور المكية التي عاجلت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث. وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ووضعت في المصحف الشريف كما نزلت وهي الشعراء والنمل والقصص. (٢)

(٢) المرجع السابق، ص ١١٣ .

(١) إيجاز البيان، الصابوني ص ٨٣ .

ذكر الأستاذ سعيد حوى رحمه الله أن التركيز في هذه السورة على العلم. علم الله المطلق بالظاهر والباطن وعلمه بالغيب خاصة وآياته الكونية التي يكشفها للناس. والعلم الذي وهبه لداود وسليمان. وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم. ومن ثم يجيء هذا التركيز في مقدمة السورة كما أنه جاء في التعقيبات على قصص السور وخلالها.... ومن تأمل هذه السورة عرف أن الله عليم وحكيم. (١)

ولكنني أرى في السورة موضوعاً آخر. وهو تصوير المواقف للموازنة بين مواقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم للعبرة والنظر في سنن الدعوات والتدبير في آيات الله.

وهذا الموضوع يحصر كل قضايا أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث التي عاجلتها الآيات في هذه السورة الكريمة.

ونظام السورة في الأداء يمضي على نسق: المقدمة وهي إثبات عظمة القرآن وصدق النبي صلى الله عليه وسلم، ثم القصص بعد المقدمة ثم التعقيب، حيث تعقب بذكر الدلائل والبراهين على وحدانية الله ووجوده من آثاره ومخلوقاته ومشاهد أسلاف الإنسان المكذبين وموقفهم في مواجهة يوم الفرع الأكبر.

وهذا النسق في الأداء يعين على إبراز الموضوع الرئيسي للسورة ويؤكد. ودور القصص نفسها تأتي في هذه السورة لتثبيت ذلك الموضوع مع تصوير عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين.

قصص السورة:

تأتي حلقات القصص في السورة بحلقة من قصة موسى عليه السلام، ثم حلقة من قصة داود وسليمان عليهما السلام وبلقيس ثم حلقة من قصة صالح عليه السلام وحلقة من قصة لوط عليه السلام.

فذكر الله تعالى هنا قصة موسى بإيجاز بدءاً من رؤيته للنار وذهابه إليها وندائه من الملأ الأعلى وتكليفه بالرسالة وإمداده بالمعجزات الباهرة إلى أن أمر بتبليغ الدعوة إلى فرعون رأس الطغيان. (٢)

(١) الإساس في التفسير. سعيد حوى، ٧م، ص ٣٩٧٧-٣٩٨٠.

(٢) إيجاز البيان، الصابوني ١١٤ وانظر أيضاً: أهداف كل سورة ومقاصدها شحاته، ج ١، ص ٢٧٣.

وتبين السورة قضية مهمة جدا بشأن القصة وهي أن فرعون وقومه جحدوا بالآيات... ولكن لم يجحدوا بها لأنها غير وافية ولا كافية. فقد استيقنتها أنفسهم... ولكن ما دامت أنفسهم قد استيقنتها فلماذا جحدوا بها؟ يبين القرآن سبب ذلك بأنهم إنما فعلوا ذلك ظلما وعلوا... (١)

ثم تتحدث السورة بعد ذلك عن داود وولده سليمان. وكلاهما نبي كريم من الأنبياء العظام. وقد خصصهما الله بخصائص كريمة وأعطاهما مع النبوة الملك "ولقد آتينا داود وسليمان علما وقال الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين. وورث سليمان داود، وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين". النمل: ١٥-١٦ وتذكر السورة قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ وهي قصة رائعة فيها مغزى رقيق للملوك والعظماء. وفيها بيان لسعة ملك سليمان حيث امتد من بيت المقدس إلى أقاصي اليمن. ودانت له الملوك والأمراء وقد اتخذ الملك وسيلة لدعوة الناس إلى الله. فلم يترك ملكا كافرا، ولا حاكما جائرا، ولا سلطانا ذا بأس وقوة إلا ودعاه إلى الدخول في الإسلام. وهكذا شأنه مع بلقيس. وتنتهي القصة بدخول بلقيس في الإسلام. وتركها لعبادة الأوثان وتأتي مع جندها إلى سليمان طائعة خاضعة. (٢)

وبعدها، تشير الآيات الكريمة إلى الفريقين المختصمين - صالح وقومه - فصالح عليه السلام ينكر استعجال قومه بالسيئة قبل الحسنة ويحثهم ويحضهم على استغفار الله لينالوا رحمته، ويجيبونه بأنهم يتشاءمون منه وممن آمن معه. ويرد عليهم بأن ما يصيبهم من خير وشبر لم يكن بسببه هو ومن آمن معه. وإنما طأثرهم عند الله. ثم يجيز القرآن أنه كان في مدينة صالح تسعة رجال طبعوا على الفساد. وقد تقاسموا فيما بينهم أن يبيتوه وأهله أي حلفوا أن يغيروا عليه وعلى أهله ليلا فيستأصلونهم ويبيدونهم جميعا، ثم يقولون لولييه الذي يطالب بدمه ليس لنا دخل في هلاكه ولا هلاك أهله وأنهم برآء من دمه ودم أهله، ويؤكدون ذلك بأنهم صادقون فيما يقولون. ولكن مكر الله كان أسرع من مكرهم حيث دمرهم وقومهم قبل أن يلجقوا بصالح أي أذى. وهذه بيوتهم خاوية خالية منهم، وكل ذلك إنما هو نتيجة ظلمهم. وفي ذلك آية لقوم يعلمون. أما من آمن بصالح فلقد نجاه الله تبارك وتعالى. (٣)

(١) القصص القرآني، الأستاذ الدكتور فضل ص ٢٥٠ .

(٢) إيجاز البيان، الصابوني، ص ١١٤-١١٥ .

(٣) القصص القرآني. الأستاذ الدكتور فضل ص ١١٨ .

ثم تتحدث السورة عن نبي الله لوط عليه السلام وارتكاب قومه لفاحشة اللواط بالرجال. ومحاولة لوط تقديم النصيحة لهم دون جدوى. بل هددوه بالطرد والنفي فأنجاه الله وأمطر على قومه حجارة من السماء فأهلكتهم فبئس مطر الهالكين الخاطئين. (١) مناسبة قصص السورة لموضوعها:

نلاحظ خلال عرض القصص مواقف الأمم السالفة من الدعوات ومعارضتهم قضايا أصول الدين. وهذه المواقف والمعارضة تكاد تشبه بموقف المشركين في مكة. وجاءت هذه القصص مواساةً وتسليّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء الشدائد والمحن التي قوبل بها وهو يبلغ رسالة ربه.

ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد لاقى في مكة كثيراً من الافتراءات الباطلة والدعاوي الكاذبة الدالة على عظم فساد هوية أهلها من الكافرين وغيرهم من الذين رانت على قلوبهم ظلمات الكفر والجهل والحقد والكرهية التي أعمتتهم عن رؤية الحق. (٢) والناس مع فترة الزمن أمام طريق الهدى إما أن يبصروا وإما لم يبصروا مع شدة وضوحه. وهذا الأمر كان له عظيم الأثر على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم إشفاقاً عليه. لذا جاءت قصص الرسل تأكيداً لموضوع السورة وتكشف للرسول عن مدى ما لاقاه المرسلون من قبله من الافتراءات المزعومة أيضاً والتحديات والاعتداءات التي واجهوها بالصبر والمصابرة حتى جاءهم نصر الله.

فقصّة موسى صورت موقف فرعون رأس الطغيان وصاحب القوة أمام الحق الذي جاء به موسى عليه السلام "فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين" النمل: ١٣ وهو خير تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين، ليعتبر بذلك حال الذين كذبوا بآيات محمد صلى الله عليه وسلم "فانظر كيف كان عاقبة المفسدين". النمل: ١٤

ولتسهيل عملية الموازنة بين المواقف، أتت بعد قصة موسى بقصة سليمان. ففرعون ملك مصر صاحب القوة والقرار جحد بالآيات لا لأنها غير وافية ولا كافية وإنما فعل ذلك ظلماً وعلواً... والموقف الثاني لبليقيس ملكة سبأ، صاحبة القوة والقرار التي لم تجحد بالآيات الكافية والوافية بل آمنت وتركت عبادة الأوثان وأتت مع جندها إلى سليمان طائعة خاضعة.

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها، شحاتة، ج ١، ص ٢٧٥.

(٢) الدراسة القرآنية الموضوعية. الدكتور مسومع، ص ٩٠.

فالمشركون إما أن يقتدوا بفرعون الذي كفر، وإما أن يقتدوا ببليقيس التي آمنت. ولم يترتب عليها أي آثار سيئة بعد إعلانها للإسلام مع سليمان. وذلك ليزد على لسان المشركين ونهجهم الذين نهجوا منهج قوم صالح وموسى عليهما السلام (١) حيث إنهم يتشاءمونَ منهما ومن آمنَ معهما ويرذَ عليهم بأن إسلامهم لا يترتب عليهم منه آثار سيئة ولا تضيق معيشتهم، وأن ما يصيبهم من خيرٍ أو شرٍ لم يكن بسبب إسلامهم ولا بسببه صلى الله عليه وسلم ومن آمنَ معه وإنما طأثرهم عند الله. ثم جاء التعقيب بقصة صالح للعبرة وفق سنن الدعوة والنصرة. حيث ذكرت مكرهم وفشلهم في المكر. كما كان مكر قومهم صلى الله عليه وسلم سيلقون الفشل. ولعل سبب ذكر هذه القصة هنا أنها كانت في وقت تأمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو التأمر الذي حكاه الله في قوله: "وإذ يكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" الأنفال: ٣٠، فضرب الله لهم مثلا بتأمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم...، ولذلك ترى بين الآيتين تشابها... وذكر أن في قصتهم آية لقوم يعلمون. (٢) "فانظر يا محمد بعين قلبك إلى عاقبة غدر ثمود بنبيهم صالح، كيف كانت؟ وما الذي أورثه اعتداؤهم وطغيانهم وتكذيبهم؟ فإن ذلك سنتنا فيمن كذبَ رسلنا، وطغى علينا من سائر الخلق، فحذر قومك من قريش، أن ينالهم بتكذيبهم إياك، ما نال ثمود بتكذيبهم صالحا من المثلات". (٣)

ثم نأتي إلى قصة لوط وقومه. إضافة إلى وجه المناسبة لموضوعها من ناحية وجود مشابهة في الموقف بين قوم لوط وبين قريش في التكذيب والشرك، فإن لها مناسبةً مجاورةً الديار. وكانت ديارهم ممر قريش إلى بلاد الشام، وذلك لكي يتدبروا في آيات الله. قال تعالى: "وإنها لبسبيل مقيم" الحجر: ٧٦، وقال: "وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون" الصافات: ١٣٧-١٣٨.

(١) وفي قوم صالح قال تعالى "قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عندالله بل أنتم قوم تفتنون" النمل/٤٧، وفي قوم موسى قال تعالى "وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون" الأعراف/١٣١.

(٢) التحرير والتنوير. ابن عاشور. ج/١٩ ص/٢٨٣-٢٨٤.

(٣) انظر جامع البيان، الطبري ١١م، ج١٩، ص١٧٤.

كما كان بين الموضوع والقصة مناسبة أخرى وهي موقف محاولة إخراج الأنبياء من ديارهم.

وفي قصة لوط أنهم يتخرجون من دعوة لوط فحاولوا أن يخرجوه من بين أظهرهم ويظنون أنه لا يصلح لمجاورتهم في بلادهم، فعزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها. (١)

أما محمد فقد أخرجوه من بلاده، قال صلى الله عليه وسلم لمكة "والله! إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي. والله! لولا أتي أخرجت منك ما خرجت". (٢)

المطلب الرابع: مناسبة قصة سورة البروج لموضوعها.

وهذه السورة القصيرة تعرض حقائق العقيدة وقواعد الإيمان، حيث إن المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو حادث "أصحاب الأخدود" وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان. (٣)

أما الموضوع الرئيسي للسورة فهو تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على الإيذاء، وتذكيرهم بما جرى من الإيذاء لمن آمن قبلهم.

والسورة بدأت بما يلفت النظر من الثبات. وهو ثبات السموات العلى وثبات بوقوع اليوم الموعود وثبات شهادة الله عز وجل لكل شيء "والله على كل شيء شهيد" البروج: ٩، ويبدو أنها كنماذج من الثبات المطلوبة التي لا يتزعزع معها صاحب الدين والعقيدة أيًا كانت المعارضة.

فالقصة الأساسية في السورة هي قصة أصحاب الأخدود. أما قصة فرعون وثمود فإنها مجرد إشارة سريعة إلى قصتين طويلتين ارتكنا إلى المعلوم من أمرهما وتهيدا لما سيذكرهما طويلا في عدة أماكن من القرآن الكريم ابتداء من سورة يونس لقصة فرعون وسورة هود

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٣ ص ٣٨١ .

(٢) سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني: تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، كتاب ٢٥، باب ١٠٣، حديث رقم ٣١٠٨، م ٢، ص ١٠٣٧، وحيث يأتي يشار إليه: سنن ابن ماجه. وقد رواه الترمذي - أيضا - في سننه وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، انظر: سنن الترمذي. كتاب ٥٠، باب ٦٩، حديث رقم ٣٩٢٥، ج ٥، ص ٧٢٢ .

(٣) إيجاز البيان، الصابوني، ص ٢٨٩، وانظر أيضا: في ظلال القرآن. سيد قطب. م ٦، ج ٣٠، ص ٣٨٧١

لقصة ثمود حسب ترتيب نزول القرآن في مكة. (١)
 وأما المعنى الإجمالي لقصة أصحاب الأخدود، فذكر الأستاذ سيد قطب في قوله: "إن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام - قيل: إنهم من النصارى الموحدين - ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقاً، على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون..." (٢).

وجه مناسبة قصة السورة لموضوعها:
 وإذا كان الموضوع كما ذكرنا فإن هذه قصة أصحاب الأخدود بمنزلة تذكير للمؤمنين بما جرى لمن قبلهم من الأمم. ومن هنا جرى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على إيذاء أهل مكة لهم بأنواع الأذى كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس وإحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه.... فإن من آمن قبلهم عذبوا كذلك. وأن هذه الشنونة كانت فيمن تقدم من الأمم. فكانوا يعذبون بالنار، وأن المعذبين كان لهم من الثبات في الإيمان رغم شدة التعذيب الذي لم ينلهم مثله، وما منعهم أن يرجعوا عن دينهم.... وكذلك أراد الله من المؤمنين الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم لكي لا يصددهم ذلك عن دينهم. وهذه المعالجة قد تحققت كما نقلتها المحادثة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه، وهو يومئذ متوسد بردة في ظل الكعبة؛ فقالوا: ألا تستنصر لنا الله تبارك وتعالى أو تستنصر لنا؟ فقال: "قد كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض، فيجاء بالمنشار على رأسه فيجعل بنصفين فما يصدده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب فما يصدده ذلك والله ليؤمنن الله عز وجل هذا الأمر حتى يسير الراكب من المدينة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون". (٣)

(١) انظر ترتيب نزول القرآن في مكة: الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم. دكتور حسين محمد فهمي الشافعي. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. مصر، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ص/ك. وحيث يأتي يشار إليه: الدليل الكامل لآيات القرآن. د. حسين.

(٢) في ظلال القرآن. سيد قطب. ٦م، ج ٣٠، ص ٣٨٧١.

ومن أراد بعض التفصيلات في قصة أصحاب الأخدود فليرجع إلى صحيح مسلم في روايته عن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه. راجع صحيح مسلم. كتاب ٥٣، حديث رقم ٣٠٠٥، ج ٤/ ص ٢٢٩٩-٢٣٠١.
 (٣) المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تعليق عبدالله محمد الدرويش، دار الفكر، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ط ١، حديث رقم ٢١١٣، ج ٧، ص ٤٥٤ وحيث يأتي يشار إليه: مسند الإمام أحمد.

والقصة أيضا ارتبطت بموضوع السورة حيث إنها تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية ولواجبات المسلم حول إيمانه وعقيدته التي ينبغي أن يضحى من أجلها بكل غال ورخيص، نظرا لكون هذه السورة نزلت في الأيام الأولى لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة فإنها تسعى إلى ضرورة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان.... والتضحية لم تأت إلا بعد الالتزام والشبات.

ومن ناحية أخرى أرادت القصة الإشهاد على مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة، وهي طريقة يتلهسى الطغاة فيها بمشهد الحريق، وهو حريق الآدميين المؤمنين. وهذا المشهد يكاد يكون سلسلة تاريخية بين الحق والباطل. والمشهد لا يريد التخويف لهم، وإنما يريد إنذار من يعدّ بهم لكي يتوقف عن تعذيبهم، ويتوقف عن هذه العملية البشعة، وذلك قبل أن يلقى مصرعهم كما لقي من كان قبلهم من الكافرين. وإذا أضيف إلى ذلك ضرب المثل بقوم فرعون وثمود وكيف كانت عاقبة أمرهم لا زدادت عبرة وعظة المشركين لفتنتهم المسلمين.

ومن هنا ارتقى المشهد إلى تسلية المؤمنين طمأنة قلوبهم "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون" الأنفال: ٢ ، وإشعار المسلمين بأن قوة الله عظيمة فسيلقى المشركون جزاء صنيعهم ويلقى المسلمون النعم الأبدية والنصر.

المبحث الرابع

مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها

إن الحديث عن مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها مبسوطاً في كتب التفسير. ويكاد كل المفسرين يذكرونها في تفاسيرهم.

ونظراً لكونها مبسولة فإننا نحاول ألا نطيل الحديث فيها.

وإذا أردنا أن نعقد مناسبة بين خاتمة السورة لفاتحتها فإننا نستطيع أن نقسمها إلى قسمين: القسم الأول: ظاهرة المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع وتختتم بنفسه. والقسم الثاني: خفاء المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع وتختتم بغيره إلا أن التناسب بينهما في الموضوع الآخر.

فحديثنا عنها إذن على هذين القسمين.

القسم الأول: ظاهرة المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع وتختتم بنفسه.

المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة يوسف لفاتحتها

فاتحة السورة هي قوله تعالى: "الر تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين" يوسف: ١-٣ .

وقال في خاتمتها: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" يوسف: ١١١ . والتناسب بينهما على النحو التالي:

- ١- تعيد السورة في ختامها ما ابتدأت به في أولها. فقد بدأت بالقرآن مؤكدة أنه تنزيل من الله وأنه جلي واضح فيما يذكره.... وختمت بالقرآن نفسه مؤكدة صدقه ووحيه من عند الله وتوافقه مع الرسالة الإلهية القائمة عند نزوله وتفصيله لكل شيء جاء به وبالأخص ما جاء في وحدة الألوهية وعبادة الله وحده "ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء" يوسف: ١١١ ، ثم زادت في الختام تكفله بالهداية والرحمة لمن آمن "وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" يوسف: ١١١. (١)
- ٢- قال الفخر الرازي إنه ذكر في أول السورة "نحن نقص عليك أحسن القصص" ثم ذكر في آخرها "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"، تنبيها على أن حسن هذه القصة

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية. د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م. ط١، ص ٩٤، وحيث يأتي يشار إليه: سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل.

إنما كان لسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة. والمراد من "قصصهم" قصة يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه. (١)

٣- قال الشيخ ابن عاشور في تفسيره للآية "لقد كان في قصصهم عبرة..." وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى أول السورة "نحن نقص عليك أحسن القصص". فكما سّماه أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية. (٢)

٤- ونرى أيضا أن الترابط بين الفاتحة والخاتمة قائم من حيث إن الآيات الأولى هي الممهدة للقصة والآية الأخيرة في السورة تستهدف أن يعود القارئ بفكره إلى نقطة البدء ويعيش أحداث القصة من بعد أن يتأملها حتى ترسخ في نفسه مبادئ لا تتزعزع. (٣)

المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة الممتحنة لفاتحتها:

قال تعالى في فاتحة السورة: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعل ذلك فإني لمتهم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعل ذلك فإني لمتهم بما أخفيتم وما أعلنتم". وقال في خاتمتها "يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور" الممتحنة: ١٣.

لقد افتتحت السورة بالنهي عن موالاته الكفار لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. ولم يكن عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله رب العالمين حنقا عليهم وسخطا لدينهم.

قال أبو حيان: "لما افتتحت هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك تأكيداً لتلك موالاتهم وتنفير المسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم". (٤) ورغم أن تعبيراً بالمفضوب عليهم في الخاتمة مقصود باليهود (٥) استناداً إلى دمعهم بهذه

(١) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي، ج ١٨، ص ٢٢٨. (٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ١٣ ص ٧٢

(٣) سورة يوسف دراسة تحليلية، الدكتور أحمد نوفل، ص ٩٦.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان، م ٨٠، ج ٨/ ص ٢٥٩.

(٥) انظر بالتفصيل كلام القاسمي في ذلك. راجع: تفسير القاسمي المسمى بحسن التأويل. محمد جمال الدين

القاسمي. دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م، ط ٢، ج ١٦، ص ١٣٨، وحيث يأتي يشار إليه: بحسن

التأويل، القاسمي.

الصفة في مواضع أخرى من القرآن.... ولكن هذا لا يمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم في السورة. وكل أعداء الله. وكلهم غضب عليه الله. وكلهم يائس من الآخرة لا يعلق بها رجاء ولا يحسب لها حساباً كيأس الكفار من الموتي - أصحاب القبور - لاعتقادهم أن أمرهم انتهى وما عاد لهم من بعث ولا حساب. (١) ومن ناحية أخرى فإن خاتمة السورة نزلت في أناس من فقراء المسلمين الذين يعملون عند اليهود (٢) ذلك أن يهود خيبر كانوا يوماً يجوار المسلمين من أهل المدينة. (٣) أما فاتحة السورة فإنها نزلت في قضية الكتاب الذي كتب به حاطب بن أبي بلتعة. (٤) فالمناسبة بينهما واضحة حيث إن الآيتين نزلتا في قضيتين متشابهتين. الأولى نزلت في أناس من فقراء المسلمين يعملون عند اليهود ربما يخبرون اليهود بأخبار المسلمين وتواصلوا بهم فيصيبون بذلك من ثأرهم وربما أخبروهم بأحوال المسلمين عن غفلة وقلّة حذرٍ فنبههم الله إلى أن لا يتولّوهم.

والثانية نزلت في حاطب إذ كتب كتاباً إلى أهل مكة يتضمن فيه سرا حيث أخبرهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج إليهم.

المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة المزمل لفاتحتها

قال تعالى في فاتحة السورة "يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً" المزمل: ١-٤ .

وقال في خاتمتها "إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرئوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم" المزمل: ٢٠ .

يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في فاتحة السورة أن يترك التزمّل وينهض إلى القيام لربه عز وجل وقراءة القرآن.

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب، ٦م، ج ٢٨، ص ٣٥٤٨ .

(٢) أسباب النزول، الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تعليق وتخريج، الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ط ١، ص ٣٥٠، وحيث يأتي يشار إليه: أسباب النزول، الواحدي.

(٣) التحرير والتنوير ابن عاشور. ج/ ٢٨/ ص ١٦٩ .

(٤) صحيح البخاري، كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٨٩٠، ٨م، ج ٨، ص ٦٣٤ .

وَحُتِّمَتْ أَيْضًا بِالْكَلامِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَزَادَ فِيهِ قَوْلُهُ: "عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضِيٌّ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" لَتَعَذِّبَ الْقِيَامَ عَلَى الْمَرَضِيِّ وَالضَّارِبِينَ فِي الْأَرْضِ لِلتَّجَارَةِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

أَمَّا الْمَرَضِيُّ فَإِنَّهُمْ لَا يُمْكِنُهُمُ الْإِشْتِغَالُ بِالتَّهْجِدِ لِمَرَضِهِمْ وَأَمَّا الْمَسَافِرُونَ وَالْمُجَاهِدُونَ فَهَمُ مُشْتَغِلُونَ فِي النَّهَارِ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ فَلَوْ لَمْ يَنَامُوا فِي اللَّيْلِ لَتَوَالَتْ أَسْبَابُ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ. (١)

(١) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي، ج ٣٠ ص ١٨٧.

المطلب الرابع:

مناسبة خاتمة سورة ق لفاتحتها:

قال تعالى في فاتحة السورة: "ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب" ق: ١-٢ .

وقال في خاتمتها: "نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" ق: ٤٥ .

فالحديث في الفاتحة نفس الحديث في الخاتمة. فقد ذكر في الفاتحة عن القرآن المجيد. وقد أقسم الله تعالى به إخباراً بأن محمداً جاء به منذراً للناس ولكن المكذبين بالله ورسوله نفوا جواز أن يرسل الله إليهم بشراً مثلهم. قائلين هلا أنزل إلينا ملكاً فيكون لنا نذيراً؟ "وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشراً رسولا؟" الإسراء: ٩٤ .

فجاءت الخاتمة تسليّة لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتخريضا لهم على ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الصبر لكي يستمروا على طريقهم ولا تُشغَلهم أقوالهم، لأن الله يعلم أقوالهم ويرى أعمالهم. وكذلك تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم لكي لا يشعر بأن الله أرسله إلى الناس ليهديهم "وما أنت عليهم بجبار" إنه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم لأنه إنما بُعث داعياً... وليس مبعوثاً لإرغامهم على الإيمان "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" فذكر بهذا القرآن الذي أنزلته عليك من يخاف وعيدي الذي أوعده من عصاني وخالف أمري... وبكلمة أخرى أي بلغ رسالة القرآن ولا تُبالِ بعجيب صنع الكفار... وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله وشديد عذابه.

القسم الثاني

خفاء المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع

وتختم بغيره ولكن التناسب بينهما في الموضوع الآخر (١)

المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة الروم لفاتحتها:

قال تعالى في فاتحة السورة: "الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون" الروم: ١-٦ .

ثم ختمت السورة بقوله تعالى: "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون" الروم: ٦٠ .

لقد فتحت السورة بذكر تغلب فارس عبدة النيران على الروم أهل الكتاب ثم ختمت بالأمر بالصبر واليقين بوعد الله، فما وجه المناسبة بينهما؟.

١- فاتحة السورة تضمنت قضية المعركة لذلك فمن المناسب ذكر الصبر في الخاتمة. ومن المعلوم أن المعركة تحتاج إلى الصبر والثبات.

٢- وذكرت في الفاتحة أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون وكان المسلمون يجبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل الكتاب وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم أصحاب الأوثان ولا يؤمنون بالبعث... فجاءت في الخاتمة أن وعد الله حق. نعم! لقد صدق الله في وعده (٢). وغلبة المغلوب أشد حزنا على الغالب سيما إذا كانت في مدة قريبة.

المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة العنكبوت لفاتحتها

قال تعالى في فاتحة السورة: "الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين" العنكبوت: ١-٣، ثم قال في خاتمتها: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين" العنكبوت: ٦٩ .

(١) عقدنا هذا القسم لذكر خفاء المناسبة بين فاتحة السورة لخاتمتها، إذ إن في القرآن من السور التي لم تظهر وجوه التناسب بينهما لكون فاتحة السورة تبدأ بموضوع ما ثم تختم بالموضوع الآخر، ولكن بعد التأمل تجد أن التناسب بينهما موجود حيث إنهما اتحدتا في موضوع آخر. والأمثلة في ذلك كما ذكرناها من خلال المطالب.

(٢) سنن الترمذي، كتاب ٤٨، باب ٣١، حديث رقم ٣١٩١-٣١٩٤، ج ٥ ص ٣٤٢-٣٤٥ .

كيف تناسبت الخاتمة للفاتحة؟

١- ذكرت في الفاتحة: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يحنهم الله بضروب المحن حتى يبلوا صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوع نياتهم ليطهر المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والمتمكن من العابد على حرف وليشيبن الذين صدقوا وليعاقبن الكاذبين. (١)

ثم أتت الخاتمة لتقول إن من أنواع الابتلاء الجهاد. فإن الله قادر على أن ينصر الإسلام والمسلمين مباشرة على الكافرين دون الجهاد. ولكن سنة الله في النصر لم تكن كذلك وإنما بالكفاح والجهاد. وأحياناً يتأخر النصر من أجل أن يختبر المؤمنون.

٢- كما أن هناك مناسبة أخرى بينهما من حيث ختم السورة الكريمة ببيان جزاء الذين وقفوا في وجه الفتنة والمحنة كما نهج به فاتحة السورة وجاهدوا بأنواع الجهاد كما في الخاتمة أن يرتقي إلى درجة المحسنين.

المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة الفتح لفاتحتها

فتحت السورة بذكر ما امتن الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم من الفتح المبين والنصر العزيز وهداية الصراط المستقيم: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ونعم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً" الفتح: ١-٣ .

وختمت بالثناء عليه وعلى أصحابه حيث إنه وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه أشداء على الكفار "رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيما هم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا" الفتح: ٢٩ .

ووجه المناسبة بينهما:

١- لقد ذكر الله في فاتحة السورة بالفتح المبين والنصر العزيز. وهذا الفتح والنصر نوع من أنواع ثناء الله عليه وعلى أصحابه.

(١) الكشف، الزمخشري. ج ٣، ص ٤٣٩-٤٤٠ .

٢- ثم الفتح والنصر الذي ذكر في فاتحة السورة لا يستحقه إلا أهله. وأهله هم الذين وصفهم الله في خاتمة السورة.

المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة المؤمنون لفاتحتها
فكان افتتاحها (١) بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك. (٢)
ثم تحتم بقوله "ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه. إنه لا يفلح الكافرون. وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين" المؤمنون: ١١٧-١١٨.

كيف تناسبت خاتمة السورة لفاتحتها؟

١- ورد في خاتمتها "إنه لا يفلح الكافرون" (٣)، قال الغماري إنه نوع من التناسب بالتضاد بين المطلق والمقطع (٤). أما ابن عاشور فإنه يقول: "وفيه ضرب من رد العجز على الصدر". (٥)

٢- إن نفي الفلاح عن الكافرين في الخاتمة يفيد معنى أن الفلاح يستحقه المؤمنون وليس لغيرهم. لذلك ابتدأت السورة به.

٣- إن صفات المفلحين التي ذكرت في الفاتحة لم يكتفى بها وحدها بل أكملت بما جاء في الخاتمة وهو دعاء ربهم بالمغفرة والرحمة.

(١) انظر قوله تعالى في: المؤمنون / ١-١١ .

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور، ج/ ١٨ ص ٦٠ . (٣) قال صاحب الكشاف: "فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة".
راجع الكشاف، الزحشري ج/ ٣ ص ٢١٠ .

(٤) جواهر البيان، الغماري ، ص ٦٧ .

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج/ ١٨ ، ص ١٢٦ .

المبحث الخامس

مناسبة المعارضات في السورة

المعارضات، من الاعتراض. والاعتراض هو اعتراض كلام في كلام لم يتم... ثم يرجع إليه فيتمه (١). "والمعارضات في السورة" هي أن تأتي الجملة في كلام متصل بعبءه ببعض. وهذه الجملة إما أن تكون آية واحدة. أو آيتين أو أكثر من ذلك.

وفي الآية الواحدة مثل قوله تعالى: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبة. ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون. إلا عباد الله المخلصين" الصفات: ١٥٨-١٦٠ فقوله تعالى: "سبحان الله عما يصفون" اعتراض، أي أنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين. (٢) وفي الآيتين مثل قوله تعالى: "قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدي ولم يجعلني جبارا شقيا. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم" مريم: ٣٠-٣٦.

فقوله تعالى: "ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون" مريم: ٣٤-٣٥ اعتراض. (٣) وأكثر من الآيتين مثل قوله: "وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذابين. وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين" الزخرف: ٢٣-٢٩. فقوله تعالى يحكي قصة إبراهيم عليه السلام جملة معترضة. (٤)

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ط ٢، ص ٤٤١ وحيث يأتي يشار إليه: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري.

(٢) أساليب القرآن، المعلم عبدالحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، ١٣٨٩هـ، ص ٣٦، وحيث يأتي يشار إليه: أساليب القرآن، الفراهي. (٣) المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨. (٤) أنظر قوله تعالى في: الزخرف: ٢٦-٢٨.

كما أنها تصلح أن تكون خلال الآية الواحدة كما جاء في قوله تعالى: "فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" آل عمران: ٣٦. فقوله تعالى "والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى" جملة معترضة بين قوله: "فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى" وقوله تعالى "وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم". وهذا الأسلوب الاعتراضي في علم البلاغة من الأساليب الشائعة المشتهرة. ويأتي لأغراض كثيرة من بينها التزيه والدعاء وقد يكون للتنبيه وللمطابقة مع الاستعطف وليبان السبب لأمر فيه غرابة ولزيادة التأكيد وللتحسر وللتعظيم (١) وتوضيح الأشياء لأن وجودها في الجملة يوضح الأشياء غير الواضحة ويبينها وغيرها... وقد يكون هناك فوائد وأغراض بلاغية أخرى نستطيع أن نفهمها من السياق. (٢)

وقد تكون لجملة المعترضة في القرآن عقدة لأنها أتت قبل استكمال الجمل السابقة. ولكن بعد البحث العميق والتأمل الدقيق سيكتشف أنها ليست عقدة وإنما هي كحبات العقد التي ليس من الضروري أن تكون كلها من صنف واحد وفن واحد. بل توزع من عدة أصناف بتوزيع فني بديع أفضل وأحسن لها.

ثم هذا التوزيع لا يعني أنها لا تتسق بعضها ببعض وإنما ذات ارتباط وثيق لا يستبين بالنظرة السطحية التي تمرّ مرأً سريعاً على آيات في السور. ومن أجل ذلك خصصنا في هذا المبحث نظرة خاصة اكتشافاً لوجوه المناسبة التي تقع بين مقطع الجمل المعترضة بالجمل التي قبلها (٣). ويكون حديثنا في ذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: مناسبة المعترضة في سورة الزخرف .

المطلب الثاني: مناسبة المعترضة في سورة القيامة.

المطلب الثالث: مناسبة المعترضة في سورة الأعراف.

المطلب الرابع: مناسبة المعترضة في سورة المجادلة.

(١) البلاغة فنونها وأفانها (علم المعاني) الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ط ٢، ص ٥٠٠-٥٠٤، وحين يأتي يشار إليه: البلاغة فنونها وأفانها (علم المعاني) الأستاذ الدكتور فضل. وراجع أيضاً: معنى اللبيب عن كتب الأعراب. الإمام ابن هشام الأنصاري. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ج ٢ ص ٣٨٦، وحين يأتي يشار إليه: معنى اللبيب، ابن هشام .

(٢) البلاغة فنونها وأفانها (علم المعاني) الأستاذ الدكتور فضل: ص ٥٠٤ .

(٣) وليس هناك داعٍ لذكر وجوه المناسبات بين مقطع الجمل المعترضة بالجمل التي بعدها لكونها أتت تابعة واستكمالاً للجمل التي قبلها.

المطلب الأول: مناسبة المعترضة في سورة الزخرف.

قال تعالى: "وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جثتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون، إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" الزخرف: ٢٣-٣١.

نرى الجملة المعترضة في الآيات السابقة ابتداء من قوله: "وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون" الزخرف: ٢٦-٢٨.

وهذا المقطع سبق بمجموعة من الآيات (٢٣-٢٥) وبعدها (٢٩-٣١)، وهما تمثلان مشهداً من مشاهد عناد المشركين عن استقبال دعوة الرسل.

كيف تتناسب قصة إبراهيم عليه السلام التي عرضتها الجملة المعترضة بما قبلها؟

لما ذمَّ الله تعالى التقليد في الجملة التي قبلها وأوجب اتباع الدليل، عقبه بذكر إبراهيم عليه السلام حيث خالف أباه واتبع الحجة وأنكر ذلك أبوه وأهل بلده. (١) وذكر قصة جدّهم إبراهيم مع أبيه وقومه مناسباً باعتبارها أقرب إليهم من غيرها وأدل على المقصود. فإن إبراهيم عليه السلام لم يكن مجاملاً لأبيه أو لقومه على حساب عقيدته، وبالتالي فلم يسز على طريقة آباءه التي يستند إليها المشركون في موقفهم وإنما جابهم بالحقيقة الصارخة "وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون" الزخرف: ٢٦-٢٨. (٢) وهكذا يتبين للمشركين مخالفة موقفهم لموقف إبراهيم عليه السلام من قومه. وبالتالي تسقط مقولتهم التي يتمسكون بها وهي تقليد آباءهم وأجدادهم. وأن عليهم أن يفكروا بعقولهم فإن ما تأتي به الأنبياء أهدى مما يجدون عليه آباءهم... (٣)

(١) الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير. الدكتور عدنان زرزور. مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، ص ٣٧٦ وحيث يأتي يشار إليه: الحاكم الجشمي. د. عدنان.

(٢) في تأويل آية الزخرف، الدكتور أحمد حسن فرحات. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الكويت، السنة السادسة، العدد الرابع عشر، محرم ١٤١٠هـ - أغسطس ١٩٨٩م، ص ٤٠، وحيث يأتي يشار إليه: تأويل آية الزخرف، د. فرحات. (٣) المرجع السابق ص ٤١.

وقيل: لما أمر بمناظرتهم بقوله: "أولو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم" وهو قد دلّ عليه الدليل. فإن أبوا إلا التقليد، فتقليد إبراهيم عليه السلام أولى. وذلك لأنه كان أشرف آباء العرب وأنهم من أولاده يعظمونه ويدعون أنهم على طريقته. (١) إضافة إلى ذلك، فلو كانوا مقلدين لآبائهم لوجب أن يتبعوه - أي إبراهيم - في الاعتماد على الدليل لا على مجرد التقليد لأنه قد ترك دين الآباء لأجل الدليل. (٢)

المطلب الثاني: مناسبة المعترضة في سورة القيامة.

قال تعالى: "أحسب الإنسان أن لن نجوع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر. ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه، كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة". القيامة: ٣-٢١.

فالجملة المعترضة في الآيات السابقة تبتدئ بقوله تعالى: "لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه" القيامة: ١٦-١٩، وهي مسبوقة بمجموعة من الآيات (٣-١٥) وبعدها الآيات (٢٠-٢١).

المجموعة الأولى هي مشهد لأحوال القيامة والمجموعة الثانية تكملة للمشهد الأول وهو خطاب لمن يتساءلون عن القيامة كأنها لا تجيء ثم اعترضه أمر الرسول بالآلة يعجل لسانه بترديد ما يوحي إليه.

وأرى أن هناك وجوهاً متعددة في بيان المناسبة بين تلك الجملة والآيات قبلها. والمفسرون قد حللوا تلك المشكلة لتكون واضحة دون إشكال، وذهب بعضهم إلى أن تلك المجموعة ليست بمثابة الجملة المعترضة. وذلك مثل القفال. (٣)

(١) الحاكم الحشمي، د. عدنان ص ٣٧٧

(٢) غرائب القرآن، نظام الدين النيسابوري ج ٢٥ ص ٤٦.

(٣) القفال هو: أبو بكر محمد بن إسماعيل الفقيه الشافعي الشاشي المعروف بالقفال الكبير، صاحب المصنفات في الفقه والأصول والتفسير. توفي سنة ٣٦٥هـ. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب. أبو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م. ج ٣ ص ٥١، وحيث يأتي يشار إليه: شذرات الذهب. ابن العماد. ونقل الفخر الرازي والنيسابوري والآلوسي عن رأي القفال حيث رأى قوله تعالى "لا تحرك... الخ" ليس خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم بل خطاب للإنسان المذكور في قوله تعالى: "ينبؤ الإنسان... الخ" وذلك حال أنبائه بقبايح أفعاله يعرض عليه كتابه فيقال له "اقرأ كتابك كفى ==

١- رأى أبو حيان وغيره، بعد أن ذكر الله تعالى أن منكر القيامة والبعث مَعْرُضٌ عن آياتِ الله تعالى ومعجزاته وأنه قد قصر شهواته على الفجور، غير مَكْتَرٍث بما يصدر منه، ذَكَرَ حَالٌ مَنْ يثابِرُ على تعلُّمِ آياتِ الله وحِفْظِهَا وتلقفها والنظر فيها وعرضها على مَنْ ينكرها رجاءً قبوله إياها، ليظهرَ بذلك تباينَ حالٍ مَنْ يرغبُ في تحصيل آياتِ الله، ومن يرغب عنها، فتلك الآياتُ تضمنتُ حالَ الإعراضِ عن آياتِ الله، وهذه تضمنتُ المبادرةَ إليها بحفظها وبضدّها تتميِّزُ الأشياءَ. (١)

ثم ذكر تعالى سبب إنكار البعث وهو حَبُّ الإنسان الدنيا العاجلة، وترك الآخرة، ووَخُّ أهله، ثم أوضح تعالى انقسامَ الناسِ في الآخرةِ إلى فريقيين: فريقِ المؤمنين المستمتعين بالنعيمِ وبرؤيةِ الله عز وجل، وفريقِ المشركين الذين يترقبون نزولَ الدواهي العظامِ من العذابِ بهم. (٢)

٢- أما الأستاذ سعيد حوى فإنه يرى أن الإنسان الكافر في المجموعة السابقة يظن أن الله لن يبعثه، وقد ردَّ الله عز وجل هذا الظنَّ ثم بيَّن أن السببَ الحقيقي لموقف الإنسان هذا هو رغبته في الفجور وحرصه على عدم التقيدِ والفرارِ من التكليفِ، ولذلك فهو يستبعدُ مجيء يومِ القيامة.

وبعد ذلك حَدَّثَنَا اللهُ عز وجل عن يومِ القيامةِ الذي يكذبُ به المكذبون وما يكون فيه، وكيف أن الكافر نفسه يعلم حقيقة ما كان عليه من ذنبٍ وخطأ، وإن تظاهر بغير ذلك، وبعد أن انتهت هذه المجموعة تأتي مجموعةً ثانية تبدأ بقوله تعالى: "لا تحرك به لسانك" أي بالقرآن: هذا مع أنه لم يُذكَرِ القرآنُ من قبل! فما سرُّ ذلك؟

== بنفسك اليوم عليك حسيباً" فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فليل له: "لا تحرك به لسانك لتعجل به" فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجتمع أعمالك وأن نقرأها عليك: "فإذا قرأناه" عليك فاتبع قراءته بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال أو التأمّل فيه "ثم إن علينا بيانه" أي بيان أمره وشرح عقوبته والحاصل على هذا أنه تعالى يوقف الكافر على جميع أعماله على التفصيل وفيه أشد الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخرة. انظر التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي ج ٣٠ ص ٢٢٣-٢٢٤، غرائب القرآن، نظام الدين النيسابوري ج ٢٩ ص ١١٠ وروح المعاني، الألوسي ج ٢٩ ص ١٤٣.

(١) البحر المحيط. أبو حيان م ٨، ج ٨، ص ٣٨٨ وانظر أيضاً: تفسير المراغي، أحمد مصطفى، م ١٠، ج ٢٩، ص ١٥٠-١٥١ وأيضاً: التفسير المنير، الزحيلي ج ٢٩ ص ٢٦٣.

(٢) التفسير المنير الزحيلي، ج ٢٩، ص ٢٦٣ وانظر أيضاً: تفسير المراغي، أحمد مصطفى، م ١٠، ج ٢٩، ص ١٥١.

أ- لقد ذكرت المجموعة الأولى أن السر الحقيقي في كفر الكافرين باليوم الآخر هو إرادة الإنسان في أن يفجر، وأن يستمر في فجوره، أي: في أن يبقى فاراً من التكليف وكتاب التكليف هو القرآن. ومن ثم تأتي المجموعة الثانية لتبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف ينبغي أن يكون تلقيه لهذا القرآن ولتبيين سنة الله عز وجل في القرآن.

ب- إن القرآن هو الكتاب الذي جعل الله فيه علم الساعة كما قال تعالى: "وإنه لعلم للساعة" الزخرف: ٦١، فإن تأتي في ثنايا الكلام عن الساعة مجموعة عن القرآن تؤكد أن هذا القرآن من عند الله، فذلك نوع توكيد لمجيء الساعة، وردّ ضمني على الكافرين في إنكارهم لها. (١)

وبيّنت هذه المجموعة الثانية أن محمداً صلى الله عليه وسلم يتلقى هذا القرآن تلقياً، وأنه كان حريصاً على حفظه عند التلقي حتى إنه ليكرر ما يلقي إليه خشية نسيانه إلى أن نهاه الله عز وجل عن ذلك. وضمن له أن يجمع له هذا القرآن وأن يجعله يقرؤه دون نسيان، وأن يبين له معانيه، وكل ذلك يدل على أن هذا القرآن من عند الله، فإذا ثبت ذلك وكان القرآن يتحدث عن اليوم الآخر والتكليف. فالحجة قائمة على وجوب القيام بالتكليف وعلى ضرورة الإيمان باليوم الآخر. ومن ثم يعود الحديث بعد هذه المجموعة إلى الكلام عن اليوم الآخر. (٢)

٣- الاستاذ أحمد بدوي حين عرض رأي الإمام فخر الدين الرازي في بيان وجه المناسبة لهذه الجملة المعترضة قال: "وإذا كنت أوافق في أصل الفكرة فأني أخالفه في تفصيلاتها، فالمعنى على ما أرى، ينبئ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر وذلك كما أخبر القرآن، في كتاب مسطور، وفي تلك الآيات يصف القرآن موقف المرء من هذا الكتاب فهو يتلوه في عجل كي يعرف نتيجته، فيقال له: لا تحرك بالقراءة لسانك لتتعجل النتيجة، إن علينا أن نجمع ما فيه من أعمال في قلبك، وأن نجعلك تقرؤه بتدبر وإمعان، فإذا قرأته فاتجه الاتجاه الذي يهديك إليه، وإن علينا بيان هذا الاتجاه وإرشادك إليه إما إلى الجنة وإما إلى السعير". (٣)

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ١١م، ص ٦٢٦٧.

(٢) المرجع السابق ١١م، ص ٦٢٦٨.

(٣) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص ٢٣٧، وحيث يأتي يشار إليه: من بلاغة القرآن. أحمد بدوي.

- ٤- وبعضهم يرى وقوع المناسبة بسبب قوله تعالى: "كلا بل تحبون العاجلة" متصل بقوله تعالى: "ولو ألقى معاذيره" أي يقال للإنسان عند إلقاء معاذيره: كلا إن أعذارك غير مسموعة فإنك فجرت وفسقت وظننت أنك تدوم على فجورك وأن لا حشر ولا حساب ولا عقاب وذلك من حُبِّك العاجلة والإعراض عن الآخرة. (١)
- ٥- قال الإمام الفخر الرازي: "يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الاستعجالُ المنهَى عنه إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه. فلا جرم نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت وقيل له: "لا تحرك به لسانك لتعجل به" وهذا كما أن المدرس إذا كان يُلقي على تلميذه شيئاً، فأخذ التلميذ يلتفت يمينا وشمالاً، فيقول المدرس أثناء ذلك المدرس لا تلتفت يمينا وشمالاً ثم يعود إلى الدرس. فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام أثناءه فمن لم يعرف السبب يقول: إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب". (٢)
- ٦- وهناك وجه آخر سلكه الإمام الفخر الرازي حيث قال: "كأنه تعالى قال: يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم لكن لا حاجة إلى هذا، فإن الإنسان على نفسه بصيرة" وهم بقلوبهم يعلمون أن الذي هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان، وإنكار البعث منكر وباطل، فإذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه، ثم إن هذه المعرفة حاصلة عندهم، فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة، فلا جرم قال: "لا تحرك به لسانك". (٣)
- ٧- رأينا في بيان وجه المناسبة بينها وبين الآيات التي قبلها:
- يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآيات في سورة القيامة استعجل لسانه حتى يظهر التعجيل في القراءة مع جبريل عليه السلام ليسرع إلى الحفظ. وذلك خوفاً من النسيان أو لسبب اشتياق قلبه فلم يصبر إلى أن يتمها للوصول إلى النهاية والنتيجة. والسورة كما تعلم تتضمن على الأقل ثلاث نتائج. الأولى: حالة المؤمنين "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" ٢٢-٢٣. والثانية: حالة الكافرين "وجوه يومئذ باسرة" تظن أن يفعل بها فاقرة" ٢٤-٢٥. والثالثة: حالة الإنسان عند سكرة الموت وكأنها تعبير عن شدة هول القيامة التي أنكروها. "كلا إذا بلغت التراقي وقيل: من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى" ٢٦-٣٥.

(١) روح المعاني، الألويسي. ج ٢٩، ص ١٤٣.

(٢) التفسير الكبير. الإمام الفخر الرازي ج ٣٠ ص ٢٢٢-٢٢٣ وانظر أيضا: روح المعاني الألويسي، ج ٢٩ ص ١٤٣.

(٣) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي ج ٣٠ ص ٢٢٣.

فإذا وصل إلى قوله تعالى: "ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره" توقف جبريل عن تلقين الوحي نظرا لتلك المنازعة والمسابقة فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يستنصت له ملقيا إليه قلبه وسمعه حتى يقضي إليه الوحي. وهذا الأسلوب تربية له (١) بعد مضي ثلاثين سورة من السور المكية قبل هذه سورة القيامة. (٢)

ثم جاء تذكيرا وتركيزا للمرحلة الأخيرة في سورة طه (المكية) بعد ثلاث عشرة سورة من هذه السورة. قال تعالى: "فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما" طه: ١١٤ .

والقول الذي ذكرناه هنا لا يتعارض مع الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل الوحي يحرك به لسانه يريد أن يحفظه. فأنزل الله "لا تحرك به لسانك لتعجل به" (٣). ولا داعي لتغيير الخطاب إلى غيره صلى الله عليه وسلم - كما فعل القفال - لظاهر النص، والمنصوص الصحيح في سبب النزول أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم. "فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع وإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه". (٤)

وإذا لم يتأمل أحد سياق الآية، فلا ينتبه إلى المناسبة بينهما ثم من يخفى عليه وجه المناسبة ولا ينظر إلى سبب النزول سيقول إن وقوع تلك الجملة أثناء الآيات غير مناسب ولكن من عرف الواقعة علم أنه على أحسن ترتيب وأجمل تناسب.

(١) سَمَى الشيخ عبد الرحمن حنكة هذا النوع "بالتربية المعترضة" قال: "لا يخفى ارتباط الجملة أو الجمل القرآنية بسائر عناصر النص التي هي جزء منه إلا في نحو "التربية المعترضة" كتربية الله لرسوله بأن لا يعجل بالقرآن. فقد جاءت هذه التربية معترضة في سورة القيامة كما يربي المعلم الطالب ضمن درس من العلم فينهاه أو يأمره حول واجب من واجبات المتعلم أو طريقة من طرق التعلم ثم يستمر معه في متابعة درسه الذي يليه عليه. ويحسن هذا الاعتراض حينما يراد تحقيق غرض تربوي به أو حينما تدعو الحكمة التربوية أن تكون التربية عند حدوث ما يناهض المطلوب فيها. والجملة الاعتراضية التربوية الواردة في سورة القيامة قد بقيت قرآنا يتلى، لتكون مثالا للتربية المعترضة ضمن دروس العلم". انظر: قواعد التدبير الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حنكة الميداني. دار القلم، دمشق، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ط١، ص ١٣-١٤، وحيث يأتي يشار إليه: قواعد التدبير الأمثل، حنكة الميداني .

(٢) انظر ترتيب السور المكية: الدليل الكامل لآيات القرآن، د. حسين. ص/ك.

(٣) صحيح البخاري، كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٩٢٧، ٨م، ج ٨، ص ٦٨٠ .

(٤) المصدر السابق. كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٩٢٩، ٨م، ص ٦٨٢ .

المطلب الثالث: مناسبة المعترضة في سورة الأعراف.

إن قوله تعالى: "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض. لا إله إلا هو يحيي ويميت. فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون" الأعراف: ١٥٨. جاء بمثابة الجملة المعترضة لأن الحديث بعدها متصل بالحديث قبلها حيث جاءت الجملة التي تضمنت ذكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بين قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل.

ووجه المناسبة بين هذه الجملة وما قبلها كما يلي:

١- قال صاحب المنار: "ذكرت رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم في الآية التي قبل هذه من قصة موسى عليه السلام استطرادا بحسب نظم الكلام، ولكنها هي المقصودة بالذات من القصة ومن سائر قصص الرسل عليهم السلام، ولما كان ذكرها في سياق القصة لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وإقامة الحجة عليهم بذكره صلى الله عليه وسلم في كتبهم والبشارة برسالته على ألسنة أنبيائهم، وبيان ما يكون لهم من الفلاح والفوز بالإيمان به صلى الله عليه وسلم وأتباعه، ناسب أن يقف على ذلك ببيان عموم بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله تعالى وبه". (١)

٢- نحن لا نرى أي إشكال في انتقال الكلام من قصة موسى وبني إسرائيل إلى الحديث عن النبي الأمي صلى الله عليه وسلم، لأن إتيانه مناسب لوقته.... إيمانهم بموسى يستلزم تلبية دعوة محمد صلى الله عليه وسلم. لأن كليهما من مصدر واحد. إلا أن دعوة موسى عليه السلام محلية ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم عامة. وأتت هذه الجملة بسهولة المقارنة والموازنة بينهما. ذكرها أسرع إلى الفهم من أن لا يذكرها. وفي نفس الوقت تصديق لما جاء في التوراة والإنجيل من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وشرف من يتبعه لأن القرآن - هنا - لا يفصل موسى عليه السلام عن

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، م ٩ ج ٩، ص ٣٠٠.

(٢) مثل ما رواه البخاري من صفات صلى الله عليه وسلم في التوراة عن عطاء بن يسار. انظر: صحيح البخاري، كتاب ٣٤، حديث رقم ٢١٢٥، م ٤، ج ٤، ص ٣٤٢، وفي سنن الدارمي جاء على رواية كعب الأحبار وعبدالله بن سلام، انظر: سنن الدارمي. الإمام أبو عبد الله الدارمي، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٨هـ-١٩٨٧م، باب صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - في الكتب قبل بعثته، ج ١، ص ٤-٦ وحيث يأتي يشار إليه: سنن الدارمي.

محمد صلى الله عليه وسلم تمثيلاً وتأكيدياً بما قد جاء على لسان أنبيائهم بشأن حضور محمد صلى الله عليه وسلم بعدهم (١) كما أنها تفيد إزالة الحجة عن كون محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثاً خاصة للعرب وغير مبعوث إلى بني إسرائيل (٢). بل دعوته عامة ورسالته شاملة لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل كما قال الأستاذ سيد قطب: "إنها الرسالة الأخيرة" فهي الرسالة الشاملة التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل... ولقد كانت الرسائل قبلها رسائل محلية قومية محدودة بفترة من الزمان... وكانت البشرية تخطو على هدي هذه الرسائل خطوات محدودة، تأهلاً لها للرسالة الأخيرة. وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرج البشرية. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها..." (٣)

فيبدو أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يتناقلون خبر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بينهم ويذكرون البشارات من كتبهم حتى إذا ما بعثه الله بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون وكان علماءهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود وغيره من الذين أسلموا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم. واعتراف النجاشي وبطارقته أن الذي جاء به محمد وعيسى ليخرج من مشكاة واحدة (٤). وأما الذين استكبروا فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ويؤلون كثيراً منها ويكتمونهم عن لم يطلع عليها. (٥)

(١) مثل قوله تعالى "وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد..." الصف/٦.

(٢) ذكر بعض المفسرين: هناك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أتباع عيسى الأصفهاني زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول صادق لكنه مبعوث إلى العرب خاصة. انظر غرائب القرآن: نظام الدين النيسابوري.

ج ٩، ص ٦٤ وأيضاً: التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي ج ١٥ ص ٢٦

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب م ٣، ج ٩، ص ١٣٧٩.

(٤) نصب الراية لأحاديث الهداية، العلامة جمال الدين أبو محمد عبدالله يوسف الزيلعي. دار الحديث، ج ٤، ص ٤٢١، وحيث يأتي يشار إليه: نصب الراية، الزيلعي. وانظر أيضاً: السيرة النبوية. ابن هشام م ١/٧، ص ٤١٦

(٥) تفسير المراغي، أحمد مصطفى م ٣، ج ٩، ص ٨٢. وقد قبض الله علماً من علماء الهند يسمى الشيخ رحمة الله لتحقيق هذه البشارات في كتاب سماه (إظهار الحق)، وتناول فيه مسائل غاية في الأهمية ويجدر لمن يريد التوسع في هذه المسائل أن يطلع عليه. وهو مطبوع متداول بين أيدي الناس. راجع: إظهار الحق. الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي. المطبعة العامرة. القاهرة، ١٢٨٤هـ - ١٨٦٧م. وحيث يأتي يشار إليه: إظهار الحق. رحمة الله.

وخلاصة القول في ذلك، يرى العلامة ابن عاشور أن هذه الجملة المعترضة جاءت مستطردةً لمناسبة ذكر الأُمِّي تذكيراً لبني إسرائيل بما وعد الله به موسى عليه السلام وإيقاظاً لعقولهم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الموصوف بالصفات التي علمها الله موسى عليه السلام. (١)

٣- لما تواصلت الآيات قبلها وبعدها وطال الحديث عن أقاصيص موسى عليه السلام وبيان مناقبه العظام ومآثره الجسام وكان ذلك ربما أوقع في نفوس بني إسرائيل وأنه أعلى المرسلين منصباً وأعظمهم رتبةً. فساق سبحانه وتعالى هذه الجملة معترضةً لإزالة ذلك الشك. (٢)

والحقيقة التاريخية ذكرت أن اليهود لا يعترفون ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم رسولاً ويقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى (٣). ويعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه (٤) ويظنون أنهم يكفيهم ملة موسى عليه السلام مع أنهم - أيضاً - يكفرون بما أوتي موسى من قبل.

قال تعالى: "فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا: سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون" القصص ٤٨ .

المطلب الرابع: مناسبة المعترضة في سورة المجادلة.

فالجملة المعترضة في السورة هي قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. والله بما تعملون خبير" المجادلة ١١ .

وهذه الآية جاءت بمثابة الجملة المعترضة لأن الحديث بعدها متصل بالحديث قبلها وهو الحديث عن النجوى، أما الحديث في هذه الجملة المعترضة هو التوسع في المجالس، إذن فما هو وجه المناسبة بين هذا الذكر وذلك؟

ذكر الإمام الفخر الرازي والنيسابوري وغيرهما أنه تعالى نهى عباده المؤمنين في الجملة السابقة عما يكون سبباً للتباغض والتنافر وهو النجوى وأنه من الشيطان، فأمرهم في هذه الجملة المعترضة بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة بين بعض المؤمنين وبعض، وذلك من التوسع في المجالس حيث الإقبال من الوافد والانصراف إذا طلب ذلك. (٥)

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ج ٩، ص ١٣٩ .

(٢) نظم الدرر. البقاعي. ج ٨، ص ١١٩ . (٣) انظر: البقرة: ١١١ . (٤) انظر: المائدة: ١٨ .

(٥) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي ج ٢٩، ص ٢٦٨، وغرائب القرآن، نظام الدين النيسابوري. ج ٢٨، ص ١٧ .

ثم إذا لم نُقَدِّ الجملة المعارضة بالتفسيح في المجلس فقط وإنما المراد منها إيصال الخير إلى المسلم وإدخال السرور إلى قلبه، فهذه هي مناسبة أخرى، لأن النجوى في الأصل يراد بها إيذاء المسلم واستقرار الحزن في قلبه. ذكر ابن كثير "كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادةً وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم..."^(١)

وفصل بين آيات الأحكام المتعلقة بالنجوى بهذه الجملة مراعاةً لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الجملة ومضمون التي قبلها وبعدها في أنها يجمعها غرض التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

ففي هذه الجملة أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والآيات التي بعدها وقبلها تتعلق بالآداب في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً قد كان للمنافقين نية مكر في قضية المجلس... ولعل من نية مكرهم النجوى، فيبدو أن هذا أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام عن النجوى إلى ذكر التفسيح في المجلس النبوي (٢). وأن التفسيح والتوسع سيُتبعهم عن وقوع النجوى لأن النجوى "هو التحدث فيما بين الإنسان سراً"^(٣).

ذكر العلامة المهامي مناسبة أخرى وذلك لما أمر الله المؤمنين بمناجاة البر والتقوى في الآيات قبلها فتناقصوا فيما بينهم في القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما في مناجلته من جمع وجوههما. فإذا سبقوا إلى المجلس لم يفسحوا لمن أتى بعدهم. نظراً إلى ذلك فتناسب انتقال الحديث إلى التوسع في المجلس.^(٤)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٤، ص ٣٤٥، وانظر أيضاً: أسباب النزول، السواحدي ص ٣٣٨ وأيضاً: تفسير النسفي، الإمام أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ج ٤، ص ٢٣٣، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير النسفي، محمود النسفي ولفظ النسفي: "كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ويريدون أن يغيظوهم ويوهموهم في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا..."

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٢٨، ص ٣٦-٣٧.

(٣) المعجم الوسيط، الدكتور إبراهيم أنيس ومجموعة، ص ٩٠٥.

(٤) تفسير القرآن المسمى بتصوير الرحمن وتيسير المنان، العلامة علي أحمد بن إبراهيم المهامي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط ٢، ج ٢، ص ٣٢٨، وحيث يأتي يشار إليه: تبصير الرحمن: المهامي.

الفصل الثاني

التناسب الموضوعي بين السورتين المتجاورتين

المبحث الأول : المناسبة الموضوعية بين السورة والتي قبلها.

المبحث الثاني: المناسبة الموضوعية بين السورة والتي بعدها.

المبحث الأول

المناسبة الموضوعية بين السورة والتي قبلها

وستتناول هذا المبحث من خلال السور التالية: سورة القيامة والمدثر، وسورة يوسف وهود، وسورة التين وألم نشرح، وسورة اللهب والنصر، وسورة الفيل والهمزة.

المطلب الأول: المناسبة الموضوعية بين سورة القيامة والتي قبلها سورة المدثر
١- كلتا السورتين تتحدثان عن يوم القيامة، ففي سورة المدثر ذكر الله تعالى اعتراف الكفار- وهم في سقر- بأن من أسباب دخولهم لها تكذيبهم بيوم الدين وهو يوم القيامة. "ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين" المدثر ٤٢-٤٧ .

ولما كانت سورة المدثر قد ذكرت اعترافهم عن سبب دخولهم لتكذيبهم بيوم الدين افتتح هذه السورة بالقسم به "لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة،" القيامة: ١-٢ ثم ذكر قدرته على البعث والدليل عليها "أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه" القيامة: ٣-٤ "أيحسب الإنسان أن يترك سدى أم يك نطفة من مني يعني، ثم كان علقه فخلق فتوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى" القيامة ٣٦-٤٠ . (١)

٢- ذكر في سورة القيامة أن لا مجال للفرار عن الحق في يوم القيامة فقال تعالى: "يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر" القيامة ١٠-١٢ ، أي أنهم في الدنيا يستطيعون الهرب وأما في الآخرة فلا يستطيعون ذلك.

فهي مناسبة للسورة قبلها إذ إنها مكملة للحديث في السورة السابقة حيث ذكر فيها أعراض الكفار في الدنيا عن التذكرة وكأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من الأسد "فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة" المدثر: ٤٩-٥١

٣- تتعلق هذه السورة بما قبلها بسبب اشتغالها على حديث الآخرة - كما قلنا- إلا أن في السورة المتقدمة قال تعالى مبينا السبب الأصلي في عدم التذكرة وهو إنكار البعث "كلا بل لا يخافون الآخرة" المدثر: ٥٣، ثم ذكر في هذه السورة دليل إثبات البعث ووصف يوم القيامة وأحواله ثم ذكر ما قبل ذلك من مقدمة وهي خروج الروح من البدن ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق. (٢)

(١) جواهر البيان/ الغماري ١٢٧-١٢٨ .

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ج ٢٩، ص ٢٤٩، أيضا: تناسق الدرر، السيوطي ص ٣٠، وأيضا: تفسير المراغي، أحمد مصطفى م ١٠، ج ٢٩، ص ١٤٤ .

٤- ذكر الفراهي أن عموداً من سورة القيامة إبطال ظن المنكرين للقيامة والجزاء، وكان منشأ إنكارهم حب هذه العاجلة الفانية، فإن حب الشيء يُبعد عن استماع ذكر خلافه ثم استكبارهم عن الطاعة وتقوى الله لما غرهم أهلهم ومالهم كما ذكر الله هذين الأمرين بقوله: "كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة" القيامة: ٢٠-٢١، وبقوله: "فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى" القيامة: ٣١-٣٣. وهذا تصوير من استغنى بأهله وماله وقد تشبثوا في إنكارهم بشبهة عامة ذكرها القرآن بحكاية أقوالهم مراراً مثلاً: "إذا كنا عظاماً نخرة" النزاعات: ١١، "هيئات هيئات لما توعدون" المؤمنون: ٣٤، فأجابهم الله حسب حالهم بما يزيل عنهم الشبهة ويوقظهم عن الغفلة، فجميع ما في السورة من الزواجر والدلائل ما فيه بلاغ مبين. (١)

ولما كانت السورة السابقة قد صرحت بحالهم من الاستنكار والإنكار "إنه كان لا ياتنا عبيداً" المدثر: ١٦ "ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر" المدثر: ٢٣-٢٥، "فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة" المدثر: ٤٩-٥١، ذكرت بالتهويل الشديد "فإذا نقر في الناقور، فذلك يومئذ يوم عير على الكافرين غير يسير" المدثر: ٨-١٠، "فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر" المدثر: ١٩-٢٠، "سأصليه سقر وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر لواحاً للبشر" المدثر: ٢٦-٢٩، فقلل في هذه السورة من ذلك التصريح وخاطبهم بالدلائل "أحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه" القيامة: ٣-٤، "أحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يميني ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى" القيامة: ٣٦-٤٠.

فكما أن الحداد ينفخ في الحديد أولاً فيجعله نارا، ثم يطرق عليه، فهكذا ربما يفعل بالكلام إذا صادف قوما خصيمين مستكبرين... فهذه السورة من لوافح الغضب في أسلوبها ليست بصراحة السورة السابقة كقوله تعالى: "ذري ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لا ياتنا عبيداً سأرهقه صعوداً إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر..... إلى قوله... فرت من قسورة" المدثر: ١١-٥١، فترى فرقا واضحا بين هذا التصريح وبين ما نجد في سورة القيامة". (٢)

(١) تفسير سورة القيامة، المعلم عبد الحميد الفراهي، مكتبة الدائرة الحميدية، الهند، ١٤٠٣هـ، ط ٢، ص ٣، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير سورة القيامة، الفراهي.

(٢) المرجع السابق ص ٣-٤.

المطلب الثاني: المناسبة الموضوعية بين سورة يوسف والتي قبلها سورة هود إن بين السورتين الكريمتين المكيّتين العديد من أوجه التناسب، منها:

١- إن سورة يوسف قد ذكرت قصة يوسف عليه السلام وهو من أحفاد إبراهيم عليه السلام، بينما سورة هود قد ذكرت قصة إبراهيم حيث بشر يعقوب عليه السلام وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب" هود: ٧١، الذي تدور قصة سورة يوسف حوله وحول ابنه الكريم يوسف عليها السلام. (١)

٢- ذكر في سورة يوسف قصة يعقوب عليه السلام مع ابنه وفي سورة هود قصة نوح عليه السلام مع ابنه، لكن شتان ما بينهما، ابن نوح قال إنه سيأوي إلى قمة جبل - ظالما- ويوسف ألقى في قعر جب - مظلوما- والذي طلب النجاة هلك والذي طلب له الهلاك نجا. (٢)

٣- ورد على لسان الرسل في سورة هود أن كل نبي منهم على بينة من ربه، فنوح "أرأيتم إن كنت على بينة من ربي" هود: ٢٨، وهود "قالوا يا هود ما جئتنا ببينة" هود/٥٣، وصالح يقول ذات الكلمة التي قالها أخوه نوح وكذلك شعيب، فما أشبه هذه بقوله تعالى في سورة يوسف موجهاً الخطاب لخاتم المرسلين "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني..." يوسف: ١٠٨. (٣)

٤- إن الحديث في سورة يوسف عن الأذى الذي لقيه يوسف من إخوانه، وفي سورة هود الحديث عن الأذى الذي لقيه الأنبياء من قومهم، فبينهما أتم المناسبة إذ الأولى المقاسة من أذى الأقارب والثانية المقاسة من أذى الأجانب وكلاهما يتجه إلى مقصود واحد وهو تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأقارب والأباعد. (٤)

٥- ذكر صاحب المنار أن المناسبة بين سورة يوسف وسورة هود من حيث إن سورة يوسف متممة لما فيها من قصص الرسل عليه الصلاة والسلام والاستدلال في كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى دالاً على رسالة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إلا أن السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم في تبليغ الدعوة والمحااجة فيها وعاقبة من آمن منهم ومن كذبوهم لإنذار مشركي مكة ومن تبعهم من العرب... أمّا هذه فهي

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية د. أحمد نوفل ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق (٣) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الحفية، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ٤٣١-٤٣٢، وحيث يأتي يشار إليه: الفتوحات الإلهية، سليمان الجمل.

قصة نبي واحد ربي في غير قومه قبل النبوة وهو صغير السن حتى بلغ أشده واكتهل فنبيء وأرسل ودعا إلى دينه وكان مملوكاً ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم فأحسن الإدارة والتنظيم وكان خير قدوة للناس في رسالته وفي جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وتصريف أمورها على أحسن ما يصل إليه العقل البشري. (١)

٦- إن كلتا السورتين تقرران منهج الرسالة ليس لأجل مال أو أجر وإنما إخلاصاً في العمل لمرضاة الله.

وفي سورة هود ورد على لسان نوح عليه السلام في دعوته قومه: "يا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله" هود: ٢٩، وعلى لسان هود: "يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني" هود: ٥١، وفي سورة يوسف خطاباً لمحمد - صلى الله عليه وسلم - "وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين" يوسف: ١٠٤.

المطلب الثالث

المناسبة الموضوعية بين سورة التين والتي قبلها سورة ألم نشرح:

١- لما ذكر الله عزوجل في سورة التين حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره من التندني ودخول جهنم إن عادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو دخول الجنة إن آمن به وعمل صالحاً فهي مناسبة للسورة التي قبلها لأن الله تعالى ذكر في سورة ألم نشرح حال أكمل الناس خلقاً وخلقاً - صلى الله عليه وسلم - وأنه أفضل العالم الذي ينبغي الاقتداء به. (٢)

٢- امتن الله تعالى على نبيه في السورة السابقة بخصال شرفه بها فناسب أن يشرف بلده الذي نشأ فيه، فأقسم به تشریفاً له: "والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين" أي مكة. (٣)

ثم في ألم نشرح أمر بالعمل الصالح، وسورة التين تبين أنه لا خلاص من السقوط إلا بالإيمان والعمل الصالح. (٤)

٣- تضمنت سورة ألم نشرح ما حمل النبي - صلى الله عليه وسلم - من أعباء هذه البيعة العظيمة التي أسس بنيانها بيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وجعل لأجلها "هذا البلد الأمين" مأموناً من كيد الأعداء. (٥)

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا م ١٢، ج ١٢، ص ٢٥٠.

(٢) روح المعاني، الألوسي: ج ٣٠، ص ١٧٢.

(٣) جواهر البيان، الغماري: ص ١٣٩.

(٤) الأساس في التفسير، سعيد حوى: م ١١، ص ٦٥٨٩.

(٥) تفسير سورة التين، المعلم عبد الحميد الفراهي، بحث مخطوط، ص ٤٩، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير سورة التين، الفراهي.

ولذا أسكن فيه إبراهيم عليه السلام ذريته ومع أن الله تعالى أحرَّ أمرها وغشى موضعها ظلمة إلى مدة ما لم يُودَّعهم أو يُقلَّهم حتى أشرق بنور أتمَّ فيبعث فيه هذا النبي ليُكمل مقصد بناء هذا البلد وهو التوحيد الكامل... (١) والرَّبُّ تعالى حكيمٌ عليمٌ بالمصالح وجعل لكلِّ أمرٍ أجلاً مُسمًى، فذكر في سورة التين كيف يدين الله الإنسان بالكلمة ويُقيم من بينهم أمةً بعد أمةٍ ويعطيهم الأمانة ويرفع قومًا ويضع قومًا ليدنيهم حسبما أوفوا بعهده وأمانته كما قال تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم إن ركب سريع العقاب وإنه لغفور رحيم". الأنعام: ١٦٥. (٢)

فذكر في هذه السورة شواهداً على ظهور بركات هذا البلد وأن هذا مبنًى على سنة الله بالإنسان من أول أمره "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات... التين: ٤-٦. (٣)

٤- ذكر الإمام السيوطي أن الله تعالى أخبر في السورة السابقة عن شرح صدر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك يستدعي كمال عقله وروحه فكلاهما في القلب الذي محلُّه الصدر، وعن خلاصه من الوِزْرِ الذي ينشأ من النفوس والهوى وهو معصومٌ منهما، وعن رفع الذكر حيث نزه مقامه عن كل مؤهٍم.

فلما كانت هذه السورة في هذا العلم الفرد من الإنسان فهي مناسبة لسورة التين وهي سورةٌ مشتملة على بقية الأناسي وذكر ما خامرهم من متابعة النفس والهوى. (٤)

المطلب الرابع:

المناسبة الموضوعية بين سورة الذهب والتي قبلها سورة النصر

١- إن الله عزوجل يعطينا في سورة الذهب نموذجاً على هؤلاء الخاسرين من الرجال والنساء، وهم عم رسول - صلى الله عليه وسلم - وزوجة عمه.. (٥)

(١) تفسير سورة التين، المعلم عبد الحميد الفراهي، ص ٤٩، (٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) تناسق الدرر، السيوطي: ص ١٤٠ .

(٥) الأساس في التفسير، سعيد حوى، م ١١، ص ٦٧٣٨ .

فسورة النصر جاءت تبشّر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنصر على الكافرين، أمّا سورة اللهب فإنها تأتي لتحدث عن مآل الكافرين وخسرانهم من خلال الحديث عن شخصية آذت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هي وزوجها الإيذاء الكثير وحرصت على ردّ وصدّ الناس عن الإسلام. (١)

ومن ثمّ للسورة صلتها الوثيقة بما قبلها، فليس أعداء الله مغلوبين فقط بل من حارب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها واستمر على ذلك فإنه كذلك معذب عند الله عزوجل يوم القيامة، وهو نصر ثانٍ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ففي سورة النصر تسجيلٌ للنصر الدنيوي على الكافرين وفي سورة اللهب تسجيلٌ للنصر الأخروي على الكافرين. (٢)

٢- ذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره أن وجه اتصال سورة اللهب بما قبلها أنه لما قال "لكم دينكم ولي دين" الكافرون: ٦، فكأنه قيل: إلهي وما جزائي؟ فقال تعالى له: النصر والفتح كما تضمنته سورة الفتح، ثم قال: وما جزاء عمّي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: تبت يدا أبي لهب وتب" اللهب: ١. (٣)

وعلى نفس النهج ذكر الإمام السيوطي في تناسق الدرر، أنه لما قال: "لكم دينكم ولي دين" الكافرون: ٦، كأنه قيل: يا إلهي ما جزاء المطيع؟ قال: حصول النصر والفتح كما دلت عليه سورة النصر، فقيل: وما جزاء العاصي؟ قال: الخسارة في الدنيا والعقاب في العقبى كما دلت عليه سورة اللهب. (٤)

٣- لما بشر الله نبيه في السورة السابقة بنصره ونشر دينه ودخول الناس فيه أفواجا ناسب أن يبشّره هنا بهلاك عدوّه عنيديّين من أشدّ أعدائه.

وقد كان أبو لهب شديد العداوة للنبي - صلى الله عليه وسلم - شديد التحريض عليه وشديد الصدّ عنه، روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسوق ذي المجاز يقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحدا يقول شيئا وهو لا يسكت يقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" إلا أن وراءه رجلا أحول وضياء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابيء كاذب فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبدالله وهو يذكر النبوة قلت: من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمّه أبو لهب. (٥)

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ١١م، ص ٦٧٣٨. (٢) المرجع السابق.

(٣) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي، ج ٣٢، ص ١٥٠. (٤) تناسق الدرر، السيوطي، ص ١٤٦.

(٥) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٦٠٢٣، ج ١٥، ص ٤٢٣.

ومن ذلك تعلم أن أبا لهب كان يصدّ من الحق وينفّر من إتباعه، وذاع عنه تكذيبه للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحديه واتباع خطواته لدحض دعوته والحط من شأن دينه وما جاء به .

وستعذب معه امرأته التي كانت تتعاون على كفره وجحوده وكانت عضده في مشاكة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإيذائه وكانت تمشي بالنميمة للأنبيا وإيقاد نار الفتنة والعداوة وتسعى بالنميمة لإطفاء دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . ولهذا أفرد الله هذه السورة للبشارة بهلاكهما وخسرانهما إكراماً لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وانتقاماً له من أعدائه .

٤- المناسبة بين السورتين من حيث تقديم موضوع الوعد على موضوع الوعيد، إذ الأولى تشتمل على الوعد والثانية على الوعيد، وهو على نهج قوله تعالى: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون" آل عمران: ١٠٦-١٠٧ .

٥- سورة اللهب وإن نزلت على سبب خاص في قصة معلومة كما ذكره البخاري (١) ولكنها اتصلت بما قبلها في قوة أن لو قيل: "قد انقضى عمرُك يا محمد، وانتهى ما قلده من عظيم أمانة الرسالة أمرك، وأديت ما تحمّلته وحان أجلك، وأمارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجا واستجابتهم بعد تلكؤهم والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك وإن كان أقرب الناس إليك، فقد فصلت سورة الكافرون بين أوليائك وأعدائك، وبأن بها حكم من اتبعك ومن عاداك... وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان وأن القرابات غير نافعة ولا مجدبة شيئاً إلا مع الإيمان". (٢)

٦- قال الفراهي: "قد ذكرنا في تفسير سورة النصر أن الله تعالى كما ختم هذه البعثة بفتح مكة فكذلك ختم كتاب هذه النبوة بذكر هذا الفتح العظيم، وذلك أنباء بأن الحق قد بلغ مركزه لأن فتح مكة هو مركز هذه البعثة لكون الكعبة مركزاً للتوحيد والإسلام". (٣)

(١) صحيح البخاري، كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٩٧١، ٨م، ج ٨: ص ٧٣٧ .

(٢) نظم الدرر، البقاعي ج ٢٢، ص ٣٣٠، وانظر أيضاً: البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير، ص ٢٤٦

(٣) تفسير سورة اللهب، المعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة المعارف أعظم كره، الهند، ص ١، وحيث يأتي يشار إليه:

تفسير سورة اللهب، الفراهي.

فموضع سورة اللهب تأتي بمثابة تأكيد وتوضيح لمعنى النصر والفتح المذكور قبلها في السورة السابقة، وكأنه قال: قد نصر الله نبيه وأهلك عدوه، كما قال تعالى في مكان آخر "جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً" الإسراء: ٨١، ونرى نظير ذلك في خطبته عليه الصلاة والسلام على باب الكعبة بعد فتح مكة حيث قال: "لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده". (١)

فقوله "لا إله إلا الله وحده" هذا معنى سورة الكافرون، وقوله "صدق وعده ونصر عبده"، هذا معنى سورة النصر، وقوله "وهزم الأحزاب وحده" هذا معنى سورة اللهب. (٢)

المطلب الخامس:

المناسبة الموضوعية بين سورة الفيل والتي قبلها سورة الهمة:

- ١- قال ابن الزبير: "لما تضمنت سورة الهمة ذكر اغترار من فتن بماله حتى ظن أنه يخلده، وما أعقبه ذلك، اتبع هذا بذكر أصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم، وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم حتى هموا بهدم البيت المحرم فتعجلوا النقمة وجعل الله كيدهم في تضليل" وأرسل عليهم طيرا أبابيل "الفيل: ٣، أي جماعات متفرقة ترميهم بحجارة من سجيل" الفيل: ٤ حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم "فجعلهم كعصف مأكول" الفيل: ٥، وأثر لهم ذلك اغترارهم وتوفر حظهم من الخسر المتقدم". (٣)
- ٢- قال الآلوسي: "لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له عليه الصلاة والسلام عقب ذلك بقصة أصحاب الفيل للإشارة إلى أن عقبي كيدهم في الدنيا تدميرهم فإن عناية الله عزوجل برسوله - صلى الله عليه وسلم - أقوى وأتم من عنايته سبحانه بالبيت. فالسورة مشيرة إلى مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الأخرى...." (٤)

(١) تفسير سورة اللهب، الفراهي، ص ١-٢. والحديث رواه أبو داود، انظر سنن أبو داود، الإمام أبو داود سليمان السجستاني، تعليق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، كتاب ٣٨، حديث رقم ٤٥٥٧، ج ٢، ص ٤، ج ٤، ص ١٨٥، وحيث يأتي يشار إليه: سنن أبي داود.

(٢) تفسير سورة اللهب، الفراهي ص ٢.

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٤) روح المعاني، الآلوسي: ج ٣٠، ص ٢٣٢.

٣- ذَكَرَ الْقُرْآنُ فِي سُورَةِ الْهَمِزَةِ كُلَّ هَمْزَةٍ لَمْزَةٍ مُفْتَخِرٍ بِمَا لَهُ ذَاهِلٌ عَنْ مَالِهِ فَدَعَا عَلَيْهِ بِالْوَيْلِ وَأَنْبَأَهُ بِأَنَّهُ يَنْبِذُ فِي الْحَطْمَةِ الْمَوْقِدَةَ. (١)

ففي سورة الفيل إسهادٌ على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم واجترأوا على الله لأنهم قد علموا في كتبهم حرمة هذا البيت العتيق. (٢)

وقال الإمام السيوطي في تناسق الدرر إنه تعالى لما ذكر في السورة السابقة حالَ الهمزة اللمزة الذي جمع مالا وتعزز بماله وتقوى وأفاد تعالى أن المال لا يغني من الله شيئاً، فذكر في هذه السورة الدليلَ على ذلك بإيراد قصة أصحاب الفيل الذين كانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثرَ مالا وأعظمَ عتواً، وقد أهلكهم الله بأصغر الطير واضعفه ولم يغن عنهم مالهم ولا عددهم ولا قوتهم ولا فيلهم شيئاً. (٣)

وتكون السورة التالية كالاستدلال على ما أُشير إليه فيما قبلها من أن المال لا يغني من الله تعالى شيئاً. (٤)

(١) تفسير سورة الفيل، المعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة إصلاح، أعظم كره، الهند، ص ٦، وحيث يأتي يشار إليه، تفسير سورة الفيل، الفراهي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تناسق الدرر، السيوطي ص ١٤٣-١٤٤.

(٤) روح المعاني، الألوسي، ج ٣٠، ص ٢٣٢.

المبحث الثاني

المناسبة الموضوعية بين السورة والتي بعدها

فحديثنا في ذلك سيكون من خلال المطالب التالية:

١- المناسبة الموضوعية بين سورة الضحى وألم نشرح

٢- المناسبة الموضوعية بين سورة المزمل والمدثر.

٣- المناسبة الموضوعية بين سورة يونس وهود.

٤- المناسبة الموضوعية بين سورة الجاثية والأحقاف.

٥- المناسبة الموضوعية بين سورة الواقعة والحديد.

المطلب الأول: المناسبة الموضوعية بين سورة الضحى والتي بعدها سورة ألم نشرح:

١- نفى الله تعالى في سورة الضحى ترك نبيه وقلاءه، رداً لدعوى بعض المشركين ذلك

وامتن عليه ببعض نعم وأنعم عليه بها قبل النبوة. (١)

فذكر في سورة ألم نشرح نعماً منحه إياها في بدء النبوة، وبعدها وهي شرح صدره

ووضع وزره ورفع ذكره وتيسير العسير له. فقد أعطاه الله ذلك من غير طلب "الم

نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع

العسر يسرا إن مع العسر يسرا" ألم نشرح ١-٦، مع أنّ موسى عليه السلام طلب من

الله أن يشرح صدره وييسر أمره "قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل

عقدة من لساني يفقهوا قولي" طه: ٢٥-٢٨، وإبراهيم عليه السلام طلب أن يجعل له

ذكراً في الآخرين "واجعل لي لسان صدق في الآخرين" الشعراء: ٨٤(٢)، فالسورتان

متناسبتان في الموضوع متقاسمتان بيان فضل النبي - صلى الله عليه وسلم-. (٣)

٢- كلتا السورتين تعدد نعمه سبحانه عليه صلى الله عليه وسلم إذ معنى السورة ألم نشرح

من معنى سورة الضحى. وإنما فصلت سورة ألم نشرح ولم ينسق ذكره هذه النعم في

سورة واحدة لسبب. فقال ابن الزبير عنه: "من المعهود في البشر وفيمن عنده على ولده

أو عبده نعماء أن يذكر له أولاً ما شاهد الحصول عليه منها لكسبه مما يمكن أن يتعلق

في بعضها بأن ذلك وقع جزاء لا ابتداء، فإذا استوفى له ما قصده من هذا أتبعه بذكر

نعم ابتدائية قد كان ابتداءه قبل وجوده كقول الأب لابنه: ألم اختر لأجلك الأم

والبقعة حيث استولدتك وأعددت لك من مصالحك كذا وكذا...". (٤)

(١) جواهر البيان، الغماري ص ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٨-١٣٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٤) البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير، ص ٢٣٢، وانظر أيضاً: نظم الدرر البقاعي، ج ٢٢، ص ١١٩

٣- ذكر صاحب الظلال أن التناسب بين سورة الضحى و السورة بعدها ليس مجرد ترتيب الزول حيث نزلت سورة ألم نشرح بعد سورة الضحى وإنما "كأنها تكلمة لها، فيها ظل العطف الندي وفيها روح مناجاة للحبيب وفيها استحضار مظاهر العناية واستعراض مواقع الرعاية وفيها البشرى باليسر والفرج وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحيل الإتصال الوثيق..." (١)

٤- أما مناسبة خاتمة سورة الضحى و فاتحة السورة بعدها فقال الإمام البقاعي إنه لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الضحى بالتحديث بنعمته تعالى التي أنعمها عليه "وأما بنعمة ربك فحدث" الضحى: ١١، ففصلهما في هذه السورة فقال مثبتاً لها في استفهام إنكاري مبالغ في إثباتها عند من ينكرها والتقرير بها مقدماً المنة بالشرح في صورته قبل الإعلام بالمغفرة. قال تعالى "ألم نشرح لك صدرك" ألم نشرح: ١. (٢)
المطلب الثاني: المناسبة الموضوعية بين سورة المزمّل والتي بعدها سورة المدثر
١- قال الغماري "تناسبت السورتان في أن كلّ واحدةٍ منهما سجلت حالةً من حالتيه عليه الصلاة والسلام". (٣)

٢- إن شأن مطلع سورة المدثر إلى قوله تعالى: "ولربك فاصبر" المدثر: ٧، شأن مطلع سورة المزمّل إلى قوله تعالى: "واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً" المزمّل: ٨-٩، هذا وذلك لإعداد نفس الرسول صلى الله عليه وسلم للنهوض بالتبعية الكبرى ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهاراً وكافة مما سيترب عليه مشاق كثيرةً ومتنوعةً تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسي سابق.

فقد تضمنت سورة المدثر في مطلعها ذلك النداء العلوي بانتداب النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر الجليل وانتزاعه من النوم والتوتر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة "يا أيها المدثر قم فأندب" المدثر: ١-٢، مع توجيهه صلى الله عليه وسلم إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم والإستعانة عليه بهذا الذي وجهه الله إليه "وربك فكبر وثيابك فطهر والوَجْزَ فَاهْجِرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ولربك فاصبر" المدثر: ٣-٧، وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك في سورة المزمّل "يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً إن لك في النهار سبحا طويلاً واذكر اسم ربك وتبتل إليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، م٦، ج٣٠، ص٣٩٢٩.

(٢) نظم الدرر، البقاعي، ج٢٢/ ص١١٥.

(٣) جواهر البيان، الغماري ص١٢٦.

تبتيلاً رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً واصبر على ما يقولون
واهجرهم هجراً جميلاً" المزمّل: ١-١٠. (١)

٣- لقد أمر في سورة المزمّل بقيام الليل استعداداً لما يلقي إليه وترقباً لما يفاض عليه.
فألقي إليه في سورة المدثر الأمر بالإنذار وما معه: "قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر
والرجز فاهجر" المدثر: ٢-٥، وأفيض عليه وصف الرسالة بعد أن كان نبياً، ومن هنا قال
بعض الصوفية في "يا أيها المزمّل" إنه ترمّل بالنبوة وفي "يا أيها المدثر" إنه تدثر
بالرسالة. (٢)

٤- سورة المدثر أتت بمشابهة إتمام للمشهد الذي ذكرته السورة السابقة، والسورة السابقة أتت
على ذكر ما ختمت به السورة قبلها مما أطلع الله عليه رسوله من غيبه بوحيه بذكر
شيء من قصته وما أوحى به إلى الرسول في أولى مواقفه وإلى ما دعا إليه من تدبر
القرآن وترتيبه وعبادة الله والاتكال عليه بالصبر على ما يقول الكافرون. وأتبع ذلك
بأن يهجرهم عند الصدود "هجراً جميلاً" فعنده تعالى عقابهم بعد المحاسبة شأن فرعون
بما لقيه قائلاً "إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً" المزمّل: ١٩، ثم سورة المدثر
أتت بابتداء الوحي مبيّنة ما أمر أن يكون عليه الرسول عليه السلام من نقاء وطهارة
في إبلاغه الرسالة ذاكراً الآخرة وما يلقاه الكافرون من المستكبرين في الأرض كالوليد
ابن المغيرة ممن أوقى المال والبنين "ثم يطمع أن أزيد" المدثر: ١٥ فأدبر عن الحق
واستكبر عن اتباع الرسول عليه السلام بعد ما بدرت منه بادرة عقل وخير بين أقرانه
بشائه على القرآن وصفاً ينفى ما قاله غيره من أنه قول مجنون أو كاهن أو شاعر، ثم
ذكر ما سيصير إليه من عذاب لعناده هذا على ما أوتيته من علم ونظر وسيادة ومال
وبنين. وذكر من مشاهد القيامة ما ذكر معه من أخلاق الكافرين مما يستحقون به
العقوبة زجراً لهم وتذكراً "كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء
الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة" المدثر: ٥٤-٥٦. (٣)

٥- سورة المزمّل عبارة عن سورة المؤمن الأول الرسول عليه السلام في أول مواقف
رسالته وحظه من المجاهدة هو وأصحابه في عبادة فيها الخير والأجر والعظة والعبر،
وهذا هو وجه من وجوه المناسبة مع السورة بعدما إذ إنها تمثل أيضاً موقف الرسول
عليه السلام بما كان عليه في دعوته وما لقيه من صدود، ويخص بالذكر حالاً من
أحوال بعض القوم بما فيه تحريض على الإيمان عظة. (٤)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦، ص ٣٠٥، ص ٣٧٥٢.

(٢) جواهر البيان. الغماري، ص ١٢٦-١٢٧.

(٣) نظرة العجلان في أغراض القرآن. ابن شهيد ميلون ص ١٩٨-٢٠٠ (٤) المرجع السابق.

٦- أمر في سورة المزمل بترتيب القرآن لتدبره واستخراج جواهره ولآلئه فذكر في سورة المدثر وعيد المكذب به "إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر" المدثر: ١٨-٢٨. (١)

٧- توعد الله في سورة المزمل المكذبين بأهوال يوم القيامة "فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الوالدان شبياً السماء منفطر به كان وعده مفعولاً" المزمل: ١٧-١٨، فذكر في سورة بعدها ما يحصل لهم من العذاب في ذلك اليوم واعترافهم بكفرهم "كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين" المدثر: ٣٨-٤٨. (٢)

٨- قال ابن الزبير: "ملاءمتها لسورة المزمل واضحة فاستفتاح السورتين من نمط واحد. وما ابتدأت به كل واحدة منهما من جليل خطابه عليه السلام وعظيم تكريمه "يا أيها المزمل" "يا أيها المدثر" والأمر فيهما بما يخصه "قم الليل إلا قليلاً نصفه..." وفي الأخرى "قم فأنذر وربك فكبر"، وأتبع في الأولى بقوله "واصبر على ما يقولون" وفي الثانية بقوله "ولربك فاصبر" وكل ذلك قصد واحد، وأتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار ووعيدهم "وذري والمكذبين..." وكذلك في الأخرى "ذري ومن خلقت وحيداً..." فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد. (٣)

٩- إن سورة المزمل قد حددت للنذير ما ينبغي فعله في علاقته مع الله وفي مواقفه من نوع من الكافرين، وتأتي سورة المدثر بعدها لتحدد للنذير أخلاقه التي تقتضيها عملية الإنذار وموقفه من أنواع المكذبين وعرض لحال أهل اليمين وحال المجرمين في الآخرة. (٤)

١٠- تضمنت سورة المدثر تهديداً ووعيداً للمكذبين ومجرب الله المباشرة "فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له ملاممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً" المدثر: ٨-١٧ كما تضمنت سورة المزمل سواء بسواء "وذري والمكذبين أولى التعمة ومهلهم قليلاً إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً" المزمل: ١١-١٣.

(١) جواهر البيان. الغماري. ص ١٢٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير، ص ٢١٦.

(٤) الأساس في التفسير. سعيد حوى، م ١١ ص ٦٢٢٨.

إلا أن سورة المزمل التفتت إلى المكذبين أولى النعمة وتذكّرهم بفرعون الجبار وكيف أخذته الله أخذ عزيز قهار وهو مشهد الهول والفرع "إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً ويلاً" المزمل/١٥-١٩، بينما سورة المدثر تعين أحد المكذبين بصفته وترسم مشهداً من مشاهد كيده وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له "إنه فكر وقدّر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر" المدثر/١٨-٢٥ .

ثم تذكر مصيره "سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر لواحذ للبشر عليها تسعة عشر" المدثر/٢٦-٣٠. (١)

١١- أما مناسبة خاتمة المزمل لفاحة المدثر قال البقاعي: "لما ختمت المزمل بالبشارة لأرباب البصارة بعد ما بدئت بالاجتهاد في خدمة المهيب للقيام بأعباء الدعوة افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة لأصحاب الحسارة..." (٢)

المطلب الثالث:

المناسبة الموضوعية بين سورة يونس والتي بعدها سورة هود :

١- ذكر الآلوسي أن مطلع سورة يونس شديد الارتباط بمطلع السورة بعدها، فإن قوله تعالى "الر تلك آيات الكتاب الحكيم" يونس/١ نظير قوله تعالى في السورة بعدها "الر كتاب أحكمت آياته..." هود/١. (٣)

٢- كلتا السورتين تحمل نفس طابع جو نزولهما إذ إنهما كما يظهر نزلتا فيما بين عام الحزن إلى قبل بيعة العقبة حيث توفي في هذه الفترة أبو طالب وخديجة رضي الله عنها ورفض تقيف لدعوته صلى الله عليه وسلم واستهزاء المشركين بمعجزة الإسراء والمعراج. (٤)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦، ص ٢٩، ج ٦٨، ص ٣٧٤٨ و ٣٧٥٢ - ٣٧٥٣ .

(٢) نظم الدرر. البقاعي. ج ٢١، ص ٣٩ .

(٣) روح المعاني. الآلوسي، ج ١٢، ص ٢٠٢ .

(٤) انظر المطلب: التناسب الدعوى بين سورة هود وجو نزولها من هذا البحث. ص ١٦٠.

وهذه الفترة تُعتبر من أقسى الفترات التي مرت بها الدعوة في مكة، حيث كان التحدي والعناد من قريش إلى الحد الذي ضاق به صدرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يحتاج إلى التسمية عنه والتثبيت بما يوحي إليه... وبالذات الفترة التي تلت وفاة أبي طالب وخديجة وحادثة الإسراء وجرأة المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقف حركة الدعوة تقريبا والقلّة المسلمة معه، وهي أقسى الفترات التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مكة كما قلنا. (١) ولذلك نجد في السورتين تناسبا في تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه على الحق والتسمية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي، مثلاً قال في يونس: "أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين" يونس/٢، "إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون" يونس/٧-١١ .

"ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم" يونس/١٣-١٥ "فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون" يونس/١٧ "وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين" يونس/٣٧-٣٩ .

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب، ٤م، ج ١٢، ص ١٨٣٩ .

وقال في هود "فلعلك تاركٌ بعض ما يوحي إليك وضائقٌ به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مغتربات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلاتك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين" هود/١٢-١٨ .

٣- إن سورة يونس تحتوي على جانبٍ من القصص مجمل: إشارة إلى قصة نوح وإشارة إلى الرسل من بعده وشيء من التفصيل في قصة موسى وإشارة مجملة إلى قصة يونس ولكن القصص إنما يجيء في السورة شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها السورة بينما القصص في سورة هود فتشكل جسم السورة وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز، لذلك نجد تركيب السورة يحتوي على ثلاثة قطاعات متميزة:

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل جزءاً محدوداً. والقطاع الثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة. والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود. (١) ٤- ولما كانت سورة يونس تواجه موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله "الر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين" يونس/١-٢(٢)، فسورة هود بيان أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به الرسل من قبله

(١) في ظلال القرآن. م ٤ ج ١٢، ص ١٨٤٤ .

(٢) المرجع السابق ٣، ج ١١، ص ١٧٤٦ وراجع أيضاً قوله تعالى في يونس / ١٥-١٧ وأيضاً في يونس / ٣٧-٢٨ .

حقيقةً واحدةً موحى بها من الله سبحانه وهي تقوم على الدنيوية لله وحده بلا شريك والتلقي في هذه الدنيوية عن رسل الله وحدهم كذلك. والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة.....

ففي مقدمة السورة تجيء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم "الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير" هود/١-٢، "أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله الا هو فهل أنتم مسلمون" هود/١٣-١٤ وكذلك في قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة..(١)

٥- أما مناسبة خاتمة سورة يونس وفاحة هود فقد قال البقاعي: "لما ختمت السورة قبلها بالحث على اتباع الكتاب ولزوجه والصبر على ما يتعقب ذلك من مرائر الضير المؤدية إلى مفاوز الخير اعتماداً على المتصف بالجلال والكبرياء والكمال ابتدئت هذه بوصفه بما يرغب فيه.."(٢)

المطلب الرابع:

المناسبة الموضوعية بين سورة الجاثية والتي بعدها سورة الأحقاف.

١- لقد تطابق مطلع سورة الجاثية بالأحقاف حيث قال في الجاثية "حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم" الجاثية/١-٢، وقال في الأحقاف "حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم" الأحقاف: ١-٢

٢- إن الله تعالى ذكر في سورة الجاثية ما يحصل للكفار من العذاب يوم القيامة لإعراضهم عن القرآن واستكبارهم عن الإيمان "وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين. وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين وبدالهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يُخرجون منها ولا هم يستعتبون" الجاثية/٣١-٣٥. فذكر هنا أن الكتاب الذي

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، م، ٤، ج ١٢، ص ١٨٤٤.

(٢) نظم الدرر. البقاعي. ج ٩، ص ٢٢٤.

أعرضوا عنه تنزيل^١ من الله العزيز الحكيم وذكر أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ليذل على ربوبيته ووحدانيته. وأن لهذا العالم أجلاً ينتهي عنده ويأتي يوم القيامة بما فيه من العذاب الذي أُنذروا به فيما سبق. وهم عما أُنذروا معرضون لا يؤمنون "تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أُنذروا معرضون" الأحقاف/٢-٣. (١)

٣- لما تضمنت سورة الجاثية توبيخ من كذب بالكتاب وقطع تعلقهم، وأنه سبحانه قد نصب دلائل السموات والأرض إلى ما ذكر في صدر السورة من كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة، ومع ذلك فلم يجد ذلك معهم بل تآدوا في ضلالهم وانهماكهم في سوء حالهم وسيء محالهم، أردف بسورة الأحقاف تسجيلاً لسوء فعلهم وإعلاماً لهم بأنهم منقلبهم، فقال تعالى "ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى" الأحقاف:٣، ولو اعتبروا بعظيم ارتباط ذلك الخلق وإحكامه وإتقانه لعلموا أنه لم يوجد عبثاً ولكنهم عموا عن الآيات وتنكبوا عن انتهاج الدلالات "والذين كفروا عما أُنذروا معرضون" الأحقاف/٣، ثم أخذ سبحانه في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا ينفع ولا يضر فقال "قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين" الأحقاف/٤-٦. ثم ذكر عندهم عند سماع الآيات فقال "وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين" الأحقاف/٧. (٢)

٤- وناسبت خاتمة سورة الجاثية لفاتحة الأحقاف حيث ختمت سورة الجاثية بتوبيخ المشركين على الشرك وذكر التوحيد "ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم" الجاثية: ٣٥-٣٧. وفتحت سورة الأحقاف بتوبيخهم على شركهم ومطالبتهم بالدليل عليه وبيان عظمة الإله الخالق المجيب لمن دعاه، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعاتها إلى يوم القيامة (الأحقاف:٢-٥).

(١) جواهر البيان. الفماري. ص/٩٤-٩٥.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن. ابن الزبير، ص١٧٦.

المناسبة الموضوعية بين سورة الواقعة والتي بعدها سورة الحديد

١- لما بينت سورة الواقعة أنواع الخلق يوم القيامة وقسمت أهل الجنة إلى قسمين: السابقين المقربين وأصحاب الميمنة وذكرت في أهل النار نوعاً واحداً هو أصحاب المشأمة المكذبون الضالون. فضمت سورة الحديد إليهم نوعاً آخر كان الناس في الدنيا يحسبونهم مؤمنين لأنهم كانوا يظهرون الإيمان وأعماله وهو في الباطن مكذبون. أولئك هم المنافقون "يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرتكم بالله الغرور فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير "الحديد: ١٢-١٥. (١)

٢- ختمت سورة الواقعة بالأمر بتسبيح الله "فسبح باسم ربك العظيم" الواقعة ٩٦، وفتحت الحديد بالخير عن تسبيح المخلوقات لله تعالى "سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم" الحديد/ ١.

وهذه الآية في سورة الحديد كالعلة للأمر السابق أي سبح ربك لأن المخلوقات سبحته فلا تشذ عنها. (٢)

وقال البقاعي: "لما ختمت الواقعة بالأمر بتزيهه عما أنكره الكفرة من البعث جاءت هذه لتقرير ذلك التزيه وتبينه بالدليل والبرهان والسيف والسنان..." (٣)

(١) جواهر البيان. الغماري ص ١٠٧-١٠٨ .
(٢) روح المعاني. الآلوسي، ج ١٧، ص ١٦٤ .
(٣) نظم الدرر . البقاعي . ج /١٩ ، ص /٢٥١ .

الباب الثاني

الفصل الأول : التناسب البياني
الفصل الثاني : التناسب الدعوي

الفصل الأول التناسب البياني

- المبحث الأول : التناسب البياني بين موضوع السورة وإطارها
المبحث الثاني : التناسب البياني في صياغة مفردات السورة
المبحث الثالث : التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه
المبحث الرابع : التناسب البياني في التفصيل بعد الإجمال
المبحث الخامس : التناسب البياني في التقابل

إن "البيان" الذي نريد تحديده معناه في هذا الفصل ليس بمعنى الفن الذي تمّ تصنيفه على يد علماء البلاغة حتى يكون علماً مستقلاً. لأنّ البلاغيين حينما يتكلمون عن "البيان" فإنهم يحصرون "البيان" كعلم البيان ومن أجل ذلك قد حصروا الحديث عن هذا العلم في أبواب ثلاثة وهي التشبيه والمجاز والكناية. (١)

فالمراد بـ (البيان) هنا أعمّ من ذلك. وهو ما يدخل كل الأساليب العربية وطرائق العرض الفني منها، وهو "البيان" المعروف لدى العرب قبل اصطلاح البلاغيين على دلالاته بدراسة التشبيه والمجاز والكناية.

ويبدو لي، أن المعنى الذي نفهمه هو المعنى الذي أشار إليه الحديث في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه جاء رجلاً من المشرق فخطباً، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحراً". (٢)

والذي يعيننا من هذا الحديث الشريف ورود كلمة "البيان" واستخدامها فيه بمعنى الإبانة باللفظ والتعبير عما في النفس من أفكار وخواطر بأسلوب عربي جميل. وقد يبلغ البيان في روعته وشدّة تأثيره على النفوس واستحواذه على المشاعر ما يبلغه السحر.

وإذا قلنا "البيان القرآني" فالمراد به هنا هو أسلوب القرآن وطرائق العرض الفني فيه. وقد يطلق عليه أحياناً الإعجاز البياني في القرآن.

هكذا هو تصور "البيان" الذي نريده هنا، وقد جاء التناسب البياني في هذا الفصل على هذا التصور. وتشتمل المناسبة البيانية على المباحث التالية:-

- المبحث الأول: التناسب البياني بين موضوع السورة وإطارها.
- المبحث الثاني: التناسب البياني في صياغة مفردات السورة.
- المبحث الثالث: التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه.
- المبحث الرابع: التناسب البياني في التفصيل بعد الإجمال.
- المبحث الخامس: التناسب البياني في التقابل.

(١) انظر على سبيل المثال كتاب "من أساليب البيان في القرآن الكريم" محمد علي أبو حمدة، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط ٢، ص ٤٧-١٦٢، وحيث يأتي يشار إليه: من أساليب البيان، أبو حمدة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب ٧٦، حديث رقم ٥٧٦٧، ج ١٠، ص ٢٣٧.

والسياق ورود الحديث في رواية البيهقي في الدلائل يرشدنا الى ما هو أوضح من رواية البخاري. انظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تخريج وتعليق: الدكتور عبدالمعطي قلقجي، دار الكعب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ط ١، السفر الخامس، ص ٣١٦-٣١٧، وحيث يأتي يشار إليه: الدلائل، البيهقي.

المبحث الأول

التناسب البياني بين موضوع السورة وإطارها

إن القرآن ينسق الإطار مع موضوع السورة. والإطار هو كل ما أحاط بالشيء من الخارج. (١) وفي السورة هو عبارة عن افتتاحية السورة وكأنها تمهيد لموضوعها حيث يبرز منها اتجاهات السورة.

وأبرز ما يكون هذا النوع من التناسب في قصار السور في القرآن الكريم. كيف تناسب موضوع السورة وإطارها؟ وذلك من جهتين:-

١- من جهة جو عرض الموضوع

٢- من جهة لون الصورة أو مشاهدتها في السورة

المطلب الأول: تناسب موضوع السورة وإطارها من جهة جو عرض الموضوع وسأعرض لبيان ذلك من خلال بعض الأمثلة. فمثلاً في سورة الضحى تتناول السورة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وتبين ما أولاه الله من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة.

فموضوع السورة إذاً بيان مكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه من الرحمة والرضا في الدنيا والآخرة.

وتلك مكانة النبي صلى الله عليه وسلم قد عرضتها السورة في جو من الحنان اللطيف والرحمة الوديعية والرضا الشامل والشجا الشفيف "ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى وسوف يعطيك ربك فترضى" الضحى: ٣٠-٥، ثم "ألم يجدك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى" الضحى: ٦-٨ .

فلما أراد إطاراً لهذا الحنان اللطيف، ولهذه الرحمة الوديعية ولهذا الرضى الشامل، ولهذا الشجا الشفيف، جعل الإطار من الضحى الرائق ومن الليل الساجي، أصفى آئين من آونة الليل والنهار. وأشرف آئين تسرى فيهما التأملات. (٢)

(١) معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. ١٢، ص ١١٣ والمعجم الوسيط، الدكتور إبراهيم أنيس ومجموعة، ص ٢٠ .

(٢) التصوير الفني، سيد قطب. ص ١٢٥-١٢٦ .

فالليل هو "الليل إذا سجي" لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه. وإنما الليل الساجي الذي يرق ويصفو وتغشاه سحابة رقيقة من الشجا الشفيف كجؤ اليتيم والعيلة ثم ينكشف ويجلى ويعقبه الضحى الرائق. (١)

وكذلك في سورة العاديات .

فموضوع السورة تعنيف من آثر دنياه على آخرته ولم يستعد لها بفعل الخير. أما إطارها فهو من منظر الخيل العادية الراكضة، تضح بأصواتها اللاهثة، وتورئ الشرر بحوافرها القادحة، حينما تغير صباحا وعلى حين غفلة، فتشير النقع وتعكر الجو. وتتوسط الجمع في اندفاع وقوة. (٢)

لقد عبّرت السورة عن الموضوع من جو الصخب المعفر الذي تُنشئهُ القبور المبعثرة، حيث يكشف ما في الصدور من أسرار وجو جحود هذا الإنسان وشدة أثرته.... (٣) "إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد وإنه لب الخير لشديد" العاديات ٦-٨، ثم "أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير" العاديات ٩-١١ . فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً اختاره من الجو الصاخب المعفر - كذلك - الذي تشبه الخيل العادية في جريها الضاحجة بأصواتها، القادحة بحوافرها، المغيرة فجأة مع الصباح، المثيرة للنقع والغبار، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار.. (٤)

المطلب الثاني:

تناسب موضوع السورة وإطارها من جهة لون الصورة أو مشاهدتها في السورة. وقد يكون للإطار لون أو مشهد واحد وقد يكون له أكثر من لون أو مشهد محدد. ومثال للإطار ذو اللون الواحد كما في سورة اللهب.

فموضوع السورة هو البتُّ والقطع الحتم بخسران الكافر ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين. (٥)

(١) التصوير الفني، سيد قطب. ص ١٢٦ .

(٢) مشاهد القيامة، سيد قطب. ص ٧٢-٧٣ .

(٣) التصوير الفني. سيد قطب ص ١٢٦ .

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب. ٦م ج ٣٠، ص ٣٩٥٧، وانظر أيضاً: التصوير الفني، سيد قطب، ص ١٢٦/ .

(٥) نظم الدرر، البقاعي ج ٢٢، ص ٣٢٧، وانظر أيضاً، مصاعد النظر، البقاعي ج ٣، ص ٢٢٦ .

ولون الصورة تعبيراً عن موضوع السورة واحد. وهو لون النار الملتهبة إذ إن جهنم نار ذات لهب يصلها أبو لهب وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه.. والحطب مما يوقد به اللهب، وهي تحزم الحطب بحبل فعذابها بالنار ذات اللهب بعد أن تغل بحبل من مسد، ليتم الجزاء من جنس العمل. (١)

ولأجل هذا اللون في الصورة جاء الإطار كذلك، وهو لون النار ذات اللهب، وهذا اللون مستفاد من كنية أبي لهب، حيث إننا قد علمنا أنه كان حاد الطبع يتوقد وجهه كشعلة حتى كني بأبي لهب واشتهر بهذه الكنية حتى غلبت على اسمه عبدالعزى. (٢)

ومثالاً للإطار ذو المشهد الواحد كما في سورة القارعة.

فموضوع السورة هو إيضاح يوم الدين بتصوير أحواله وتقسيم الناس فيه إلى ناج وهالك. (٣)

ومشهد الصورة في التعبير عن موضوع السورة واحد، وهو مشهد هول تتناول آثاره الناس والجال، فيبدو الناس في ظله صفاراً ضللاً وعلى كثرتهم فهم "كالفراش المبتوث" مستخفون كحيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة، ولا يعرف له هدفاً! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتبعث به حتى الأنسام! (٤)

وفي الإطار كذلك، لقد بدء بإلقاء الكلمة مفردة وكأنها قذيفة... بلا خير ولا صفة لتلقي بظلمها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب، ثم أعقبها بسؤال فيه تهويل "ما القارعة؟" فهي الأمر الهائل الغامض الذي يثير الدهشة والتساؤل! ثم أجب بسؤال التجهيل "وما أدراك ما القارعة" فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك أو أن يلم بها التصوير! (٥)

وقد يكون للإطار أكثر من لون محدد، وذلك كما في سورة الليل.

سورة الليل تتحدث عن سعي الإنسان وعمله وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم. (٦)

(١) مشاهد القيامة، سيد قطب ص ٦٦،

(٢) تفسير سورة اللهب، الغراهي، ص ١٤ .

(٣) نظم الدرر، البقاعي ج ٢٢، ص ٢٢٠

(٤) مشاهد القيامة، سيد قطب. ص ٧٦

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦م، ج ٣٠، ص ٣٩٦٠-٣٩٦١ .

(٦) إيجاز البيان، الصابوني، ص ٢٩٩ .

ولون الصورة في التعبير عن الموضوع يجمع بين الضدين كالأسود والأبيض. فيها "من أعطى واتقى" و "من بخل واستغنى" وفيها من يسر لليسرى ومن يسر للعرسى. وفيها الأشقى الذي يضل الناز الكبرى، والأتقى الذي سوف يرضى. (١)

ولأجل هذين اللونين في الصورة جاء الإطار مكوناً من لونين ضدين: أبيض وأسود: "والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلّى. وما خلق الذكر والأنثى" الليل: ١-٣، فالليل إذا يغشى يقابله النهار إذا تجلّى، والذكر يقابله الأنثى تقابل في النوع وتقابل في الحلقة. (٢) وقد يكون للإطار أكثر من مشهد محدد. وذلك كما في سورة الفجر.

إذ تتحدث سورة الفجر عن سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة الدنيا بالخير والشر وانقسام الناس يوم القيامة حسب نتيجة الإبتلاء إلى سعداء وأشقياء مع بيان مآل النفس الشريرة والنفس الكريمة الخيرة.

ومشهد الصورة في التعبير عن الموضوع في هذه السورة لها أكثر من مشهد محدد ففيها بعض مشاهد القصف العنيف المخيف "كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول ياليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد" الفجر: ٢١-٢٦. وفيها بعض المشاهد الندية التي تطفح رقة ورضى وطمأنينة "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي" الفجر: ٢٧-٣٠. (٣) وكذلك فيها مشاهد سريعة مخيفة من مصرع الغابرين المتجبرين "ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد" الفجر: ٦-١٤.

وكذلك فيها بيان ألوان تصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمته غير الإيمانية "فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن" الفجر: ١٥-١٦ مع الرد على هذه الألوان من التصورات وبيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات. "كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حباً جمّاً" الفجر: ١٧-٢٠ (٤)

(١) التصوير الفني، سيد قطب، ص ١٢٧.

(٢) البيان في إعجاز القرآن. د. صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، ١٩٨٩م، ص ٢٠٣، وحيث يأتي يشار إليه: البيان في إعجاز القرآن، د. صلاح.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦م، ج ٣٠ ص ٣٩٠٢ (٤) المرجع السابق

وفي الإطار كذلك عدة مشاهد، قال تعالى: "والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر" الفجر: ١-٤. (١)

(١) الفجر هو ساعة تنفس الحياة في يسر وفرح وابتسام وإيناس ودود ندى .

"وليال عشر" وردت فيها روايات شتى... قيل هي العشر من ذي الحجة. وقيل هي العشر من المحرم، وقيل هي العشر من رمضان، وإطلاقها هكذا أوقع وأندى. فهي ليال عشر يعلمها الله ولها عنده شأن. انظر : في ظلال القرآن، سيد قطب، م٦، ج٣٠، ص٣٩٠٢-٣٩٠٣ .

"والشفع والوتر" وردت فيها أقوال كثيرة... والصواب من القول في ذلك أن يقال إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر ولم يخص نوعاً من الشفع ولا من الوتر دون نوع بخير ولا عقل، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل إنه داخل في قسمه هذا لعموم قسمه بذلك.

انظر: جامع البيان، الطبري، م١٥، ج٣٠، ص١٧٢ .

"والليل إذا يسر" أي الليل إذا سار فذهب. انظر جامع البيان، الطبري م١٥ ج٣٠ ص١٧٢ وقد أقسم الله بأحوال الليل في عدة سور، أقسم في سورة المدثر بالليل إذا أدبر وفي سورة التكويد أقسم بالليل إذا عسعس، وأقسم بالليل إذا يسر في هذه السورة.

المبحث الثاني

التناسب البياني في صياغة مفردات السورة

تتماز المناسبة البيانية لمفردات السورة بميزات عدة مجملها في النقاط التالية:

- ١- جمال وقعها في السورة.
- ٢- تناسب دلالتها لما لا تتناسب له عادة دلالات المفردات أو العبارات الأخرى.
- ٣- صياغتها المناسبة لموضوع السورة.

المطلب الأول: جمال وقعها في السورة:

يأتي جمال وقعها في السورة على النحو التالي:

أولاً: جمال وقعها في السورة وتأثيرها على السامعين.

ثانياً: جمال وقعها في السورة حيث لا يصلح تغييرها ولا ترادف بها.

أولاً: جمال وقعها في السورة وتأثيرها على السامعين:

لم تكن المفردات القرآنية في أقصى الجمال لكونها مبعثرة في كل مكان من القرآن دون نظام أو تركيب أو جمل بل جمالها نابع من اجتماعها في السورة ويتجلى في الآيات والتركيبات والجمل، وبناء على هذا المنطلق غرست السورة أهداف القرآن كلها. فهناك من الأخبار ما لا يحصى عن دهشة العرب أمام القرآن، وعجبهم من أسلوبه وأفكاره وبيانه التي تبنى بشكل دائم على مفرداته.

فالقارئ يشعر بهزة في نفسه كلما قرأ قصة إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، ذلك الجبار في الجاهلية وناصر الإسلام في عهد محمد - صلى الله عليه وسلم - وخليفة المسلمين بعد أبي بكر - رضي الله عنه -، حيث تطامن كبرياؤه من اللحظات الأولى التي مرّ بها الفاروق يوم سمع القرآن لأول مرة وفزق قلبه ولم يستطع الوقوف أمام بيان القرآن وروعة كلمات ربه: "طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى، تنزيل ممن خلق الأرض والسماوات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى" طه: ١-٨، وقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فسرعان ما سكن غضبه وهدأت أعصابه وطلب محمداً ليعلن إسلامه. (١)

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق دكتور أحمد أبو ملحم ومجموعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ط ٥، ج ٢م، ص ٧٧-٧٨، وحيث يأتي يشار إليه: البداية والنهاية، ابن كثير، وانظر أيضاً: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، م ٤، ص ٣٧٠، وحيث يأتي يشار إليه: الإصابة، ابن حجر.

وقصة زعماء مكة واستراقهم السمع حين كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يتهجّد في الليل ويرتل القرآن (١)، دليل آخر على ذلك، لو لم تكن كلماته ومفرداته تؤثر عليهم وتدفعهم إلى الذهاب لما ذهبوا بتلك المرات، إلا أنهم لم يؤمنوا تكثيراً وعناداً... ولو لم تكن كلماته ومفرداته تؤثر على غيرهم لما خافوا من استماع غيرهم القرآن، ثم رأوا أن خير طريقة للخلاص من تأثير هذا القرآن هو صرف الناس عنه، كما قال تعالى: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" فصلت: ٢٦ . ثم تلاحظ هذه الآيات "حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون" فصلت: ١-٣ إلى قوله تعالى "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود" فصلت: ١٣، فهذه المفردات القرآنية بتأليفها العجيب ونظمها البديع حينما سمعها عتبة بن ربيعة وكان من أساطين البيان استولت على أحاسيسه ومشاعره، وطارت بلبه، ووقف أمامها في ذهول وحيرة ثم عبر عن حيرته وذهوله وتأثره بها بقوله: "والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة، والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ" (٢).

ثانياً: جمال وقعها في السورة حيث لا يصلح تغييرها ولا ترادف بها.

فإن محاولة تغيير مفردات القرآن قد وقعت في التاريخ.

ونذكر - هنا - مثالا عن محاولة مسيلمة الكذاب في ذلك: روى أن عمرو بن العاص وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورةٌ وجيزةٌ بليغةٌ، فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه "والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" العصر: ١-٣، ففكر مسيلمة ساعةً ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل على مثلها. فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: يا وبرا يا وبرا، إنما أنت إيرادٌ وصدْرٌ وسائرٌ حفرٌ نقرٌ.... (٣) وفي محاولة أخرى أنه قال: والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا والشاردات ثردا واللاقمات لقما إهالةً وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر ريفكم فامنعوه والمعتز فأووه والباغي فناوئوه. (٤)

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، م/٢، ج ٣، ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠-٦٢

(٣) المصدر السابق، م، ج ٢، ص ٢٧٦ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ط ٢، ص ٢٧٦، وحيث يأتي يشار إليه: تاريخ الأمم والملوك، الطبري.

أما نوعُ محاولته فهو يرجعُ إما إلى مقابلة الكلمة بالكلمة، قال الأستاذ الأديب مصطفى صادق الرافعي: "فلن يكون له مذهبٌ إلا مقابلة الكلمة بالكلمة والوزن بالوزن كما قال في معارضته "إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك واخر" الكوثر: ٦-٢، فقد قال: إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر.... إلى آخر ما حكوا من سخافاتِه وحماقاتِه التي التمس منها الحجة له فكانت فيها الحجة عليه..." (١).

أو المحاولة المبنية على استراقه من أسلوب القرآن ونظمه، وذلك مثل قوله: "ألم تر كيف فعل بالحلبى أخرج منها نسمةً تسعى بين شراسيف وحشى" فهو مسروق من قوله تعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل" الفيل: ١، وقوله تعالى: "خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب" الطارق: ٦-٧. (٢)

ورغم ذلك فإن قوله هذا ساقط، لأنه تحدث عن أسلوب الفضل والمنة بما يدل على الانتقام والعقوبة، فإن إخراج الجنين من بطن أمه نعمة من نعم الله والتعبير بهذا القول "ألم تر كيف فعل ربك" إنما يأتي في مواضع الانتقام والعذاب (٣) مثل قوله تعالى "ألم تر كيف فعل ربك بعاد" الفجر: ٦، ومثل قوله تعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل" الفيل: ١.

ثم الجنين لا يخرج من بين الشراسيف والحشى، فهذا القول ليس صحيحاً. (٤) أو المحاولة المبنية على نفس الطريقة التي جاءت في كتاب الله، إلا أنه ساقطٌ لخلل في طريقتِه، وذلك مثل قوله: "الفيل وما أدراك ما الفيل، له مشفر طويل وذنب أئيل وما ذاك من خلق ربنا بقليل" (٥) من مثل قوله تعالى "القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة" القارعة: ١-٣.

وقوله هذا ساقط لأن مثل هذا الأسلوب يأتي في مقام التهويل كقوله تعالى: "الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة" الحاقة ١-٣، أمّا صاحب هذا القول فجاء به حيث لا تهويل. (٦)

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الفكر العربي، ١٩٢٧م، ط ٣، ص ١٩٣، وحيث يأتي يشار إليه: إعجاز القرآن للرافعي.

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي تحليل ومقارنة ونقد، د. فضل حسن عباس، دراسات: مجلة علمية متخصصة ومحكمة تصدر عن الجامعة الأردنية، عمان، المجلد الرابع عشر، العدد العاشر، صفر ١٤٠٨هـ، تشرين أول ١٩٨٧م ص ٢٥٧، وحيث يأتي يشار إليه: بيان إعجاز القرآن للخطابي د. فضل عباس.

(٣) المرجع السابق . (٤) المرجع السابق .

(٥) القول في بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ودكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م، ط ٢، ص ٥٥، وحيث يأتي يشار إليه: القول في بيان إعجاز القرآن، الخطابي .

(٦) بيان إعجاز القرآن للخطابي، د. فضل عباس، ص ٢٥٨ وانظر أيضاً: القول في بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص ٦٦-٦٧ .

وفوق ذلك كله فتمتيز هذه المحاولات بأنها خالية من أية فائدة فلا لفظها صحيح ولا معناها مستقيم. وذلك مثل قوله: "يا ضفدع بنت الضفدعين، نقى لكم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك في الماء وذبك في الطين". (١)

قال الخطابي: "أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم أنه كلام خالي من كل فائدة، لا لفظه صحيح ولا معناه مستقيم، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التي هي أركان البلاغة (٢)، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل ما فيه من السجع والسجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت...." (٣)

وخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر - رضي الله عنه - حين طرقت سمعه: "إن هذا الكلام لم يخرج من أل". (٤)

وقال الجاحظ عند قول مسيلمة في الضفدع: "... ولا أدري ما هيج مسيلمة على ذكرها ولم ساء رأيه فيها حيث جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآنه يا ضفدع نقى كم تنقين..." (٥)

ثم الترادف، فإنه تعدد المفردات للمعنى الواحد، فيوجد مفردان أو أكثر يدل على نفس المعنى.

ومن القديم شغلت هذه القضية علماء العربية واختلفت مذاهبهم فيها، والقول الفصل يجب أن يكون للبيان القرآني، فهو الذي يكشف سر الكلمة حيث يضعها في موضع لا يقوم غيرها مقامها من المفردات المرادفة. (٦)

وليس في القرآن ترادف، لأن كل كلمة فيه تحمل معنى خاصا معينا لا تحمله الكلمة الثانية، وخير دليل على ما نقوله قوله تعالى "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم" الحجرات: ١٤، فالإسلام غير الإيمان، والفرق بينهما

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣م، ج ٦، ص ٣٣١ .

(٢) أي فصاحة لفظ وبلاغة معنى وجودة سبك وحسن نظم، انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي د. فضل عباس ص ٢٥٧

(٣) القول في بيان إعجاز القرآن، الخطابي: ص ٥٥ - ٥٦ .

(٤) ومعنى قوله: "لم يخرج من أل" أي عن ربوبيته، انظر: إعجاز القرآن، الإمام أبو محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ١٧٤، وحيث يأتي يشار إليه: إعجاز القرآن، الباقلاني .

(٥) الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ط ٢، ٥م، ج ٥، ص ٥٣٠، وحيث يأتي يشار إليه: الحيوان، الجاحظ .

(٦) الإعجاز البياني للقرآن ومائل ابن الأزرق، الدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطيء، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ص ٢٠٩، وحيث يأتي يشار إليه: الإعجاز البياني، بنت الشاطيء.

شاسعٌ، وشتانٌ بين التصديق الظاهري في الجوارح وبين الإيمان القلبي، الذي يقرب القول بالفعل. (١)

وفيما يلي بعض المفردات في سور القرآن التي تدل على جمال وقعها فيها ولا ترادف فيها: الرؤيا والحلم:

ذكر الرؤيا والحلم معاً في قوله تعالى "يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين" يوسف: ٤٣-٤٤. فهل يصح مثلاً أن نضع إحدى المفردتين بدلاً من الأخرى، فيقال مثلاً: أفتوني في حلمي إن كنتم للحلم تعبرون؟ وفي البيان ذلك، لا بد من أن نستقريء مواضع ورود المفردتين في القرآن.

ذكرت الدكتورة بنت الشاطيء: استعمل القرآن "الأحلام" ثلاث مرات، يشهد سياقها بأنها الأضغاث المهوشة والهواجس المختلطة، وتأتي في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع دلالة على الخلط والتهويز الذي لا يتميز فيه حلم من آخر: في جدل المشركين "بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون" الأنبياء: ٥. وعلى لسان الملأ من قوم العزيز حين سألهم أن يفتوه في رؤياه: "قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين" يوسف: ٤٤. (٢)

وأما الرؤيا فجاءت في القرآن سبع مرات، كلها في الرؤيا الصادقة، وهو لا يستعملها إلا بصيغة المفرد، دلالة على التميز والوضوح والصفاء. (٣)

من بين المرات السبع جاءت الرؤيا خمس مرات للأنبياء فهي من صدق الإلهام القريب من الوحي: رؤيا إبراهيم عليه السلام في آية الصافات "وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين": ١٠٤-١٠٥.

ورؤيا يوسف إذ قال له أبوه "يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين": يوسف: ٥.

نتابع سياقها في السورة وقد صدقت وتحققت "ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أباي هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً" يوسف: ١٠٠.

ورؤيا المصطفى عليه الصلاة والسلام في الإسراء "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس" الإسراء: ٦٠.

(١) التعبير الفني في القرآن، الدكتور بكرى شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ط١، ص ١٨١،

وحيث يأتي يشار إليه: التعبير الفني، د. بكرى.

(٢) الإعجاز البياني، بنت الشاطيء، ص ٢١٥.

(٣) المرجع السابق.

ورؤياه في الفتح "لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا" ٢٧ . فهذه خمس مرات من استعمال القرآن للرؤيا من الأنبياء، والمرتان الأخريان في رؤيا العزيز وقد صدقت، وفي آيتها عبر عنها القرآن مرتين على لسان الملك بالرؤيا، لوضوحها في منامه وجلائها وصفائها، وإن بدت للملأ من قومه هواجس وأوهام وأضغاث أحلام: "وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، يا أيها الملأ. أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين" يوسف: ٤٣-٤٤. (١)

تمضي القصة في سياقها القرآني فإذا رؤيا الملك صادقة الإلهام، وليست كما بدت للملأ من قومه أضغاث أحلام. (٢)

ومن هنا ظهر عدم صلاحية وضع إحدى المفردتين بدلاً من الأخرى! كما أنها تقرّر بلا ترادف بين الرؤيا والجم في سورة يوسف، فيبقى مبدأ جمال وقعها في السورة حيث لا ترادف فيها!

يشعر ويعلم:

ذكر "يشعر" و "يعلم" معا في قوله تعالى "وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعملون" البقرة: ١١-١٣ . إن القول بوقوع الترادف يعني صحةً تبديل مفردة "لا يشعرون" بـ "لا يعلمون" أو عكسه... فالسؤال: هل يصح هذا القول؟ وهل يصح أن نضع إحدى المفردتين بدلا من الأخرى؟ فيبدو أن الزمخشري (٣) وأبو السعود (٤) وابن عاشور (٥) قد أجابوا على ذلك ورأوا أن الكلمتين لا تدلان على نفس المعنى.

قال أبو السعود: "وتفصيل هذه الآية الكريمة بـ"لا يعلمون" لما أنه أكثر طباقا لذكر السفه الذي هو فن من فنون الجهل ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوطٌ بالتمييز بين الحق والباطل وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بديهياً يقف عليه من له شعور، ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بـ"لا يشعرون" (٦)

(١) الإعجاز البياني، بنت الشاطي، ص ٢١٧ . (٢) المرجع السابق .

(٣) انظر رأي الزمخشري في تفسيره، الكشاف ج/١ ص ٦٤-٦٥ .

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ص ١٦، ص ٥٥ .

(٥) انظر رأي ابن عاشور، التحرير والتنوير، الكتاب الأول، الجزء الأول، ص ٢٨٨-٢٨٩ .

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ص ١٦، ص ٥٥ .

وهذا القول يعني عدم وقوع الترادف بين المفردتين المذكورتين.

ولعل الأستاذ أحمد بدوي قد استفاد من هذا القول إضافة لما توصل إليه بعد إحصائه هاتين المفردتين من الآيات الكريمة... ثم قال: "ومن دقة التمييز بين معاني الكلمات ما تجده من التفرقة في الاستعمال بين "يعلمون" و "يشعرون" ففي الأمور التي يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها تجد كلمة "يعلمون" صاحبة الحق في التعبير عنها، أما الأمور التي يكون للحواس مدخل في شأنها فلكمة "يشعرون" أولى بها. وتأمل لذلك قوله تعالى "ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون" البقرة: ١٣، فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل... وتأمل قوله تعالى "ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون" البقرة: ١٥٤، فمن الممكن أن يرى الأحياء وأن يحس بهم، وقوله تعالى: "واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون" الزمر: ٥٥، فالعذاب مما يشعر به ويحس... (١)

زوج وامرأة:

قد يبدو ترادف هاتين المفردتين، فتقوم إحدى المفردتين مقام الأخرى، ولكن استعمال القرآن لهما معا ينفي ذلك، قال تعالى "يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنین قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمنهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً" الأحزاب: ٥٠ .
فإن مفردة "الزوج" في الآية تختلف عن "امرأة" فمن أجل ذلك لا يصح القول بأن "امرأة آدم" ترادف "زوج آدم" في قوله "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة" البقرة: ٣٥، و "زوج العزيز" ترادف "امرأة العزيز" في قوله "وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه..." يوسف: ٣٠، لأن هذا سيفسد بيان القرآن. (٢)

(١) من بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص ٥٩ .

(٢) وقد حاولت الدكتورة بنت الشاطيء التفریق بين هاتين المفردتين ورأت أن كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجة هي مناط الموقف حكمة وآية أو تشريعاً وحكماً، فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين في العقيدة فهي امرأة لا زوج. انظر كتاب: الإعجاز البياني، بنت الشاطيء ص ٢٣٠، فيبدو أن ما جاء في الآيات القرآنية لا يشمل هذا الرأي، إن جاز في امرأة نوح وامرأة لوط، فإنه لا يجوز في امرأة إبراهيم وامرأته قائمة فضحكت... هود: ٧١، وفي امرأة زكريا "وكانت امرأتی عاقراً..." مريم: ٨، انظر: المفردات القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز، الدكتور فضل حسن عباس، بحث مخطوط. ص ٢٨، وحيث يأتي يشار إليه: المفردات القرآنية. د. فضل عباس.

ولقد استنتج الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس بعد الوقوف مع الآيات الكريمة وتدبرها فرق بين هاتين المفردتين وقال: "أولا إن امرأة تطلق على الأنثى من الناس حتى ولو لم تكن ذات بعل، فكأنما هي تأنيث مرء قال تعالى في سورة القصص "ووجد من دونهم امرأتين تذودان" القصص: ٢٣، وهما بنتا الشيخ الكبير، كانتا غير متزوجتين، وقال في سورة الأحزاب "وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي" الأحزاب: ٥٠، أمّا زوج فلا تكون إلا حينما تكون الزوجية قائمة، فكل زوج امرأة وليس كل امرأة زوجا". (١)

"ثانيا: تطلق كلمة زوج حينما يناط أمر بين الزوجين، أي حينما تكون قضية مشتركة بينهما، "اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا...." البقرة: ٣٥ "يا أيها النبي قل لأزواجك" الأحزاب: ٥٩ "وأصلحنا له زوجه" الأنبياء: ٩٠ "وإن فاتكم شيء من أزواجكم" الممتحنة: ١١، فنرى في هذه الآيات الكريمة أن هناك قضايا مشتركة بين الزوجين، سواء كانت هذه القضية تبليغا أم إنجابا أم أمرا آخر". (٢)

المطلب الثاني:

تناسب دلالة الكلمة لما لا تتناسب له عادة دلالات المفردات أو العبارات الأخرى مثال ذلك مفردتا "اثاقلتم" و "ثاقلتم"

قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض" التوبة: ٣٨ .

دلالة مفردة "اثاقلتم" أشد اتساعا من "ثاقلتم" إذ يتصور من المفردة الأولى ذلك الجسم المثاقل يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل، وأن في هذه المفردة "طنا" على الأقل من الأثقال! (٣)

ولو أنك قلت "ثاقلتم" (٤) لحفّ الجرس، ولضاع الأثر المنشود ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها. (٥) وأيضا مفردة "أكل" و "أفترس".

قال تعالى: "فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين" يوسف: ١٧ . فدلالة مفردة "أكل" في الآية أشد اتساعا من مفردة "أفترس" رغم أنها خاصة بالسباع والأكل عام لا يختص به حيوان دون حيوان.

فإذا قال تعالى "أفترسه الذئب" فيكون المعنى القتل فحسب لأن الافتراس كما ذكر الخطابي أصله دق العنق، ومعناه القتل فحسب، أمّا الأكل فهو الإتيان على جميع أجزاء

(١) المفردات القرآنية، د. فضل عباس ص ٢٧-٢٨ . (٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) التصوير الفني (بتصرف) سيد قطب، ص ٩١ .

(٤) وهذه قراءة المطوعي، وهي شاذة، انظر: القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب ملحق مع كتاب: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبدالفتاح القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ط١، ص ٥١، وحيث يأتي يشار إليه: القراءات الشاذة، عبدالفتاح.

(٥) التصوير الفني، سيد قطب، ص ٩١-٩٢ .

الفريسة وأعضائها، ولو أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: "أفترسه الذئب" لطالبهم ببقية أجزائه. (١)

وأيضاً مفردات "فعل" و "أدى" و "أعطى".

قال تعالى: "والذين هم للزكاة فاعلون" المؤمنون: ٤.

ففي أول وهلة يخطر ببال المعترض أن هذا الكلام لا معنى له، لأنه لا يقال: فعل فلان الزكاة وإنما يقال: أدى فلان الزكاة وزكى الرجل ماله. (٢) ولكن بالتأمل نجد مناسبة دلالة مفردة "فعل" مما لاتناسبه له عادة دلالة مفردتي "أدى" و "أعطى". فإن مفردة الأداء والإعطاء وما يشبهها لا تسد مسد المفردة القرآنية، لأن هذه المفردات لا تزيد على أنهم يعطون الزكاة، وقد يكون هذا الإعطاء مصحوباً بالكراهية والضيق. ولكن مفردة "الفعل" تدل على غير هذا، فهي تدل على أن إعطاء الزكاة أصبح سجية فيهم وطبيعة لهم. (٣) وعلى هذا فالمقصود من الآية الكريمة المبالغة في أداء الزكاة والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم، فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم مضافاً إليهم يعرفون به. فهم له فاعلون. وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة، فهي إذاً أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى. (٤)

وأيضاً مفردات "امشوا" و "امضوا" و "انطلقوا".

قال تعالى: "وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد" ص: ٦.

فإن دلالة مفردة "امشوا" أكثر مناسبة من مفردتي "امضوا" و "انطلقوا". وذلك لأن المشي إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة من غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول، وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله "واصبروا على آلهتكم" ص: ٦، والمعنى كأنهم قالوا: امشوا على هينتكم وإلى مهوى أموركم ولا تعرجوا على قوله ولا تبالوا به. (٥)

وإضافة إلى ذلك إن مفردة "امشوا" لا يقصد بها المشي المعروف، وإنما المراد منه الاجتماع والاستعداد كأنهم قالوا: لا تعبأوا بقوله ولا يشغلكم عن أعمالكم وتنمية أموالكم، أي أعدوا أنفسكم واجتمعوا على نصره دينكم. (٦)

(١) القول في بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص ٤٦، ومن أراد الإطالة فليرجع إليه من: ص ٤٦-٤٢ وانظر أيضاً: بيان إعجاز القرآن للخطابي، د. فضل عباس، ص ٢٤٨.

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي، د. فضل عباس ص ٢٤٨.

(٣) المرجع السابق. (٤) القول في إعجاز القرآن، الخطابي، ص ٤٥. (٥) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٦) بيان إعجاز القرآن للخطابي، د. فضل عباس، ص ٢٥١.

المطلب الثالث:

صياغة مفردات السورة بما يناسب موضوع السورة

ومثال ذلك سورة الناس .

لقد كان موضوع هذه السورة التعوذ بالله عز وجل من وسوسة الشيطان، ونظراً إلى أن الوسوسة هي موضوعها فقد وجدنا مفردات السورة لا تخلو من تكرار حرف السين في كل آية من آياتها، وتوالي ذلك في كلماتها حتى صرنا نسمع عند تلاوتها نغماً يترجم لنا الوسوسة. وها نحن نحس عند سماع هذه المفردات: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، شر الوسواس الخناس، يوسوس، صدور الناس، الجنة والناس. بمعنى الوسوسة، حتى ولو لم نكن نعرف موضوعها... فيتألف المعنى والنغم في كتاب الله عز وجل ويتعاضدان. (١) وأيضاً سورة محمد، فقد ذكرنا في الفصل السابق أن موضوع السورة هو القتال. (٢) وأنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها.

- (٣) لذلك نجد مفردات السورة تتميز من عدة نواح تتناسب مع موضوع القتال:
- ١- جرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه قذائف ثقيلة "أعمالهم" "بالهم" "أمثالهم" "أهواءهم" "أمعاءهم".
 - ٢- جرس الفاصلة وإيقاعها حين تحف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء "أوزارها" "أمثالها" "أفعالها".
 - ٣- الشدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها، فالقتال أو القتل يقول عنه "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب" محمد: ٤. والتقتيل والأسر يصوره بشدة "حتى إذا أختتموهم فشدوا الوثاق" محمد: ٤، والدعاء على الكافرين. يجيء في لفظ قاس "فتسألهم وأضل أعمالهم" محمد: ٨. وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلاً ولفظاً. "دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها" محمد: ١٠، وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد "وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم" محمد: ١٥، وحالة الجن والفرع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف "ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت" محمد: ٢٠.

(١) الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي، دار الرشيد، دمشق، ١٥م، ج ٣٠، ص ٤٣٠، وحيث يأتي يشار إليه: الجدول، محمود صافي.

(٢) انظر الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، م ٦، ج ٢٦، ص ٣٢٨٠.

حتى تحذير المؤمنين من التوليّ يجيء في تهديد نهائي حاسم " وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم " محمد: ٣٨ .

وأيضاً في سورة القلم، فموضوع هذه السورة تصوير المجابهة الحادة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين قريش في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم.

لما كان موضوع السورة تصوير المجابهة الحادة، كانت مفرداتها مناسبة لموضوعها. ولما اختارت قريش المجابهة الحادة اختار القرآن مفرداته - في هذه السورة - بأقصى حدة تفيده السخرية منهم وإهانتهم . وهذا الاختيار يفتح عين القارىء على طبيعة المجابهة، ولو اختار القرآن مفرداته لينة سلسة فإنها ستفسد جو المجابهة كلها.

ومن بين المفردات المقصودة التي تتجمع في قوله تعالى " ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. سنسمه على الخرطوم " القلم: ١٠-١٦ .

فالموصوف في هذه المجموعة موصوف بخصال جامعة للذم والفضيحة وهي الحلف بالكذب الذي يورث الضعة والمهانة والوقعة بين الناس بما ليس فيهم... وهو يورث العداوة والنميمة وهي نقل الكلام لجلب الضغينة والبخل الذي لا يدع خيره ينفع غيره، والاعتداء وهو تجاوز الحق في المعاملة، وجفاء الطبع والخليقة وغلظهما، والدعوة التي تلصقه بقبيلة ليس منها فيكون كالزئمة المتدلية من حلق الجدّي... (١)

فلم تبق صفة سوء ظاهرة وباطنة إلا رمته بها، وكشفتها للناس. وحين تم لها ما أرادت، انتهت بالسخرية المريرة منه على طريقة العرب، وهي الكي بالأنف، ولم يكن أنفه أنفاً وإنما كان خرطوماً، زيادةً في الإهانة. (٢)

وطالت المجابهة الحادة إلى صياغة مفردات السورة أيضاً بشكل حاد، لذلك نجد كثرة تنكير مفردات السورة، والنكرة تفيده التعظيم والتفخيم وهي حادة في مستوى الخير. ومن قبيل هذا النوع هو "الأجرا" "خلق".

كما أنها تفيده التحقير والتقليل وهي حادة في غاية السوء. ومن هذا القبيل "حلاف" "مهين" "هماز" "مشاء" "نميم" "مناع" "معتد" "أثيم" "عتل" "زنيم" "طائف" "ذلة" "مغرم" "مثقلون".

ثم من ناحية التصوير، فإن مفردة "عتل" وحدها تكفي لترسم جو المجابهة ولتلقني ضوءاً حيث كانت المجابهة حاسمة وشديدة. وذلك لأن لفظة "عتل" تدل على الشدة والقوة في الشيء. (٣)

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، المنسوب للخطيب الإسكافي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ط١، ص ٤٩٣-٤٩٤، وحيث يأتي يشار إليه : درة التنزيل، الإسكافي.

(٢) التعبير الفني، الدكتور بكسري، ص/ ٢٦٥ . (٣) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس. م/ ٤، ص/ ٢٢٤ .

وهي لفظٌ تعبرُ بجرسها وظلها عن مجموعة من الصور ومجموعة من السمات التي تبلغها مجموعة الألفاظ الأخرى. فالقارىء - على الأقل - يتصور الصورتين اللتين تتكشfan في هذه اللفظة.

الصورة الأولى: ذلك "العتل" رجلٌ قصير القامة، واسع الشدقين، ضخّم الوجه، منتفخ البطن، يأكل فلا يشبع ويتحرك فلا ينشط، مكروه في كل مكان لنهمه وقبحه وسوء خلقه... هذا العتل كذاب، مدع، أثيم، حلاف. نمام، ساع في الشرور يمثل الرذيلة في كل جوانبها... (١)

ثم هذا العتل ليس مجرد العتل وإنما العتل الزنيم، وهو الجبار الفظ الغليظ الذي قد صار من شدة تجرّه وغلظه معروفاً بالشر، مشهوراً به، له زنة كزفة الشاة. (٢)

وأن لفظه "عتل" بثقلها صورت ذلك الثقيل السمخ، وأوحت أحرفها بصورته قبل أن توحى الكلمة بالمعنى، وقبل أن تكون هذه الشرات المتوالية تردفها "همّاز، مشاء، متاع" وقبل أن تكون صيغة المبالغة فيها. (٣)

والصورة الثانية: صورة ساخرة، وذلك أن لهذا العتل أنفاً، ولكن ليس كالأنوف... ولم يعد أنفه من ضخامته أنفاً، وإنما هو خرطوم طويل، يجرّه أمامه، ويضعه بين يديه أو في جنبه حين يجلس... وفجأة حدث حادث لهذا السيد الذي هو الأنف، لقد انصبت عليه حديدة حمرة من شدة حرارتها، وطبعت عليه بصمة، وتركت عليه علامة لئلا يضيع ويجهل... (٤)

وهكذا نلاحظ أن مفردة "عتل" قد صورت أبلغ تصوير للشخصية الكريهة من جميع الوجوه. ولم تأت هذه اللفظة الثقيلة إلا في هذه السورة التي نزلت - فيما يبدو - بمناسبة المجابهة لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) التعبير الفني، د. بكرى، ص ٢٦٩ .

(٢) التفسير الكبير، الإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية، تحقيق: الدكتور عبدالرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ط ١، ص ٦٨، ٨٨، وحيث يأتي يشار إليه: التفسير الكبير، ابن تيمية.

(٣) التعبير الفني، د. بكرى، ص ٢٦٩/

(٤) المرجع السابق .

المبحث الثالث

التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه

القسم بشكل عام إما ظاهر وإما مضمّر. فالظاهر هو ما صرح فيه بفعل القسم، مثل قوله: "لا أقسم بهذا البلد" البلد: ١، أو بحذفه اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء كقوله تعالى: "قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاظئين" يوسف: ٩١، والمضمّر هو ما لم يصرّح فيه بفعل القسم وإنما يدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم "لتبلون في أموالكم وأنفسكم" آل عمران: ١٨٦، أي والله لتبلون. (١)

أما الذين يتتبعون أسلوبه في القرآن فيتبين أنواعه من ناحية استصحاب المقسم به في الجملة وعدمه الى نوعين:-

١- نوع لا يصاحب القسم المقسم به في جملة القسم.

٢- نوع يصاحب القسم المقسم به في جملة القسم.

النوع الأول يتمثل في كلمات تدل على القسم (٢). ومن هذه الكلمات القسم كقوله تعالى: "أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة" الأعراف: ٤٩، والحنف كقوله تعالى: "يخلفون لكم لترضوا عنهم" التوبة: ٩٦، والإيلاء كقوله تعالى "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله... النور: ٢٢، واليمين كقوله تعالى "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم..." البقرة: ٢٢٥.

فنظراً لكون بحثنا هو التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه، ولخلو هذا النوع من المقسم به، فإنه لا يندرج تحت حديثنا وخارج عن موضوعنا فلم نتوسع به. (٣)

والثاني نوع يصاحب القسم المقسم به في جملة القسم. وهو إما أن يكون على وجه الإكرام للمقسم به مثال ذلك قوله تعالى: "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" الحجر/ ٧٢، لقد أكرم الله نبيه بهذا الخطاب. (٤)

(١) مباحث في علوم القرآن. مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ط ١٨، ص ٢٩٣، وحيث يأتي يشار إليه: مباحث في علوم القرآن، القطان.

(٢) من أساليب القرآن، الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط ١، ص ٤٦-٤٨، وحيث يأتي يشار إليه: من أساليب القرآن، السامرائي.

(٣) ومن اراد التوسع في ذلك فليرجع على سبيل المثال كتاب، إمعان في أقسام القرآن للمعلم عبدالحميد الفراهي رحمه الله، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ص ١٤-٢١، وحيث يأتي يشار إليه: إمعان في أقسام القرآن، الفراهي.

(٤) إمعان في أقسام القرآن، الفراهي. ص ٢٥.

وإما أن يكون على وجه التقديس للمقسم به. (١) وهو لا يكون إلا إذا كان بالله سبحانه وتعالى كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: "وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين" الأنبياء: ٥٧، وكقوله تعالى: "ويستنبؤنك أحق هو؟ قل: إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين" يونس: ٥٣ .

وإما أن يكون على وجه الاستدلال بالمقسم به. (٢) وذلك مثل قوله تعالى: "والذاريات ذروا، فالحاملات وقرأ فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا، إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع" الذاريات: ١-٦، وقد أقسم بهذه الذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات استدلالا على صدق البعث ووقوع الثواب والعقاب.

وسيكون هذا القسم -على وجه الاستدلال بالمقسم به- موضوعَ دراستنا في هذا البحث، حيث إن التناسب البياني بينه وبين المقسم عليه أكثر ظهوراً فيه. ففي غالب الأحيان نجد هذا النوع في بداية السورة. ولعل قليلاً منه في وسط السورة. (٣)

(١) إيمان في أقسام القرآن، الفراهي. ص ٢٦ . (٢) المرجع السابق. ص ٣٢/٣٦ .

(٣) قبل قليل ذكرنا المثال للقسم في بداية السورة أما في وسط السورة فمثل قوله تعالى "والسماء ذات الرجح. والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل. وما هو بالهزل" الطارق: ١١-١٤ وكقوله تعالى "فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم" التكوير: ١٥-١٩ . ثم وقع النقاش بوقوع "لا" قبل القسم، مثال ذلك في سورة التكوير. فقال قوم: إنها زائدة. ورد الدكتور فضل عباس القول بذلك لمجيئها في الصدارة فينافي زيادتها. انظر لطائف المتان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن. الدكتور فضل حسن عباس، دار النور، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ط ١، ص ٢٤٣، وحيث يأتي يشار إليه: لطائف المتان، د. فضل عباس.

كما قد ردّ الزحشري القول بزيادة "لا" ولم يترض ما أجاب به القائلون بالزيادة لأنه جواب غير سديد (انظر الكشاف الزحشري ج ٤ ص ٦٥٨). أما القول بأنها نافية متصلة فهو سقيم لضعف معناه ولتصريح القرآن بخلافه حيث جاء "فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم" الواقعة: ٧٥-٧٦ . فيبدو أن رأي المعلم عبدالحميد الفراهي رأي سديد. إذ رأى أنها-(لا)-نافية منفصلة ويكون المعنى أي باطل ما يحسب الإنسان. وانفصال "لا" قبل القسم كأنفصال "كلا" قبله كما في قوله تعالى: "كلا والقمر" المدثر: ٣٢، وتكرارها كتكرارها كما قال: "كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون" التكاثر: ٣-٤ .

وهذا الأسلوب شائع في كلامهم إذا أرادوا شدة الإنكار لظن سابق. لأن في تقديم "لا" دلالة على أن الكلام جواب ورد لما قيل من قبل. وعلى أن الإنكار به لا يحتمل مكثا. فإن القسم عادته الابتداء وإنما قدمت عليه كلمة الإنكار لشدة الاعتناء به. والقسم على الأكثر تأكيد الإثبات. فإذا كان الإنكار فينبغي أن يصدر الكلام بالنفي ولذلك قالوا: "لا والله" وإن قيل "والله لا" كان ضعيفاً فعلى هذا جاء قوله تعالى "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً" النساء: ٦٥ انظر : تفسير سورة القيامة، الفراهي ص ٩ .

ثم المقسم عليه إما أن يحذف وإما أن يذكر، فكونه يذكر هو من موضوع دراستنا. أما الحذف (١) فإنه يكتفي بالمقسم به ثم يبادر بكلام آخر مؤيداً لما حذف. وذلك كقوله تعالى: "ق. والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب" ق:١-٢ .

أي قد شهد القرآن أنه نذير مبين من الله تعالى بالبعث، ولكنهم ينكرونه لما يعجبون أن يأتي به منذر منهم. (٢)

المطلب الأول:

وجوه التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه

١- لما كان القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به. فالتناسب البياني بينهما أيضاً يأتي من ناحية الدلالة، حيث استدلل بالمقسم به لدلالته على المقسم عليه. مثلاً: لقد أقسم الله بالنجم إذا هوى للدلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وليبان أنه على هدى. ٢- المقسم عليه في الجملة عبارة عن الدعوى في الكلام. بينما المقسم به تعبير للدعوى بلغة إشارية، فالدعوى إذا كانت بطريق الإشارة يتلقاها المخاطب بالقبول مثلما نراه في التشبيه والكناية.

٣- أن يكون المقسم به بمثابة المقدمة ومهمته توثيق الصدق قبل ذكر الدعوى، وأنه يقرع أذني المخاطب فيصغي ويترقب لما بعده، ثم يجيء الدعوى فيسهل قياده لها. (٣) كما أن يكون المقسم به كالتمهيد والتنبيه، فيسترعي سمع المخاطب فيرهب أذنيه ليستمع لما بعد المقسم به. (٤)

٤- إن أسلوب القسم يمتاز بإيجازه، ومن فوائده أنه يمكنك أن تجمع دلائل عديدة - من المقسم به - يقترب بعضها من بعض، فإذا دل على أمر واحد من جهات مختلفة كان أشد أثراً وأحكاماً، وذلك كما ترى في أقسام سور الطور "والطور وكتاب مسطور، في رق منشور، والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور" الطور:١-٦، والبلد "لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد" البلد:١-٣، والتين "التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين" التين:١-٣. (٥)

(١) كونه يحذف خارج من مبحثنا

(٢) إمعان في أقسام القرآن، الفراهي، ص ٥٠ .

(٣) أساليب القسم في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، الدكتور أحمد الحوفي، مجلة كلية الشريعة، مطبعة الحكومة، بغداد، العدد الرابع، ١٣٨٧هـ-١٣٨٨هـ / ١٩٦٧م-١٩٦٨م، ص ٥٥ .

(٤) إمعان في أقسام القرآن، الفراهي، ص ٤٤ . (٥) المرجع السابق ص ٥٠-٥١ .

٥- إن القسم لا يُستعمل إلا لتأييد القول . ولا استعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده، فالنفس الصافية التي لم تتدنس بالرجس تستجيب للهدى بسهولة، أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر وصيغ التأكيد حتى يتزعزع نكيرها (١). والقسم من أساليب التأكيد، فاستشهدوا بالمقسم به لكونه مؤكداً للمقسم عليه. (٢)

وثمرته هي لفت الانتباه وتمكين الأثر في النفس، ألا تلاحظ طرفة أوردتها الزركشي في كتابه عن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: "وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق" الذاريات: ٢٢-٢٣، صاح وقال: من الذي أغضب الجليل حتى أُلجأ إلى اليمين؟ قالها ثلاثاً! (٣)

المطلب الثاني:

التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه في بداية السورة:
ومثال ذلك في سورة الذاريات:

قال تعالى: "والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع" الذاريات: ١-٦ .

فسورة الذاريات سورة مكية تعالج قضية كبرى من القضايا التي كانت موضع إنكار لدى العرب المشركين، وهي قضية الحياة بعد الموت وما يترتب عليها من حساب وجزاء. وتستهل السورة بالقسم لتؤكد صدق ما جاء به القرآن من الوعد والوعيد ووقوع ما أخبر به من أمر الدينونة والجزاء يوم القيامة. (٤)

والمقسم به في الآيات هو "الذاريات ذروا" و "الحاملات وقرا" و "الجاريات يسرا" و "المقسمات أمرا".

ولا خلاف بين المفسرين على أن "الذاريات" هي الرياح التي تذرّو ما تصادفه في طريقها من مطر أو تراب أو هشم. كما قال تعالى: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا" الكهف: ٤٥. (٥) ولكنهم اختلفوا في تحديد معنى الحاملات والجاريات والمقسمات هل هي الرياح أو غيرها؟.

(١) ولعل هذا أيضاً من سبب كثرة القسم في السورة المكية.

(٢) مباحث في علوم القرآن، القطان ص ٢٩٠ . (٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، م ٣، ج ٣، ص ١٤ .

(٤) تفسير سورة الذاريات د. أحمد حسن فرحات، بحث مخطوط ص ١، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير سورة الذاريات، د. أحمد فرحات.

(٥) المرجع السابق.

فالذين قالوا هي غير الرياح قالوا: يمكن أن يكون المراد بـ "الحاملات" السحب، ويمكن أن يكون المراد بـ "الجاريات" السفن، ويمكن أن يكون المراد بـ "المقسمات" الملائكة (١) وربما قالوا غير ذلك. (٢)

والذي نختاره من هذه الثلاث أن المراد بها الرياح وذلك بقريضة العطف بالفاء كما في سورة العاديات وأمثالها كما هو أسلوب القرآن فإذا غير بين المعطوفات جاء بالواو كما في سورة الفجر والنازعات وأمثالهما. وبناء على هذا يكون معنى هذه الثلاث كما يلي: "فالحاملات وقرأ" أي الرياح التي تحمل السحب. ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى "وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت" الأعراف: ٥٧، فالآية صريحة في أن الرياح تثل السحاب الثقال أي تحمله. (٣) "فالجاريات يسرا" هي الرياح التي تجري جرياً سهلاً ليناً غير عاصف، وقد يكون ذلك لأنها تحمل السحاب الثقال حيث يناسبه الجرى السهل اللين، وقد وصف الرياح بمثل ذلك في قوله تعالى في صفة الريح المسخرة لسليمان عليه السلام "فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب" ص: ٣٦، كما وصفت بضع ذلك في قوله تعالى "ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها" الأنبياء: ٨١. (٤)

"فالمقسمات أمراً" هي الرياح التي تحمل السحاب وتسوقه ثم تفرقه وتجعله كسفاً، فإذا نزل منه الماء كان حياة ورخاء لبعض الناس. وكان دماراً وإغراقاً للآخرين. ويشهد لذلك قوله تعالى "الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون" الروم: ٤٨، وقوله تعالى: "هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال" الرعد: ١٢-١٣. (٥)

(١) انظر معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط ٣، ج ٣، ص ٨٢، وحيث يأتي يشار إليه: معاني القرآن، الفراء، وانظر أيضاً: زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ط ٤، ج ٨، ص ٢٧-٢٨، وحيث يأتي يشار إليه: زاد المسير، ابن الجوزي، وأيضاً: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١٧، ص ٢٩-٣١، وأيضاً: حاسن التأويل، القاسمي، ج ١٥، ص ١٨٨-١٩٠.

(٢) مثلاً، ابن القيم قال في التبيان في أقسام القرآن "الجاريات" النجوم التي من فوق الغمام، انظر التبيان في أقسام القرآن، العلامة شمس الدين أبو عبدالله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ط ١، ص ٣٥١-٣٥٢، وحيث يأتي يشار إليه: التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم.

(٣) تفسير سورة الذاريات د. أحمد فرحات، ص ١/١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

كيف يتعلق المقسم به بالمقسم عليه؟ (١)

يبين الله تعالى في هذه المجموعة المقسم به وأن أمر البعث أو الدينونة والجزاء الذي كان مجال فيه المشركون ويستبعدون وقوعه أمر لا غرابة في وقوعه. وأن ما وعدهم الله به من النعيم أو العذاب أمر محقق.

ويكفيهم دليلاً على ذلك حركة الرياح الذاريات الشديدة التي تحمل التراب والهشم فتذروه شرقاً وغرباً وفي كل مكان. ثم لا تلبث أن تحمل السحب الثقيل المليئة بالماء فتجري بها جرياً سهلاً مشرقة ومغربة، مقسمة ما تحملها بين عباد الله، فتكون حياة وغماء لبعضهم وتكون هلاكاً وعذاباً لآخرين. (٢).

إن إحياء الأرض بعد موتها بزول المطر عليها أمر مشاهد لا يشك فيه أحد. وهو دائم التكرار، ومن ثم يلفت الله انتباه الناس إلى هذه الظاهرة التي قد يغفلون عنها لطول الإلفة وكثرة الوقوع، فينبههم إلى دلالتها على البعث بمثل هذه الآيات "وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون" الأعراف: ٥٧، وقوله "والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور" فاطر: ٩. (٣)

ويجمع الله في آيات أخرى بين الدلالة على البعث والدلالة على الجزاء كما في قوله تعالى: "الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير، ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرة لظلوا من بعده يكفرون" الروم: ٤٨-٥١، وكما في قوله تعالى: "ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ويتزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب الأبصار". النور: ٤٣.

هكذا يظهر للناس أن ما أخبرهم الله به من الوعد والوعيد حق لا ريب فيه "إن ما توعدون لصادق" وأن الدينونة والجزاء واقعان لا محالة "وإن الدين لواقع" فلا مجال للمكابرة والإنكار، بعد أن أسفر الصبح وأضاء النهار. (٤)

(١) الإمام الفخر الرازي ذكر ٣ أوجه في ذلك. ومن أراد الإطالة نحيله عليه وأنا لا أقتطف تلك الأوجه إذ رأيت - فيما يبدو لي - أن فيها شيئاً من التكلف. انظر التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي ج/ ٢٨، ص/ ١٩٣-١٩٤.

(٢) تفسير سورة الذاريات، د. أحمد فرحات ص ١٢.

(٣) المرجع السابق. (٤) المرجع السابق.

مثال ذلك في سورة النجم.

قال تعالى: "والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى" النجم: ١- ٥ .
فالمقسم به في الآيات هو "النجم إذا هوى" فيبدو أنها إشارة إلى الشعرى التي كان بعضهم يعبدها والتي ورد ذكرها في السورة فيما بعد في قوله "وأنه هو رب الشعرى" النجم: ٤٩ .

ولقد أقسم الله تعالى بالنجم إذا هوى على بطلان مزاعم المشركين في شأن الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فتنفى عنه الغواية والضلال كما تنفى عنه أن يكون نطقه بالقرآن بناء على رغبته وهوى نفسه كما يدعي ذلك المشركون الجاهليون... وتؤكد في نفس الوقت أن هذا القرآن ليس إلا وحياً أوحاه الله إليه عن طريق جبريل عليه السلام وليس جبريل شخصية خيالية لا وجود لها. وإنما هو ملك كريم كثير القوى عظيم القدرة. (١)
كيف تناسب المقسم به مع المقسم عليه؟
يتناسب كلاهما عدة وجوه:

١- إن القسم القرآني بالثريا إذا سقطت نحو الغروب وبدت للرأي قريبة متدللة يقرب لنا فهم ما أقسم الله عليه من رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل وهو بالأفق الأعلى ثم ذنوة وتدلته إليه حقاً كان منه في غاية القرب. وكما أنه لا يمكن لذي البصر أن يشك في رؤية الثريا - ذلك النجم الزاهر اللامع وهو يتدلى شيئاً فشيئاً نحو مسقطه في الغروب - كذلك لا يمكن لذي البصيرة أن يشك فيما رآه محمد صلى الله عليه وسلم من نزول جبريل وهو يتدلى إليه ويقرب منه. (٢)

٢- وكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر كقوله تعالى: "وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر... الأنعام: ٩٧" وكقوله "وعلامات وبالنجم هو يهتدون" النحل: ١٦ وكذلك جعل الله محمداً على هدى وما عدل عن الطريق المستقيم لكي يهتدوا به، والقرآن الذي معه ليكون هداية عن الضلال والغواية... وما القرآن إلا وحي يوحىه الله إليه وعلمه ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام.

(١) تفسير سورة النجم، د. أحمد حسن فرحات، بحث مخطوط، ص ١٥٤، وحيث يأتي يشار إليه: تفسير سورة النجم د. أحمد فرحات..

(٢) المرجع السابق ص ٤ .

٣- ومن المعلوم لمن رأى النجم فأتاه منه نور، وكذلك لمن رأى روح الأمين جبريل عليه السلام لا بد أن يستضيء بنوره وما جاء به من الوحي. والوحي الذي جاء به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم عبارة عن النور.

٤- وكما أن النجم الكبير الزاهر اللامع يدل بسقوطه وغروبه على أنه مخلوق من مخلوقات الله ، لا يجوز لأحد أن يعبده. فكذلك الملك جبريل وأمثاله من الملائكة مخلوق من مخلوقات الله تتزل بأمره وتعرج بأمره فلا يجوز أن تكون في مرتبة الآلهة كما كان يعتقد المشركون الجاهليون حيث كانوا يعبدونها ويتقربون إليها بالذبائح والقرابين بحجة أنها تشفع لهم عندالله. (١)

٥- لما أقسم الله بالنجم إذا هوى فإنه أراد أن يبين أن النجم مهما يكن عظيماً هائلاً فإنه يهوي ويتغير مقامه، لذلك لا يليق أن يكون معبوداً. فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام. والشعري لا يستلزم ذلك، إذاً فالصحيح أن المعبود هو رب الشعري "وأنه هو رب الشعري" النجم: ٤٩ وهو الذي دعا إليه صاحبكم كما تظنون "ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى". النجم: ٢-٤ ومثاله في سورة القلم.

قال تعالى: "ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون" القلم: ١-٢ . (٢)

(١) تفسير سورة النجم د. أحمد فرحات ص/٤

إن الظنون والأوهام نجدها في معتقدات المشركين الجاهلين. كما نجد الغواية والضلال في سلوكهم وتصرفاتهم...فهاهم يعتقدون أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله...وهم يصنعون للملائكة رموزاً من التماثيل الحجرية يعبدونها ويقدمون لها القرابين لتشفع لهم عندالله. انظر تفسير سورة النجم د.أحمد فرحات. ص/١٧ .

(٢) لقد اختلف المفسرون في معنى هذه "ن" التي افتتحت بها السورة ويذهبون في تأويلها مذاهب شتى. أما نحن فإننا مع القائلين بأن هذه الأحرف هي أحرف اللغة العربية، ومنها تتكون كلماتها، وبها نزل القرآن، فأعجزهم بفصاحته وبهرهم ببيانه مع أنه تألف من حروف العربية ذاتها التي منها النون والقاف والصاد والحاء والميم...انظر: التعبير الفني د. بكرى، ص/٢٦٠ .

فالمقسم به في الآية هو القلم ويرى الطبري والبغوي أنه القلم الذي خلقه الله تعالى فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة. (١) أما ابن كثير فقد رأى أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله تعالى "أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" العلق: ٣-٥، فهو قسم منه تعالى وتنبية لخلقته على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم. ولهذا قال "وما يسطرون". (٢)

وقد أقسم الله بالقلم استدلالاً على كرامة نبيه وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ونفي عنه الجنون.

كيف تعلق المقسم به في الآية بالمقسم عليه؟

١- قال ابن القيم: "وأنت إذا طبقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه (٣) أظهر دلالة وأبينها. فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر! فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولا سيما من أمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف برياً من التناقض يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم! فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه. وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك؟" (٤)

(١) تفسير جامع البيان / الطبري. م ١٤ ، ج ٢٩ ، ص ١٦. ومعالم التنزيل، البغوي، ج ٤، ص ٣٧٥ .
 (٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٤، ص ٤٢٨ .
 ورغم اختلاف المفسرين في تحديد معنى القلم أكان القلم الذي يسطر به الملائكة أقدار الناس على اللوح المحفوظ، أم كان القلم الذي يسجل به الرقيب والعقيد ما ينطق به كل مخلوق، أم كان القلم العادي الذي يكتب به الناس شرعة الله وأنظمة حياتهم ونتاج عقولهم وخفقات قلوبهم فإنه لا يفسد الهدف من القسم لأن الأهم في هذا القسم هو الاستدلال. حيث إن الله تعالى قد أقسم بالقلم استدلالاً على كرامة نبيه وصدق رسوله ونفي عنه الجنون .
 (٣) أي دالاً على تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه.
 (٤) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، ص ٢٧٢

ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضاً لشهد له العقلاء بالعقل، ولما استجاز أحد زميه بالجنون مع إمكان معارضتها ومشاكلتها والإتيان بمثلها أو أحسن منها فكيف يُرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدي عقولهم إليه بحيث أذعنّت له عقول العقلاء وخضعت له أبواب الأولياء لذلك فليس أمامهم إلا التسليم له، وأن عقولهم أشد فقراً أو حاجة إلى ما جاء به ولا كمال لها إلا بما جاء به. (١)

٢- لقد أقسم الله بالقلم، وفيه دلالة للأداة التي ينتقل بها الإنسان من عالم الجهل إلى عالم العلم والنور وإذا أقسم الله به فإنه إشارة إلى أن ما يأتي به محمد صلى الله عليه وسلم ناجم عن علم يقين وهو إذاً ليس بمجنون كما يقولون بل مهمته إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن ظلمة الجهل إلى عالم العلم والنور.

فالقضية قضية علمية والوحي مبني على العلم، لذلك لا ترى من أتباع الوحي الجهال. وهو تعريض بأن معارضة للوحي لا تأتي إلا من قبل الجاهلين به، وأن معارضتهم لدعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم إنما هي بناء على التعصب والعناد، وإذا تعصب الشخص وعاند أفسد ستار العلم والعقل.

المطلب الثالث: التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه في وسط السورة ومثال ذلك ما في سورة الطارق.

قال تعالى "والسماوات ذات الارجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل، وما هو بالهزل" الطارق: ١١-١٤ .

بعد أن تبين الدليل على إمكان البعث في الآيات الماضية أعقب بالقسم على تحقيق أن القرآن حق وأن ما فيه قول فصل إبطالاً لما مؤوه عليهم من أن أخباره غير صادقة إذ قد أخبرهم بإحياء الرمم البالية. (٢)

فالمقسم به في الآيات هو "السماوات ذات الارجع والأرض ذات الصدع" والباقي منها هي المقسم عليه.

"والسماوات ذات الارجع" أي المطر، وسمى رجعاً لردّ الهواء ما تناوله من الماء (٣) "والأرض ذات الصدع" أي ما يتصدع عنه الأرض من النبات (٤) وهو النبات التي تخرج من شقوق الأرض.

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، ص ٢٧٣. (٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ج ٣٠/ ص ٢٦٦/

(٣) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ١٨٩، وحيث يأتي يشار إليه: المفردات، الراغب .

(٤) الكشف، الزخشري، ج ٣ ص ٧٣٦ ومعاني القرآن، الفراء ج ٣ ص ٢٥٥ .

قال تعالى: "أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا" عبس: ٢٥-٢٩ .

وتناسب المقسم به بالمقسم عليه من وجهين:
أولا: لقد أقسم الله بالسماء والأرض لأن في ذكر أحوالهما من الغيث والنبات اللذين بهما إصلاح الناس مناسبة في إصلاح القرآن للناس. وفي الحديث: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا..." (١)
ثانيا: لقد أقسم الله بالسماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع تحقيقاً لصدق القرآن في الإخبار بالبعث التي أشيرت إليها في الآيات قبلها.

فإن المقسم به يتضمن معنى البعث والحياة بعد الموت الذي قرره القرآن، قال تعالى: "فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن يزل عليهم من قبله لمبلسين، فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير" الروم: ٤٨-٥٠ .
وقرار القرآن في هذا الشأن هو القرار الفصل. إذ لا يلتبس به الهزل كما لا يلتبس عند الإنسان رجوع المطر وترجع به السماء مرة بعد مرة وصدع النبات وهو يشق الأرض وينبتق.

وهذا رد على المشركين إذ كانوا يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بهزل إذ يخبر بأن الموتى سيحيون ويريدون تضليل عامتهم حين يسمعون قوارع القرآن وإرشاده وجزالة معانيه يختلقون لهم تلك المعاذير ليصرفوهم عن أن يتدبروا القرآن. وهو ما حكاه الله عنهم في قوله: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" فصلت: ٢٦ .

إذا قول القرآن هو قول الفصل وهو القول الذي ليس بعده قول. والذي ينهي كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب بعد هذه البيانات الشافية والمواعظ الوافية بشأن القيامة في الآيات التي قبلها.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٣٠/٣، ص ٢٢٦

والحديث هو ما رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد بن حنبل. انظر: صحيح البخاري، كتاب ٣، حديث رقم ٧٩، ج ١، ص ١٧٥، وصحيح مسلم، كتاب ٤٣، حديث رقم ٢٢٨٢، ج ٤، ص ١٧٨٧، ومسند الإمام أحمد بن حنبل. حديث رقم ١٩٥٩، ج ٧، ص ١٣٩ .

المبحث الرابع التناسب البياني في التفصيل بعد الإجمال

يأتي التفصيل بعد الإجمال في القرآن للمناسبة التي لم توجد في المناسبات الأخرى. وذلك لأن التفصيل بعد الإجمال له أثر في النفس. ويفيد إظهار المعنى في صورتين مختلفتين: الأولى مبهمة مجملة والثانية موضحة مفصلة.

وهو أيضا يفيد تمكن المعنى في النفس خير تمكن. فالأول حصول المعنى دفعة واحدة والثاني حصول المعنى على سبيل التدرج شيئا فشيئا. قال الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي: "فإن المعنى إذا ألقى مبهما تاقت نفس السامع إلى معرفته مبينا. فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك. فإذا ألقى كما تشتهي تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم". (١).

كما أنه يفيد تكميل لذة العلم به. فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة واحدة لم يتقدم حصول اللذة به أتم. وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول فيحصل لها سببُ المعلوم لذة. وبسبب حرمانها عن الباقي أتم. ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى. واللذة عقيب الأتم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها أتم. (٢).

إضافة إلى ذلك فإنه يشبه مرتبة البيان بعد التشوف. وبالطبع إنه أقوى للحفظ في الذهن لإفادة حسن الإعتبار.

فلقد وقع التفصيل بعد الإجمال في القرآن على جهتين:-

١- التفصيل بعد الإجمال في السورة الواحدة.

٢- التفصيل بعد الإجمال بين السور.

(١) شرح التلخيص في علوم البلاغة للإمام جلال الدين القزويني، عبدالرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م، ط ٢، ص ٢٢١، وحيث يأتي يشار إليه: شرح التلخيص، البرقوقي.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٢

ومما يواخي ذلك ما في قوله تعالى "هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام... البقرة: ٢١٠، ذكر صاحب الكشاف السبب في أن العذاب يأتيهم من الغمام. أن الغمام مظنة الرحمة فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أظلم وأهول. لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أكثر غما كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أكثر سرورا فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؟ ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظة لمجيئها من حيث يتوقع الغيث!!، انظر: الكشاف، الزمخشري، ج ١، ص ٢٥٣.

المطلب الأول: التفصيل بعد الإجمال في السورة الواحدة.

وهو يتمثل في آياتها. والأمثلة على ذلك كثيرة. وقد بسطت كتب البلاغة الحديث عنها. كقوله تعالى "فوسوس إليه الشيطان" طه: ١٢٠، فأنت تترقب معرفة ما الذي يوسوس به الشيطان؟

ففي ذلك إجمال لا بد من بيانه. فبيّنه سبحانه وتعالى بقوله: "قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى" طه: ١٢٠ (١).

إلا أن التفصيل بعد الإجمال من ناحية مناسبة وقوعها في الآيات تنقسم إلى عدة أقسام. وهو إما أن يكون بمناسبة حسن الترتيب وإما أن يكون بمناسبة حسن الجوار. وإما أن يكون دون ذلك.

وبمناسبة حسن الترتيب كقوله تعالى "يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد" فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد". وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ" هود: ١٠٥-١٠٨. فإن الآية الثانية من المجموعة تفصيل للذين شقوا مما جاء في الآية الأولى حيث قدم الشقى فيها. أما الآية الثالثة ففيها تفصيل للذين سعدوا مما أتى في الآية الأولى بعد الشقي. وهكذا ظهر حسن الترتيب في الآية.

ومن هذا أيضاً (٢) قوله تعالى "كذبت ثمود وعاد بالقارعة". "فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية". "وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية" الحاقة: ٤-٨. فإن الآية الثانية تحدث عن قوم ثمود الذين لقوا مصرعهم نتيجة كذبهم بالقارعة وأما الآية الثالثة فهي تحدث عن هلاك عاد. فجاءت بحسن ترتيب لذلك.

وبمناسبة حسن الجوار قوله تعالى: "يوم تبيض وجوه". "وتسود وجوه". "فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون". "وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون" آل عمران: ١٠٦-١٠٧.

فإن في القطعة الأولى من الآيات إجمالاً عن اليوم الذي تبيض فيه وجوه. والقطعة الثانية إجمالاً عن اليوم الذي تسود فيه وجوه. ثم أتت بعدها الآيتان التاليتان تخالفان الترتيب حيث الأولى عن الذين اسودت وجوههم والثانية تفصيل عن الذين ابيضت وجوههم... وهكذا ما يسمى بحسن الجوار.

(١) البلاغة فنونها وأبنائها، علم المعاني، د. فضل عباس. ص/ ٤٨٣.

(٢) انظر أيضاً سورة فصلت/ ١٣-١٧ وسورة النساء: ١٧٢-١٧٣.

ومن هذا أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء "وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين". "فهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً". "وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين. وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون": ٧٨-٨٠ فروعى في الآية حسن الجوار فقدم على الترتيب. أما ما يخالفهما فهو كثير. كقوله تعالى: "واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون" الشعراء: ١٣٢، والنفس تترقب ما هذا الذي أمدوا به، وتفصله الآيتان بعدها "أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون" الشعراء: ١٣٣-١٣٤. (١)

ومثل ذلك قوله تعالى في الحديث عن لوط عليه السلام: "فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر" الحجر: ٦٥-٦٦، وأنت تسأل عن هذا الأمر الذي قضاه الله إلى لوط، وتتشوف ويتشوق فؤادك إلى معرفته، ويبين الله هذا الأمر بعد ذلك بقوله: "أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين" الحجر: ٦٦، فهذا المقضى قد ذكر مرتين، جملأ أولاً في قوله تعالى: "ذلك الأمر" ومفصلاً ثانياً في قوله سبحانه: "أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين". (٢)

المطلب الثاني: التفصيل بعد الإجمال بين السور

ومثال ذلك كالتفصيل بعد الإجمال بين سورة النجم وسورة القمر. حيث ذكرت في السورة الأولى أربع قصص على سبيل الإجمال. وهي قصة عاد "وأهله عاداً الأولى" النجم: ٥٠، وقصة ثمود "وثمود فما أبقى" النجم: ٥١، وقصة قوم نوح "وقوم نوح إنهم كانوا هم أظلم وأطغى" النجم: ٥٢، وقصة قوم لوط "المؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى" النجم: ٥٣-٥٤.

ثم ذكرت تلك القصص على سبيل التفصيل في السورة التي بعدها وهي سورة القمر فقال تعالى في قصة قوم نوح: "كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر..... فكيف كان عذابي ونذر". القمر: ٩-١٦

وقال في قصة قوم عاد "كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر.... فكيف كان عذابي ونذر" القمر: ١٨-٢١، وقال في قصة قوم ثمود "كذبت ثمود بالنذر..... إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر" القمر: ٢٣-٣١، وقال في قصة قوم لوط: "كذبت قوم لوط بالنذر.... فذوقوا عذابي ونذر". القمر: ٣٣-٣٩

(١) البلاغة فنونها وأفانها، الأستاذ الدكتور فضل عباس ص ٤٨٣.

(٢) المرجع السابق.

وكذلك التفصيل بعد الإجمال قد وقع بين سورة الحج وسورة المؤمنون. قال في سورة الحج "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير" الحج: ٦٣ .

ثم ذكر في سورة المؤمنون على سبيل التفصيل كيفية اخضرار الأرض بذكر ما ينبت فيها من أنواع الثمار. قال تعالى: "وأنزّلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض. وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون. وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للآكلين" المؤمنون: ١٨-٢٠ (١) ومن هذا أيضاً التفصيل بعد الإجمال كما بين سورة النمل وسورة القصص. قال تعالى في سورة النمل: "إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون" النمل: ٧٦، هنا ذكر أن القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون أما في سورة القصص فقد ذكر كيف فصل القرآن قصة موسى بالحق وذكر قصته لأنه رسول بني إسرائيل وصاحب شريعتهم كما ذكر قصة قارون. ولم تذكر في سورة غير هذه، وذكر قصته هنا لأنه من قوم موسى وقصته من ضمن قصة بني إسرائيل. (القصص: ٣-٤٤) و(القصص: ٧٦-٨٢). (٢)

(١) جواهر البيان، النماري ص ٦٦ .

(٢) وهناك نوع آخر من التناسب في التفصيل بعد الإجمال وهو التفصيل بعد الإجمال بين السور غير المتجاورة. وأثبتناه في الهامش لكونه خارج عن التناسب بين السور طبقاً لترتيب التلاوة في المصحح العثماني (راجع ص ٣ من هذه الرسالة) وذلك كقوله تعالى في سورة المؤمنون "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون" المؤمنون ١-٧ . فإن قوله تعالى "فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون" إجمال المحرمات التي جاءت مفصلة في قوله تعالى "ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنّه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمّهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمّهات نسأؤكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان عفورا رحيمًا والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين" النساء ٢٢-٢٤ .

قال ابن أبي الأصبغ "فإن هذه الآية اشتملت على خمسة عشر محرماً من أصناف النساء وذوات الأرحام ثلاثة عشر صنفاً ومن الأجانب صنفان". انظر بديع القرآن ابن أبي الأصبغ المصري، تحقيق حفي محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة، القاهرة ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م، ط ١، ص ١٥٤-١٥٥، وحيث يأتي يشار إليه، بديع القرآن ابن أبي الأصبغ.

ومن هذا أيضا التفصيل بعد الإجمال في قصة شعيب. حيث ذكرت قصة شعيب إجمالاً في عدة سور و هي في سورة ق وسورة ص وسورة الحجر .

قال في سورة ق "كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود و عاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد" ق ١٢-١٣ فأصحاب الأيكة هم قوم شعيب.

وفي سورة ص قال تعالى: "كذبت قبلهم قوم نوح و عاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب". ص ١٢-١٣ .

أما تفصيل القصة فيأتي في سورة الأعراف ٨٥-٩٣، وسورة الشعراء: ١٧٦-١٩٠، وسورة هود: ٨٤-٩٥ . ثم تأتي إجمالاً مرة أخرى في سورة الحجر ٧٨-٧٩، وسورة العنكبوت: ٣٦-٣٧. وهما بمثابة تلخيص للقصة. وكذلك في قصة يونس الإجمال منها في سورة القلم: ٤٨-٥٠ وسورة يونس: ٩٨ .

والتفصيل منها في سورة الصافات: ١٣٩-١٤٨، أما في سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨، فإنها تشبه التلخيص بعد التفصيل.

المبحث الخامس

التناسب البياني في التقابل

إن التقابل (١) صورةٌ من صور البيان في القرآن. وهو لا يؤتى به إلا لمناسبة بيانيةٍ والمناسبة البيانية فيه أنه سببٌ من أسباب وفاء المعنى وتمام الغرض. ومن أسلوب القرآن أن يقابل كثيراً بين الأمرين في سياقٍ واحد وذلك لتتضح الفروق بينهما.

وكلما كثُرَ التقابلُ كثُرَ البيانُ. وذلك لأنه يأخذ قارئ القرآن إلى عالم المقابلة ثم المقارنة بين الأشياء المعروضة وينتهي بعين الاعتبار. ونجد في القرآن كثيراً من الأمثلة على التقابل بين ذكر المؤمنين والكافرين في سياقٍ واحدٍ. وهو آت - كما ذكرنا - لأجل الأغراض البيانية. وذلك لتتضح الفروق بين مواقف الفريقين من المؤمنين والكافرين، ولتتم المقارنة بين مصير أصحاب الجنة وأصحاب النار، فكيف ذلك إغراءً ودافعاً للإيمان من جانب وتحذيراً وتخويفاً من الكفر من جانب آخر!! قال الأستاذ أحمد بدوي: "هذه المقابلة بين المعاني تزيدها في الفكر وضوحاً وفي النفس رسوخاً." (٢)

ومن ذلك نرى أن ما ورد في القرآن من المقابلة لم يجيء اعتسافاً، وإنما جاء المعنى مصوراً في هذه الألفاظ التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه. (٣) وهو كما رأى الأستاذ سيد قطب أن القرآن قد استخدم التقابل لتنسيق صور التصوير القرآني التي يرسمها بالألفاظ حيث ينسق بين هذه الصور بفعل المقابلات الدقيقة بينها. (٤)

(١) رأي جمهور علماء البلاغة أن "التقابل" غير "الطباق" و"التقابل" عندهم أن يؤتى بمعنيين فأكثر ثم بما يقابل هذه المعاني. أما "الطباق" فلا يكون إلا بين معنى واحد وما يقابله. وللزملكاني رأي آخر، حيث قال: "ويطلق على هذا (أي التطبيق) اسم المقابلة لكونها تقرب منه"، انظر: التبيان في علم البيان المطلاع على إعجاز القرآن، الزملكاني، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديشي، مطبعة المعاني، بغداد، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، ط١، ص١٧١، وحيث يأتي يشار إليه: التبيان، الزملكاني. ويبدو أن نسبة الكتاب إلى ابن الزملكاني خطأ انظر: الأعلام، الزركلي، م٤، ص١٧٦، وقد رأى الدكتور فضل حسن عباس نفس الرأي. حيث قال: "فأنت ترى أن الطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد، كل ما في الأمر أن الطباق يكون بين معنيين، أما المقابلة فيشترط لها أكثر من ذلك..." انظر: البلاغة فنونها وأفانها، علم البيان والبدیع د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ط١، ص٢٧٨، وحيث يأتي يشار إليه: البلاغة فنونها وأفانها علم البيان والبدیع، د. فضل عباس.

(٢) من بلاغة القرآن، الأستاذ أحمد بدوي ص ١٨٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، د. صلاح الخالدي، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط١، ص١٦٢، وحيث يأتي يشار إليه: نظرية التصوير الفني، د. صلاح الخالدي، وانظر أيضاً: التصوير الفني، سيد قطب، ص ٩٧.

ونلاحظ مدى أهمية التقابل في القرآن متمثلاً في قوله تعالى: "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير" آل عمران: ٢٦ .

فالأية الكريمة تُصور قدرة الله في أوسع معانيها وسلطانه في أكمل مظاهره. فجمعت بين الضدين والمقابلين وحكمت بأنه يقدر على الأمرين جميعاً: الإيتاء والتزعج والإعزاز والإذلال... وذكّر التقابل لا يحصى عنه لكمال القدرة وسعة السلطان إذ يقدر على الإيتاء لكنه يعجز عن التزعج، وقد يستطيع أن يعزّ لكنه لا يقدر على الإذلال، ومع ذلك يمكن أن يوصف بالقدرة، لكن قدرته غير تامة وسلطانه غير شامل، فإذا كان الوصف لله تعالى أدركنا ضرورة اجتماع الضدين المقابلين لتكتمل الصورة ويسمو المعنى ويعظم السلطان. (١) ...وهنا ظهر البيان فيه وهذا البيان يجعل الإنسان في حذر دائم لأنه لا يملك لنفسه شيئاً وإنما ما شاء الله كان.

فيبدو لي أن طبيعة التقابل في القرآن تنقسم إلى طبيعتين:
 الأولى: طبيعة وقوعه في القرآن، والثانية: طبيعة صورته في القرآن.
 المطلب الأول: التقابل من ناحية طبيعة وقوعه في القرآن.
 التقابل من ناحية طبيعة وقوعه في القرآن ينقسم إلى قسمين:
 القسم الأول - وقوع التقابل في السور، والقسم الثاني - وقوع التقابل بين السور.
 القسم الأول: وقوع التقابل في السور
 وقوع التقابل في السور إما أن يكون في الآية الواحدة وإما أن يكون بين مجموعة الآيات. والتقابل في الآية الواحدة مثاله قوله تعالى: "ومكروا مكراً ومكرنا مكراً" النمل: ٥٠ فالمكر من الله تعالى بالعذاب جعله الله عز وجل مقابلة لمكروهم بأنبيائه وأهل طاعته. (٢) وكقوله تعالى: "لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" البقرة: ٢٨٦ .
 فإن في اللام "معنى الانتفاع وفي "على" معنى التضرر، أي لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر. ولا ينتفع بطاعتها، ولا يتضرر بمعصيتها غيرها. (٣)
 وكقوله: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى" النحل: ٩٠ .

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن، الدكتور عبدالفتاح لاشين دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ط١، ص ٢٢، وحيث يأتي يشار إليه: البديع في ضوء أساليب القرآن، لاشين.

(٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري ص ٣٧١ .

(٣) شرح التلخيص، اليرقوتي، ص ٣٤٩ .

فقابل بين الأمر وما يتبعه وبين النهي وما يتبعه. فقد أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة. ففي الآية مقابلة أربعة أشياء بأربعة أشياء (١).

ونحو قوله: "ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله".

القصص: ٧٣.

انظر إلى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام وهما ضدان، ومجيء السكون والحركة في عجز الكلام وهما ضدان. ومقابلة كل طرفٍ منه بالطرف الآخر على الترتيب. (٢)
التقابل بين مجموعة الآيات كقوله تعالى: "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى" الليل: ٥-١٠، قال الإمام فخر الرازي: "فلما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والأتقاء والتصديق جعل ضده وهو التعسير مشتركاً بين أضداد تلك الأمور وهو المنع والإستغناء والتكذيب". (٣)
كقوله تعالى: "الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون" المؤمنون: ٢-٣، فجمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين الفعل والترك إذ وصفهم بالخشوع في الصلاة وترك اللغو. (٤)

ومثل قوله: "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون" البقرة: ٨-٩.
التقابل هنا بين "آمنا" و"ما هم بمؤمنين" وبين "يخادعون الله" و"ما يخدعون" والمقام يقتضي تكذيب المنافقين في دعواهم للإيمان. وأنها لم تصدر عن يقين وعقيدة، وإنما صدر عن كذب وخداع فكان في المقابلة أبلغ رد على ما ادعوه وأقوى نفي لما انتحلوه. (٥)

(١) فن البديع، الدكتور عبدالقادر حسين، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط١، ص ٥٠، وحيث يأتي يشار إليه فن البديع، د. عبدالقادر. (٢) بديع القرآن، ابن أبي الإصبع ص ٧٣.

قال ابن أبي الإصبع في بيان سر التعبير عن الحركة بلفظ الإرداف، "ولتبتغوا" بقوله: "والذي أوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل كون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة، وهي اشتراك الإعانة بالقوة وحسن الاختيار الدال على راحة العقل وسلامة الحس، ويستلزم إضاعة الطرف الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه، ليهتدي المتحرك إلى بلوغ المآرب ووجوه المصالح. ويتقوى أسباب المعاطب. والآية سبقت للاعتداد بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ رذفه وتابعه ليت حسن البيان..." بديع القرآن، ابن أبي الإصبع ص ٧٣-٧٤.

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، تحقيق: الدكتور بكرى شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م، ط١، ص ٢٨٦، وحيث يأتي يشار إليه: نهاية الإيجاز، الفخر الرازي.

"التقابل بين الجميع ظاهر، إلا بين "اتقى" و"استغنى"، وليس المراد بالإستغناء كثرة المال والغنى، بل الإستغناء والزهد فيما عند الله. وهو مقابل التقوى. فإن الزهد فيما عند الله يستلزم عدم التقوى، فيكون عدم الاتقاء الذي تم به المقابلة باعتبار لازمه".

انظر تعليق الدكتور بكرى شيخ أمين تحت هامش نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي ص ٢٨٦.

(٤) بديع القرآن، ابن أبي الإصبع ص ٣٣. (٥) البديع في ضوء أساليب القرآن، لاشين ص ٢٦.

القسم الثاني: وقوع التقابل بين السور

ونجد مثال هذا في التقابل بين سورة الكوثر وسورة الماعون .

قال الإمام الفخر الرازي: "علم أن هذه السورة (١) على اختصارها فيها لطائف:.... أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة . وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى للمنافق بأمر أربعة: أولها: البخل وهو المراد من قولهم "يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين" الماعون: ٢-٣، الثاني: ترك الصلاة وهو المراد من قوله: "الذين هم عن صلاتهم ساهون" الماعون: ٥ والثالث: المراءاة في الصلاة وهو المراد من قوله "الذين هم يراؤون" الماعون: ٦ . والرابع: المنع من الزكاة وهو المراد من قوله "ويمنعون الماعون" الماعون: ٦. (٢)

"فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربع. فذكر في مقابلة البخل قوله: "إنا أعطيناك الكوثر" الكوثر: ١، أي إنا أعطيناك الكثير فأعط أنت الكثير ولا تبخل، وذكر في مقابلة: "الذين هم عن صلاتهم ساهون" الماعون: ٥ .

قوله "فصل" الكوثر: ٢ أي دم على الصلاة، وذكر في مقابلة "الذين هم يراؤون" الماعون: ٦، قوله "لربك" الكوثر: ٢ أي ائت بالصلاة لرضا ربك، لا لمراءاة الناس، وذكر مقابلة "ويمنعون الماعون" الماعون: ٧، قوله "وانحر" الكوثر: ٢، وأراد به التصدق بلحم الأضاحي. فاعتبر هذه المناسبة العجيبة. ثم ختم السورة بقوله: "إن شأنك هو الأبر" الكوثر: ٣ أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنايه أثر ولا خير، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل، وفي الآخرة الثواب الجزيل". (٣)

التقابل بين سورة النصر وسورة اللهب.

فإن التقابل بينهما قائم من جهتين:

١- لما كانت سورة النصر تتضمن معنى البشير وهو مجيء نصر الله وفتحته وانتشار دينه ودخول الناس فيه أفواجا وسورة المسد تتضمن معنى النذير وهو هلاك عدوين عنيدتين من أشد أعدائه فإن بينهما مقابلتين من ناحية الوعد والوعيد.

(١) أي سورة الكوثر

(٢) التفسير الكبير، الإمام، الفخر الرازي ج ٣٢، ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق .

٢- سورة النصر جاءت بذكر ثواب المطيع وهو حصول النصر والفتح والاستيلاء في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى. وهي متقابلة بسورة اللهب التي جاءت بذكر عقاب العاصي فهو الخاسر في الدنيا والعقاب العظيم في العقبى. (١)

التقابل بين سورة الجمعة وسورة المنافقون لأول وهلة يمكن أن لا يلتفت النظر إلى وجود التقابل بين السورتين، لكونهما مشتملتين على ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن بعد التأمل ندرك وجه التقابل بينهما.

فالسورة الأولى تتضمن من كانوا يكذبونه قلباً ولساناً وهم اليهود وأما السورة الثانية فتتضمن من كانوا يكذبونه قلباً دون اللسان ويصدقونه لساناً دون القلب وهم المنافقون.

المطلب الثاني: التقابل من ناحية طبيعة صورته في القرآن فهذا النوع أيضاً ينقسم إلى قسمين: القسم الأول: أن يكون بين صورتين حاضرتين. والقسم الثاني: أن يكون بين صورة ماضية وأخرى حاضرة. (٢)

القسم الأول : التقابل بين صورتين حاضرتين من ذلك قوله تعالى: "ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير" الشورى: ٢٩ .

ففي هذه الآية صورتان حاضرتان سريعتان. صورة البث للدواب في الأرض تقابلها وتعقبها صورة أخرى لجمع تلك الدواب المبعوثة. وليس بين بث الدواب في السموات والأرض وجمعها الا كلمة تصدر. والتعبير يقابل بين مشهد البث ومشهد الجمع في لمحة على طريقة القرآن. يشهد القلب هذين المشهدين الهائلين قبل أن ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن. (٣)

ومن ذلك التقابل بين صورتين إمامة الأحياء وإحياء الموتي في قوله تعالى: "أولم يهدلهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون؟ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون؟" السجدة: ٢٦-٢٧ .

(١) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي ج/٣٢ ص ١٦٥ .

(٢) هذا التقسيم من رأى الأستاذ سيد قطب .

انظر: البيان في اعجاز القرآن، د.صلاح ص ١٩٥ ، وانظر أيضاً: التصوير الفني: سيد قطب ص ٩٦ و ٩٨ .

(٣) البيان في اعجاز القرآن، د.صلاح ص ١٩٥ .

ففي هاتين الصورتين نقلهم القرآن في ومضة عين من القرى الدائرة بعد الحياة وال عمران إلى الأرض الحية المنتجة بعد الموت والجذب. فالتقابل هنا بين حالتين وحالتين في الواقع لا بين حالة وحالة. احياء القرى ثم إمامتها في مقابلة موت الأرض ثم إحيائها. (١)

ومن ذلك التقابل بين صور النعيم والعذاب يوم القيامة. وقلما تخلو صورة من صور النعيم الذي يلاقه المؤمنون في الجنة سواءً كان حسياً أو نفسياً، إلى صورة أخرى تقابلها وهي عذاب أهل النار حسياً أو نفسياً. ومن ذلك قوله: "هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع" الغاشية: ١-٧ وتقابلها صورة النعيم "وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة وطارق مصفوفة وزرابي مبثوثة" الغاشية: ٨-١٦ (٢)

ومن ذلك أيضاً، التقابل بين صفة المؤمنين والمكذبين في قوله تعالى "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة" القيامة: ٢١-٢٥. هذا التقابل تصوير لحالي المصدقين والمكذبين، فوجوه يومئذ باسمه مسرورة لما ينتظرون من رحمة الله ووجوه كالحة لمخافتهم عذابه. (٣)

فكما بين أمرين من أمور المكذبين من البسور وسوء الظن فكذلك بين أمرين من أمور المصدقين نضرة الوجوه والاستبشار بثواب الله..... فإن السرور والحزن يظهران في لون الوجه. (٤)

وإذا قابلت هذه الآية "وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة" القيامة: ٢٤-٢٥، والتي سبقتها في صفة المؤمنين، بذلك التقابل بينهما حيث إن المؤمنين منتظرون قرابة من الله والمكذبين قد يشعرون من رضوانه وعلموا بأنهم مبعدون.

(١) نظرية التصوير الفني د. صلاح ص ١٦٢-١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) تفسير سورة القيامة، الفراهي ص ٢٨.

(٤) المرجع السابق ص ٢٨ - ٢٩.

القسم الثاني: التقابل بين صورة ماضية وأخرى حاضرة
إن الحديث هنا هو عن التقابل بين صورتين: إحداهما حاضرة الآن والأخرى ماضية في
الزمان، حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة. (١)
وهذا اللون من التقابل بين الصور موجودٌ بوفرة في القرآن. ومن ذلك قوله تعالى: "أولم
ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين". يس: ٧٧

فالصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة. والصورة الحاضرة هي صورة الإنسان الخصيم
المبين، وقد رسمت الصورتان في هذه الآية في تقابل متناسق، تقابلاً تخيالياً، يعمل فيه الخيال
لاستحضار صورة النطفة الحقيرة واستحضار المسافة المديدة بين الإنسان النطفة والإنسان
الخصيم. (٢)

ومنه قوله تعالى: "وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من
يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين" الواقعة: ٤١-٤٥

فالصورة الحاضرة هنا هي صورة أصحاب الشمال في جهنم يتعذبون بالسموم والحميم
وظل من يحموم تقابلها الصورة الماضية لهؤلاء عندما كانوا في الدنيا "إنهم كانوا قبل ذلك
مترفين" وما ألم العذاب للمترفين. (٣)

ومن حيوية التصوير في هذا المشهد أنه طوى عمر الدنيا، وأوقف أصحاب الشمال في
السموم والحميم في نار جهنم وجعلهم يتذكرون أيام ترفهم ورفاهيتهم عندما كانوا في الدنيا
مع أنهم من حيث الواقع لم يزالوا في الدنيا مترفين ولم ينتقلوا حسيًا للصورة الثانية. (٤)
ومنه قوله تعالى "كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق. وطمّن أنه الفراق والتفت الساق
بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله
يتمطى" القيامة: ٢٦-٣٣ .

فالصورة الحاضرة هنا هي صورة الكافر المحتضر وقد بلغت روحه تراقيه، والتفت منه
الساق بالساق وأيقن أنه مفارق دنياه مقبل على ربه. هنا يستحضر خياله صورته الماضية يوم
أن كذب وتولى وذهب إلى أهله يتمطى، فلا صدق ولا صلى. (٥)

(١) نظرية التصوير الفني، د. صلاح ص ١٦٤

وانظر أيضاً: التصوير الفني، سيد قطب ص ٩٨

(٢) نظرية التصوير الفني، د. صلاح ص ١٦٤

وانظر أيضاً: التصوير الفني، سيد قطب ص ٩٨/ ٩٩

(٣) البيان في إعجاز القرآن د. صلاح ص ١٩٦ .

وانظر أيضاً: التصوير الفني سيد قطب ص ١٠٠ .

(٤) البيان في إعجاز القرآن د. صلاح ص ١٩٦ .

(٥) نظرية التصوير الفني، د. صلاح ص ١٦٥ .

ومنه قوله تعالى في تصوير المؤمنين وهم يتلذذون في نعيم الجنة... "وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم " الطور: ٢٢-٢٧ .

والصورة الحاضرة هنا صورة المؤمنين في الجنة ويتلذذون بنعيمها وهم فيها يستحضرون بخيالهم صورة ماضية لهم. صورتهم وهم في الدنيا في أهلهم مشفقون. وهم يدعون الله البر الرحيم أن يقيهم عذاب النار. (١)

(١) نظرية التصوير الفني ٢، صلاح الخالدي ص ١٦٥ .

الفصل الثاني التناسب الدعوي

المبحث الأول : التناسب الدعوي في موضوع القرآن المكي.

المبحث الثاني : التناسب الدعوي في موضوع القرآن المدني.

المبحث الثالث : التناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها

المبحث الرابع : التناسب الدعوي في المرحلية في الجهاد.

الدعوة من الدعاء (١) إلى الشيء بمعنى الحثُّ على قصده (٢). ومنه قوله تعالى: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين". يوسف ١٠٨ .

ومعنى الدعوة: هو حثُّ الناس على فعل الخير وترك الشرِّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم لأداء مسؤولية الدعوة. وقد حكى عن ذلك القرآن في كثير من آياته فقال: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته" المائدة: ٦٧ "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن". النحل: ١٢٥ "وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين" القصص: ٨٧ "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني" يوسف: ١٠٨ .

ثم توالى على حمل هذه المسؤولية الأجيال كلها إلى يومنا هذا. وكل مسلم يعلم أنه مأمورٌ بأداء مسؤولية الدعوة (٣) إلى الناس جميعا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" آل عمران: ١١٠ "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" التوبة: ٧١ .

ومنهجهم في أداء تلك المسؤولية هو اتباعه والسير على نهج سنته صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا" الأحزاب: ٢١ .

(١) التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، الحنفي، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميره، عالم الكتب، بيروت، ١٩٧٨-١٤٠٧م، ط١، باب الدال وفصل العين، ص ١٢٩، وحيث يأتي يشر إلى: التعريفات، الجرجاني.

(٢) المعجم الوسيط، الدكتور إبراهيم أنيس ومجموعة، ص ٢٨٦ .

(٣) ومن أراد التوسع في مسؤولية أديها عينا كانت أم كفاية فليراجع على سبيل المثال: الدعوة قواعد وأصوله، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٤٠٨-١٩٨٨م ص ١٥-٢٢، وحيث يأتي يشار إليه: الدعوة قواعد وأصول؛ جمعة أمين، وأيضا: المنطلق، محمد أحمد الراشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦-١٣٩٠م، ط٢، ص ٨٩-٩٦، وحيث يأتي يشار إليه: المنطلق، أحمد الراشد، وأيضا: كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١١-١٩٩١م، ط١٣، ص ١٤-١٦، وحيث يأتي يشار إليه ب: كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن، وأيضا: الدعوة إلى الإسلام تاريخها في عهد النبي والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة وما يجب الآن، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٣٧-٥١، وحيث يأتي يشار إليه: الدعوة إلى الإسلام، أبو زهرة.

والمناسبات التي رتبها الله تعالى في الحياة الدعوية للمصطفى صلى الله عليه وسلم للتوصل إلى أهداف الدعوة نسميها بالتناسب الدعوي، والحديث عنها - هنا - على المناسبات التالية:

- المبحث الأول: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المكي.
- المبحث الثاني: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المدني.
- المبحث الثالث: التناسب الدعوي بين السورة وجو نزلها
- المبحث الرابع: التناسب الدعوي في المرحلية في الجهاد.

المبحث الأول التناسب الدعوي في موضوع القرآن المبكي

إن التعريف المشهور للقرآن المبكي : هو ما نزل قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة والقرآن المدني هو ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة. (١)

وقد لوحظ في هذا التعريف زمن النزول. وهو أقرب عناية إلى مراعاة الترتيب الزمني في مراحل دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إن دعوته صلى الله عليه وسلم التي تعهد بها القرآن الكريم عاشت طورين متميزين واضحين ومرحلتين متعاقبتين. وهي المرحلة المكية والمرحلة المدنية.

وعاشت الدعوة المرحلة المكية حيث القلة والضعف، والشدة والإيذاء والكيذ... مع الأمر بالهجر الجميل "واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا" المزل: ١٠-١١، والصفح "فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون" الزخرف: ٨٩، وكف الأيدي والصدع بالحق "فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهها آخر فسوف يعلمون" الحجر: ٩٢-٩٦، والقرآن الكريم الذي ينزل في هذه المرحلة ينافح عن تلك الجماعة الناشئة فيزيح عن طريقها العقبات والأشواك والشكوك ويدها بأسباب الإيمان والاعتقاد (٢) "ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" الحجر: ٩٧-٩٩ .

فإذا أمكن تلخيص الموضوعات التي دارت حولها آيات القرآن المبكي بكلمة واحدة لقلنا: إن موضوعه العقيدة. فالتناسب الدعوي في هذا المبحث إذن، هو التناسب الدعوي في موضوع العقيدة.

(١) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، م/١، ج/١، ص/٢٣، وانظر أيضا: البرهان في علوم القرآن، الزركشي م/١، ج/١، ص/١٨٧، وأيضاً: مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠، ط ١٨، ص ١٦٨، وحيث يأتي يشار إليه: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح.

(٢) علوم القرآن، الدكتور عدنان زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ط ٣، ص ١٣٥، وحيث يأتي يشار إليه: علوم القرآن، عدنان زرزور.

المطلب الأول: العقيدة هي موضوع القرآن المكي:

إن القرآن المكي مشغول كله بالعقيدة، وإن التشريعات والتنظيمات لم يتزل منها شيء سوى توجيهات عامة. وذلك مثل وضع الأسس العامة للتشريع كالصلاة، وعندما بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - كان يصلي ركعتين كل صباح ويصلي ركعتين كل مساء ثم شرعت الصلوات الخمسة ليلة أسري برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت المقدس فقد فرض الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وسائر المسلمين خمسين صلاة في اليوم واللييلة ثم خففها الله عزوجل إلى خمس صلوات. (١)

وحادثة الإسراء كانت قبل هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - بثمانية عشر شهرا، وإذا فإن الصلوات الخمس المكتوبة نسخت الركعتين اللتين كانتا في الصباح والمساء. (٢) فوضعت الأسس العامة للفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع مثل عدم التطفيف في الكيل والميزان إذ إنها حالة صارخة تمثل ظلما اجتماعيا خطيرا يزاوله الكبراء في مكة، قال تعالى: "ويل للطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" المطففين: ١-٣ .

وفضح جرائم المشركين في وأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات، قال تعالى: "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألساء ما يحكمون" النحل: ٥٨-٥٩ . وهكذا التشريعات التي لم يتزل منها شيء في مكة إلا توجيهات عامة.

وتعاقب على هذه العقيدة الأنبياء جميعا... فالعقيدة خوطب بها الإنسان على اختلاف الأمم والأقوام قال تعالى: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" النحل: ٣٦، قال في نوح: "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم" هود: ٢٥-٢٦، وفي هود: "وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون" هود: ٥٠، وفي صالح: "وإلى ثود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض

(١) صحيح مسلم، كتاب ١، حديث. رقم ٢٥٩، ج ١، ص ١٤٥-١٤٧

(٢) الفقه المنهجي، الدكتور مصطفى الحن ومجموعة، دار العلوم، دمشق، ١٩٤١-١٩٨٩م، ط ١، ج ١، ص ١٠١، وحيث يأتي يشار إليه، الفقه المنهجي، مصطفى الحن ومجموعة.

واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب" هو ٦١د، وفي شعيب: "وإلى مدين أخاهم شعيباً قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره" هو ٨٤د، وفي إبراهيم: "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون" الأنبياء: ٥١-٥٢، وقال في شأنه أيضاً: "قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون" الأنبياء: ٦٦-٦٧ .

وعلى هذه التفت طبيعة الدعوة على مدار تاريخ البشر حيث تستهدف كلها الإسلام، وإسلام العباد لرب العباد. وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من سلطان العباد وحاكمتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكمته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة. (١) ولما كانت العقيدة الأولى من أولويات الدعوة فسور القرآن في هذه المرحلة تتجه إلى نفس الغرض حيث ركزت على موضوع العقيدة. والموضوع الأكبر من موضوعات العقيدة هو الألوهية والعبودية بكل موجباتها في الآفاق والأنفس. وبكل تفصيلاتها وتفرعاتها ومقتضياتها في واقع النفس وواقع الحياة. (٢)

ورغم أن الباب الأكبر للعقيدة هو التعريف بالله إلا أنه ليس الباب الوحيد الذي استخدمه القرآن لتثبيت العقيدة وتمكينها. فهناك إلى جانب ذلك الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالكتب والرسل والنبوات والوحي... وهناك الأخلاق الإيمانية التي ينبغي التخليق بها بدلاً من الأخلاق الجاهلية التي ينبغي نبذها. وكل أولئك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة ويؤكدونها ويرسخها بحيث يعتبرانها من أبوابها. (٣)

وإعطاء القرآن الأولوية العظمى لموضوع العقيدة قبل كل شيء آخر ليس سببه مواجهة المشركين من العرب في الجزيرة أو لسبب أن الجوف الديني قبل الإسلام في الجزيرة العربية ينقسم إلى جوف منحرف في التوحيد ويشمل الديانة اليهودية والديانة المسيحية والوثنية (٤). وإنما هو سبب دائم في حياة البشر على الأرض ولأن الله يعلم أن هذا وحده هو السبيل الحقيقي لإصلاح البشرية. وكل ابتداء بغيره أو مُضي من دونه عمل باطل لا يؤدي إلى شيء. (٥)

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن. أحمد فائز مؤسسه الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ط ١١، ص ١٣٦، وحيث يأتي يشار إليه: طريق الدعوة، أحمد فائز.

(٢) دراسات قرآنية . محمد قطب ص ٢١ . (٣) المرجع السابق ص ٣١ .

(٤) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي منهاجها وغاياتها، الدكتور رؤوف شلبي، دار القلم، الكويت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ط ٢، ص ٤٤-٤٥، وحيث يأتي يشار إليه: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، رؤوف شلبي، وانظر أيضاً: منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، علي بن جابر الحربي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ط ١، ص ٤٥-٨٣، وحيث يأتي يشار إليه: منهج الدعوة النبوية، الحربي، وانظر أيضاً مكي، القرآن ومدنيه، محمد الهادي كريدان، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، الليبية، ١٣٩٤هـ-١٩٨٤م، ط ١، ص ١٧، وحيث يأتي يشار إليه: مكي القرآن ومدنيه، كريدان .

(٥) دراسات قرآنية ، محمد قطب، ص ٢٢-٢٣ .

المطلب الثاني: التناسب الدعوي في كون العقيدة الموضوع الأول للدعوة: لقد شاء الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة، وأن يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى خطواته في الدعوة بدعوة الناس إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن يمضي في دعوته يعترف الناس بربهم الحق ليعبدوه دون سواه. والبداية بالعقيدة لم تكن أيسر السبل إلى قلوب العرب طالما أنهم يعرفون المدلول الحقيقي لدعوة لا إله إلا الله.

والتناسب الدعوي في كون العقيدة الموضوع الأول للدعوة نذكر وجوهه من خلال الدروس التالية:

١- الدعوة لا بد أن تنطلق من العقيدة، فإن البداية بغيرها عبارة عن انحراف عن طريق الدعوة.

فقد كان من الممكن على سبيل الفرض والاحتمال أن يبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام ببدايات أخرى مثل البداية بالدعوة إلى التحرر السياسي والوحدة العربية أو البداية بالإصلاح الاجتماعي أو البداية بالإصلاح الأخلاقي.

إنه كان في استطاعة محمد صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الأمين الذي حكّمه أشرف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود وارتضوا حكمه منذ خمسة عشر عاماً قبل الرسالة، والذي هو في ذؤابة بني هاشم أعلى قريش نسباً... إنه كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب التي أكلتها الثارات ومزقتها النزاعات، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الامبراطوريات المستعمرة... الرومان في الشمال والفرس في الجنوب... وإعلاء راية العربية وإنشاء وحدة قومية عربية كبرى في كل أرجاء الجزيرة... وبعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة. وبعد أن يولّوه فيهم القيادة والسيادة وبعد استجماع السلطان في يديه، فإنه يمكنه أن يستخدم هذا كله لإقرار عقيدة التوحيد التي بعث بها ليدين الناس لسلطان ربهم بعد أن يطيعوا سلطانه البشري. (١) ولكن الله لم يوجّه رسوله هذا التوجيه وإنما وجهه إلى أن يصمد بـ "لا إله إلا الله" لأنه يعلم أن ليس هذا هو الطريق، وليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي إلى يد طاغوت عربي. فالطاغوت كله هو الطاغوت. إن الناس عبيد لله ولا يكونوا عبيداً لله وحده إلا أن ترتفع راية لا إله إلا الله كما يدركها العربي العارف

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ط ١، ص ٢٦-٢٧، وحيث يأتي يشار إليه: معالم في الطريق، سيد قطب.

بمدلولات لغته أي لا حاكمية إلا لله ولا شريعة إلا من الله ولا سلطان لأحد على أحد لأن السلطان كله لله. ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة التي يتساوى فيها العربي والروماني والفرسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله. (١)

وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَا الدِّينِ وَالْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ كَأَسْوَأَ مَا يَكُونُ الْمَجْتَمَعُ تَوْزِيْعًا لِلثَّرْوَةِ وَالْعَدَالَةَ. قَلَّةٌ قَلِيْلَةٌ تَمْلِكُ الْمَالَ وَالتَّجَارَةَ وَتَتَعَامَلُ بِالرِّبَا فَتَضَاعَفَتْ تِجَارَتُهَا وَمَالُهَا وَكَثْرَةُ كَثِيْرَةٌ لَا تَمْلِكُ إِلَّا شَطْفَ الْعِيْشِ وَالْجُوعِ. وَالَّذِيْنَ يَمْلِكُوْنَ الثَّرْوَةَ يَمْلِكُوْنَ مَعَهَا الشَّرْفَ وَالْمَكَانَةَ وَجَمَاهِيْرَ كَثِيْرَةً ضَائِعَةٌ لَا مَالَ لَهَا وَلَا مَجْدَ. (٢)

وإنه كان في استطاعته صلى الله عليه وسلم أن يرفعها راية اجتماعية وأن يثيرها حرباً على طبقة الأشراف وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع. ورد أموال الأغنياء على الفقراء ولو دعا يومها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدعوة لانقسم المجتمع العربي صفتين: الكثرة الغالبة مع الدعوة الجديدة في وجه طغيان المال والشرف والجاه والقلة القليلة مع هذه الموروثات بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه لا إله إلا الله التي لم يرتفع إلى أفقها في ذلك الحين إلا الأفاذ من الناس.

ولكن الله لم يوجه هذا التوجيه لأنه يعلم أن هذا ليس هو الطريق.... وذلك لأن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل يرد الأمر كله لله ويقبل عن رضا وعن طوعية ما يقضي به الله من عدالة التوزيع، ومن تكافل الجميع ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسن في الدنيا والآخرة على سواء. (٣)

وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَسْتَوَى الْأَخْلَاقِي فِي الْجَزِيْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ. وَكَانَ التَّنْظَامُ فَاشِيَا فِي الْمَجْتَمَعِ، وَكَانَتِ الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ مِنْ تَقَالِيْدِ الْمَجْتَمَعِ الْفَاشِيَةِ وَمِنْ مَفَاخِرِهِ. كَذَلِكَ وَكَانَتِ الدَّعَاوَةُ بِصُورٍ شَتَّى مِنْ مَعَالِمِ هَذَا الْمَجْتَمَعِ (٤) رُوتَ عَائِشَةُ

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٢٨-٢٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩ .

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢م، ج ٧، ص ١٠٠٦-١٠٠٧ .

(٤) منهج الدعوة النبوية، الحربي ص ٦٤-٦٦ . وانظر أيضا: مكي القرآن ومدنيه. كريدان. ص ١٧-٢٠ ، وانظر

أيضا: قول جعفر بن أبي طالب في السيرة النبوية لابن هشام وتعبيره عن فساد أخلاقهم في الجاهلية. انظر

السيرة النبوية. ابن هشام ١م ص ٤١٥ .

رضي الله عنها: "إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء. فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه. فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد. فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيها. فإذا حملت ووضعت ومرت ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم. فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها. تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم. وقد ولدت فهو ابنك يا فلان. تسمي من أحببت باسمه. فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل. والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كن ينصن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن. فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جُمعوا لها، ودعوا لهم القافة. ثم ألقوا ولدها بالذي يرون. فالتاقت به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك..." (١)

وإنه كان في استطاعته صلى الله عليه وسلم أن يعلنها دعوة إصلاحية تناول تقويم الأخلاق وتطهير المجتمع وتزكية النفوس. ولو صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لاستجابت له في أول الأمر جمهرة صالحة. تتطهر أخلاقها وتزكو أرواحها فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها، بدلاً من أن تثير دعوة "لا إله إلا الله" المعارضة القوية منذ أول الطريق.

ولكن الله كان يعلم أن ليس هذا هو الطريق! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من العقيدة، تضع الموازين وتقرر القيم. (٢)

فلما تقررت العقيدة وتقررت السلطة التي تركز إليها هذه العقيدة... وتقررت في القلوب "لا إله إلا الله".... تطهرت الأرض من الرومان والفرس لا ليتقرر فيها سلطان العرب ولكن ليتقرر فيها سلطان الله. ويتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله

(١) صحيح البخاري، كتاب ٦٧، حديث رقم/٥١٢٧، ٩م، ٩ج، ص ١٨٢-١٨٣. وانظر أيضاً: سنن أبي داود. كتاب

الطلاق. حديث رقم ١٠٢٢٧٢، ٢ج، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٢) معالم في الطريق / سيد قطب، ٣٢-٣٣.

وحده. وتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر حتى للحدود والتعازير التي شرعها الله إلا في الندرة النادرة لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر. ولأن الطمع في رضا الله وثوابه والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قام مقام الرقابة ومكان العقوبات. (١)

وارتفعت البشرية في نظامها واخلاقها وحياتها كلها إلى القمة التي لم ترتفع إليها من قبل قط، والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام. (٢) - الابتداء بالعقيدة لتقرير أنها المنهج الرباني في الدعوة.

إن طبيعة القرآن المكي في موضوعه حيث وضعت العقيدة في أولويات الدعوة، قد رسم لنا طبيعة الدعوة الإسلامية في أيامها الأولى. حيث ينبغي أن يكون كذلك في كل العصور. هذه هي طبيعة المنهج الرباني المتمثل فيه لكي يعرف أصحاب الدعوة الإسلامية طبيعة منهجهم ويثقوا به ويطمئنون إليه ويعلموا أن ما عندهم هو الخير وأنهم هم الأعلون...

ويجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ويجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولاً إقراراً بعقيدة لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم.... إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم وأوضاعهم وواقعهم. (٢)

ولتكمن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة.... فإذا دخل في هذا الدين - بمفهومه هذا الأصيل - عصبة من الناس. فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياتها الاجتماعية لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس وألا تحكم في حياتها كلها إلا الله. (٣)

ولهذا الدرس المستفاد من طبيعة القرآن المكي في موضوعه دلالة مهمة على طبيعة هذا الدين التي يجب اتباعها من قبل جميع الدعاة في أي زمان ومكان. فإن الله تعالى

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب، ٢م، ج ٧، ص ١٠٠٨، وانظر أيضاً: مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، ط ٢، ص ٧٦-٧٧، وحيث يأتي يشار إليه: مبادئ الإسلام، المودودي.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢م، ج ٧، ص ١٠١١. (٣) المرجع السابق.

حين يريدُ بناءَ الجماعةِ الإسلاميةِ فإنه كان يريدُ بناءَ الجماعةِ وبناءَ الحركةِ وبناءَ العقيدةِ في وقتٍ واحدٍ. وكان يريدُ أن يبني الجماعةَ والحركةَ بالعقيدةِ، وأن يبني العقيدةَ بالجماعةِ والحركةِ. وكلُّ نموِّ نظريٍّ يسبقُ النموَّ الحركيَّ الواقعيَّ ولا يتمثلُ من خلاله، هو خطأٌ وخطئ... (١) فأصحابُ هذا الدينِ يجبُ أن يعرفوا جيداً، أنه كما أن هذا الدينَ ربانيٌّ فإن منهجَه في العملِ منهجٌ ربانيٌّ كذلك، منسجمٌ مع طبيعته. وأنه لا يمكنُ فصلَ حقيقةِ هذا الدينِ عن منهجِه في العملِ.

٣- وبناءَ العقيدةِ أولاً لأنها تستقطبُ الطاقاتِ للعملِ المستمرِ في سبيلِ الله. ومن كانتُ دعوتُه مبنيةً عليها لا يتزحزحُ في دعوتِه ويدعوُ إلى الله بكلِّ عزمٍ وتصميمٍ نتيجةً اعتقادهِ الثابتِ وبقينه المطلقِ بالإيمانِ به والدعوةِ إليه. والمثلُ الأعلى في ذلك قصةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم مع عمِّه أبي طالب. (٢) والذي يقولُ كلمةً "لا اله الا الله" لا يتسربُ إليه اليأسُ ولا يقعدُ به القنوطُ في أي حالٍ من الأحوال. فإنه يؤمنُ بالذي له خزائنُ السمواتِ والأرضِ والذي لا تعدُّ نعمه وآلؤه ولا تقدرُ قواه. فهذا الإيمانُ ينعمُ على قلبه بطمأنينةٍ غيرِ عاديةٍ ويملؤه سكينه وأملأ، ولو أهين في الدنيا وطرد عن كلِّ بابٍ من أبوابها، وضافتُ عليه سبلُ العيشِ وانقطعتُ عنه الأسبابُ الماديةُ طراً، فإن عينَ الله لا تغفلُ عنه ولا تسلمه إلى نفسه، فلا يزالُ يبذلُ الجهودَ المتتابةَ متوكلاً على الله ومستمدأمنه المعونةَ في جميعِ أحواله. فهذه السكينةُ القلبيةُ والطمأنينةُ الروحيةُ لا يمكنُ حصولها بشيءٍ غيرِ العقيدة. (٣)

ثم إنها تربي الإنسانَ على قوةٍ عظيمةٍ من العزمِ والإقدامِ والصبرِ والثباتِ والتوكلِ، فإنه حينما يضطلعُ بمعالِي الأمورِ في الدنيا ابتغاءَ لمرضاةِ الله يكونُ على يقينٍ تامٍ أن وراءه قوةُ ملكِ السمواتِ والأرضِ تؤيده وتأخذه بيده في كلِّ مرحلةٍ من مراحلِه. فلا يكونُ رسوخه وثباته وصلابته التي يستمدُّها من هذا التصورِ بأقلِّ من رسوخِ الجبلِ وثباته وصلابته. فلا تكادُ أيُّ مصيبةٍ من مصائبِ الدنيا ولا أيُّ قوةٍ من قواها المخالفةِ تشبهُه عما يكونُ قد عقد عليه العزم. (٤)

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن. الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار المنارة، جدة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ط١ ص ٣٢٣، وحيث يأتي يشار إليه: المنهج الحركي. د، صلاح الخالدي. (٢) السيرة النبوية، ابن هشام م، ص ٣٢٩-٣٣٠. (٣) مبادئ الإسلام. أبو الأعلى المودودي ٧٢٣-٧٤، وانظر أيضاً: الإيمان أثره في حياة الإنسان. الدكتور حسن الترابي. دار القلم، كويت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط٤ ص ٢٧٠ وحيث يأتي يشار إليه: الإيمان أثره، حسن الترابي.

(٤) مبادئ الإسلام، المودودي ص ٧٤.

المبحث الثاني

التناسب الدعوى في موضوع القرآن المدني

فإذا كانت الآيات المكية دارت حول إنشاء العقيدة في الله وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه، فتزول القرآن المدني ليعالج تطبيق تلك العقيدة وذلك التصور في الحياة الواقعية وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معتك الحياة فدارت معظم الآيات المدنية حول مسائل التشريع والأحكام وعلاقة الفرد بالمجتمع والمجتمع الإسلامي بسائر المجتمعات الإنسانية والأمم الأخرى....(١) وقد ذكر الباحثون أن إجمال موضوعات القرآن المدني كما يلي:(٢)

- ١- بيان العبادات والمعاملات والحدود ونظام الأسرة والموارث وفضيلة الجهاد والصلوات الاجتماعية والعلاقات الدولية في السلم والحرب وقواعد الحكم ومسائل التشريع.
- ٢- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودعوتهم إلى الإسلام وبيان تحريفهم لكتب الله وتجنينهم على الحق واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم.
- ٣- الكشف عن سلوك المناققين وتحليل نفسيتهم وإزاحة الستار عن خباياهم وبيان خطرهم على الدين.

وبمناسبة اختلاف الموضوع، فالخطاب أيضا يختلف. إذ إن خطاب القرآن المدني لا يمكن أن يكون مماثلا لخطاب القرآن المكي. لأن البيئة الجديدة بعد الهجرة تستدعي التفصيل في التشريع وفي بناء المجتمع الجديد. فكان لا بد أن يطيل القرآن بعد الإيجاز ويفصل بعد الإجمال ويراعي حال المخاطبين في كل آياته وسوره(٣). ثم إن معظم أسلوب آياته هو الحركة المستأنية والمخاطبة العقلية التي تدع المجال للتدبر والتفكير. إن الفترة المكية للدعوة كانت فترة إعداد لحمل الأمانة الكبرى: وهي تحقيق منهج الله في واقع الأرض والقيام في الوقت ذاته بقيادة البشرية قيادة راشدة مهتدية بنور الله. أما الفترة المدنية فكانت ثمار الإعداد قد أتت بالفعل أكلها في نفوس الفئة المختارة التي رباها على عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم.(٤)

(١) علوم القرآن. عدنان زرزور ص/١٣٦.

(٢) مباحث في علوم القرآن. القطان ص٦٤، علوم القرآن، عدنان زرزور ص١٤٢، مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ص١٨٣-١٨٤، تاريخ الفقه الإسلامي، بدران أبو العينين بدران، دار النهضة العربية، بيروت، ص٣٧، وحيث يأتي يشار إليه: تاريخ الفقه الإسلامي، بدران، والمدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ط١١، ص٩٢، وحيث يأتي يشار إليه: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، زيدان.

(٣) مباحث في علوم القرآن. صبحي الصالح ص١٨٤. (٤) دراسات قرآنية. محمد قلب ص٢٦٢.

وهذا الجيلُ المدنيُّ قد تعمقتُ في نفوسهم حقيقةُ لا إله إلا الله حتى أصبحتُ واقِعهم الذي يعيشونه وزادهم الذي يتقوّتون به وعرفوا إلى درجة اليقين معنى الألوهية الحقّة ومعنى العبودية الحقّة لله. ولم تعد الأرباب الرائفَةُ تخطر في مشاعرهم أو تمارس سلطانها عليهم.... ولا الأصنام التي يعبدُها المشركون عبادةً حسيّةً. فيسجدون لها ويقدمون القرابين إليها.... ولا القبيلة ولا عرف الآباء والأجداد الذي يلتزمون به من دون الله فيطيعونه في المخالفة عن أمر الله... انما هو إلهٌ واحد. لا شريك له في الخلق ولا شريك له في الأمر "ألا له الخلق والأمر" الأعراف: ٥٤. (١)

وحين علم الله من قلوب هذه الفئة التي تربتْ بلا إله إلا الله وتجردتْ لله وأخلصتْ له.... عندئذ نقلها النقلة الثانية الهائلة لتقوم بدورها المطلوب.... التي كانت من فترة الابتلاء والتمحيص والاستضعاف والتشريد إلى التمكين في الأرض والاستخلاف. (٢) واليوم يقوم مجتمع مسلم ودولة مسلمة في المدينة فإنه يحتاج إلى تنظيمات وتشريعات. والقرآن المدني الذي ينزل على هذا المجتمع الإسلامي لا يعرض التشريعات والمناهج والنظم والأحكام هكذا مجردةً مجزأةً ومنفصلةً عن الأصل، ولكنه يعرضها مع عرض جوانب من أسس التصور الاعتقادي أيضا ويربطها به ويتناولها من خلالها. وذلك مثل قوله تعالى "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" النساء: ٦٥. وقوله "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" المائدة: ٤٤.

إذن من الأمور التي تستحق الانتباه إليها هي أنه لا شك أن في القرآن المدني تنظيمات وتشريعات. ولكن هذه التنظيمات والتشريعات لم تعالج كموضوعات قائمة بذاتها. وإنما عولجت من خلال العقيدة وانبثاقاً منها!

فسورة المائدة مثلاً، قد تضمن سياقها أحكاماً شرعيةً منوعةً: منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد. ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام في فترة الإحرام وفي المسجد الحرام. ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح. ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة. ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه. ومنها ما يتعلق بالحدود من السرقة ومن الخروج على الجماعة المسلمة. ومنها ما يتعلق بالخمير والميسر والأنصاب والأزلام. ومنها

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥.

ما يتعلق بالكفارات من قتل الصيد مع الإحرام وفي اليمين. ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت ومنها ما يتعلق بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي من الأنعام. ومنها ما يتعلق بشريعة القصاص في التوراة مما جعله الله كذلك شريعة للمسلمين... وهكذا تلتقي الشرائع بالشعائر في سياق السورة بلا حاجز ولا فاصل... (١)

ثم إلى جوار هذه الأحكام الشرعية المنوعة يجيء الأمر بالطاعة والتقيّد بما شرعه الله وما أمر به والنهي عن التحليل والتحرّيم إلا بإذنه ويجيء النص على أن هذا هو الدين الذي ارتضاه الله للأمة المؤمنة. (٢)

لذلك نقول ليس في هذا الدين عقيدة منفصلة وتشريعات وتنظيمات منفصلة ولا عبادات منفصلة ومعاملات منفصلة بل الحديث عن أي تنظيم أو نظام إسلامي بمعزل عن العقيدة سيفقد روحه ويحوّله إلى نظام مثل أي نظام آخر تقوم عليه الدولة وتحرسه بتنظيماتها ولا زيادة مثل ما وقع في يومنا هذا!

والتاريخ قد شهد أن الإسلام بقي حتى اليوم في الأرض لأنه عقيدة. ونظام قائم على عقيدة وليس مجرد أنه نظام. (٣)

وانطلاقاً من هذا فإن الموضوعات التالية التي اقتطفت من موضوعات القرآن المدني يقترح لتكون دراسة عن مناسبات دعوية من التشريعات:

١- موضوع تحويل القبلة.

٢- موضوع تحريم الخمر.

المطلب الأول: التناسب الدعوى في موضوع تحويل القبلة.

قال تعالى: "سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم. قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون.

(١) المنهج الحركي، د. صلاح الخالدي ص ٣٢٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) دراسات قرآنية. محمد قطب ص ٢٦٨ .

ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين" البقرة: ١٤٢-١٤٥ .

فالأيات تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وكان هذا في المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهرا من الهجرة. (١) ولكن هذا التحويل مسبقاً بتحويل آخر. ذكر الأستاذ سيد قطب في قوله: "مجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها - بالإجمال - أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة - وليس في هذا نص قرآني - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمرٍ إلهي للرسول - صلى الله عليه وسلم - يرجح أنه أمرٌ غير قرآني. ثم جاء الأمر القرآني الأخير: "قول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره"..... فنسخه". (٢)

فالتوجه إلى بيت المقدس وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى كان سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعةً للاستكبار عن الدخول في الإسلام. إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول بأن اتجاه محمدٍ ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليلٌ على أن دينهم هو الدين وقبلتهم هي القبلة وأنهم هم الأصل فأولى بمحمدٍ ومن معه أن يضيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام! (٣).

ويبدو أن هذا من الأسباب التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه. ونزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" البقرة: ١٤٤. (٤)

وبعد صدور هذا الأمر وقعت فتنةٌ أخرى. فقال أهل الكتاب: إن محمداً ليس على بينة من ربه لأنه غير قبلته ولو كان الله هو الذي أمره بالصلاة إلى بيت المقدس لما نهاه عنه ثانياً، ولصرفه عن قبلة الأنبياء. قال المنافقون: إنه صلى إلى بيت المقدس استمالاً لأهل الكتاب ودهاناً لهم ثم غلب عليه حبُّ وطنه وتعظمه فعاد إلى استقبال الكعبة، فهو مضطرب في دينه. (٥)

(١) انظر صحيح البخاري . كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٤٨٦، ٨م، ٨ج، ٨٨ ص ١٧١ وانظر أيضاً صحيح مسلم . كتاب ٥،

حديث رقم ١٢، ١ج، ١٠ ص ٣٧٤ . وانظر أيضاً: أسباب النزول . الواحدي ص ٣٥ .

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١م، ٢ج، ١٢٥ ص . (٣) المرجع السابق .

(٤) صحيح مسلم كتاب ٥، حديث رقم ١٥، ١ج، ١٠ ص ٣٧٥ .

(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٢م، ٢ ص ٦ .

وهذا الأمر - بالطبع - كان شاقاً على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين... ولكن الله فعل ذلك لأنه يريد أن يكون من الموضوع دلالات تربوية، ويريد أن يرسم منه دروساً حركية ودعوية. لذلك، فإن تحويل القبلة لم يكن إلا لحكمة حركية تربوية... فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم ويعدونه عنوان مجدهم القومي، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله وتخليصها من كل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة المجرد من كل ملامسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم، فقد نزعهم نزاعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إجماع آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة. (١)

حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم صدر الأمر الإلهي بالاتجاه إلى المسجد الحرام. ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه هي حقيقة الإسلام. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله. وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في دينه رسولا منهم بالإسلام. (٢)

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة، وشابت عقيدة جدتهم إبراهيم شوائب من الشرك ومن عصبية الجنس إذ كان البيت يُعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس، والله يريد أن يكون بيت الله المقدس ولا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره، ولا يلتبس بسمه أخرى غير سمته... فقد صرف الله المسلمين عنه فترة. ووجههم إلى بيت المقدس ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول صلى الله عليه وسلم ثانياً. (٣)

وفي هذا لفتة دقيقة شديدة الدقة. وهي أن العقيدة الإسلامية لا تطبق لها في القلوب شريكا ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح (٤). وأنها لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية في أية صورة من الصور. جل أم صغر. وهذا هو إجماع ذلك النص القرآني "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه". البقرة: ١٤٣

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١م، ج ٢، ص ١٢٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧. (٣) المرجع السابق ص ١٣٢.

(٤) في ظلال القرآن في الميزان. الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار المنارة، جدة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ط ١، ص ٣٦٢، وحيث يأتي يشار إليه: في ظلال في الميزان. د. صلاح الخالدي.

المطلب الثاني : التناسب الدعوى في موضوع تحريم الخمر.

وفي موضوع تحريم الخمر يتضمن المنهج الإسلامي التربوي. وذلك من خلال التدرج في التحريم. فإن التدرج فيه عبارة عن حلقة في سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة. وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي القديمة وإحدى الظواهر المميزة له. ويرون أن ذلك جزءاً من حياتهم وأخلاقهم لشدة تعلقهم بها وإلفتهم لها. (١)

لقد نجح الإسلام بقلع هذه الظاهرة العميقة من ذلك المجتمع الجاهلي بمنهج الله في التربية بمبدأ التدرج في التشريع. وفشلت الجاهلية الحديثة كفشل الحكومة الأمريكية في علاج النفس البشرية والمجتمع الإنساني الذي قام على مقياس البشر في ابتعاد الإنسان عن الخمر.

فقد حاولت الحكومة الأمريكية - على سبيل المثال - مرة، القضاء على هذه الظاهرة. ومنعت الخمر وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدينة الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدرون ما أنفقتة الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بلايين صفحة. وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن (٢٥٠) مليون جنيه. وقد أعدم فيها (٣٠٠) نفس وسجن (٥٣٢٣٣٥) نفساً، وبلغت الغرامات (١٦) مليون جنيه. وصادرت من الأملاك ما يبلغ (٤٠٠) مليون واربعة ملايين جنيه... ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر وعناداً على تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة (١٩٣٣م) إلى سحب القانون وإباحة الخمر في مملكتها إباحتها مطلقاً. (٢)

أما الإسلام فقد قضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ببضع آيات من القرآن. وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله ومنهج الجاهلية. قديماً وحديثاً على السواء!.

(١) مكي القرآن ومدنيه، كريدان، ص ٢٢٠. (٢) هامش: ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين. السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، ط ٦، ص ٨٠، وحيث يأتي يشار إليه: ماذا خسر العالم، أبو الحسن الندوي .

لقد عالج المنهج الرباني هذه الظاهرة العميقة بوضع آيات من القرآن وعلى مراحل برفق ومودة، ابتداءً من مكة. حيث وردت في القرآن المكي تلميحاً سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر. قال تعالى: "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون" النحل: ٦٧ .

فالآية تلقي ظلالاً ذات معنى رفيع على الثمرات المنبثقة عن الحياة التي وهبها الله بالماء الذي أنزله من السماء ثم يتخذ الناس منه سكراً ورزقاً حسناً، فيلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر. وأن الخمر ليس لها نصيب من الاتصاف بالرزق الحسن. (١)

ولكن عادة الشراب أو تقليد الشراب كانت أعمق من عادة فردية فقد كانت تقليداً اجتماعياً له جذور اقتصادية كانت أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة. (٢) وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولةٌ وحيث كان له سلطان لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة. فإن هذه الأمراض المزمنة لا تؤخذ بالعنف والمفاجأة بل يتلطف في مقاومتها على مراحل تالية مترتبة متصاعدة. والإسلام يريد وقاية الإنسان والمجتمع من الأمراض. لأجل ذلك لا بد من أن يسلك مسلك الطبيب الماهر الحاذق الذي يأخذ بيد مريضه برفق ولين. وينتقل به من حال إلى حال متلطفاً معه ملاحظاً وضعه ونفسيته حتى إذا استقام أمره وتهيأت نفسه جاء بالعلاج الأخير الذي به يكون عضواً صالحاً في مجتمع صالح. (٣) فلو أمر بالإقلاع فوراً عن دناء الخمر مثلاً، بعد تلك الإلفة والمعايشة والعادة أكانت لهم القدرة على الاستجابة؟ وهل كانت لديهم الاستطاعة في مغالبة سيطرة النفس بالطريقة الفورية؟ .

بدأ المنهج الرباني للتربية عمله في المدينة برفق ويسر مع معرفة بالنفس البشرية والأوضاع الاجتماعية. فبدأ بآية البقرة رداً على الأسئلة يدل على تفجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما" البقرة: ٢١٩ .

ففي ذكر الإثم وأنه أكبر من النفع تشمّ رائحة المنع ولفت النظر إلى خبث الخمر وإن لم يصرح هنا بهذا المنع والتحريم. (٤)

(١) الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي. رؤوف شلبي ص ٥٥٥ .

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢م، ج ٥، ص ٦٦٥ . (٣) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، الدكتور محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ط ١، ص ٢٦٦، وحيث يأتي يشار إليه: الوحدة الموضوعية، حجازي.

(٤) مكي القرآن ومدنيه، كريدان، ص ٢٢٤.

ثم حدثت حادثة في مجلس عبد الرحمن بن عوف . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني. فقترأت: قل يا أيها الكافرون. أعبد ما تعبدون وغن نعبد ما تعبدون" قال: فأنزل الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون" النساء: ٤٣. (١)

لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة بين التنفير من الخمر لأن إثمها أكبر من نفعها وبين التحريم البات. لأنها رجس من عمل الشيطان. وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة هي: قطع عادة الشراب أو كسر الإدمان. وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار. وبينها فترات لا تكفي للشراب. فضلا على أن للشراب كذلك أوقاتا ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق. صباحا ومساء وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة.... وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة! (٢) ثم مضى الزمن ووقعت الأحداث كما ذكر الواحدي في "أسباب النزول" القصة التي كانت من الأسباب الموجبة لنزول تحريم الخمر (٣).

فجاء الوعد المناسب وفق ترتيب المنهج للضربة الحاسمة فنزلت الآيتان في المائدة: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" المائدة: ٩٠-٩١ ولما سمع عمر رضي الله عنه هاتين الآيتين وبلغ إلى قوله تعالى: "فهل أنتم منتهون" فقال: انتهينا! (٤) وانتهى المسلمون كافة وأهرقت قلال الخمر في كل مكان بمجرد سماع الأمر. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيف. فإني لقائم لسقى أبا طلحة وفلانا وفلانا إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذلك؟ قال: حرمت الخمر. قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس. قال: فما سألوها عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل (٥). فهذا نموذج الخبر من مجموعة الأخبار في هذا الموقف.

(١) لباب النقول في أسباب النزول. الإمام جلال الدين السيوطي، دار احياء العلوم، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط٤، ص ٦٨-٦٩، وحيث يأتي يشار إليه: لباب النقول السيوطي، وانظر أيضاً: سنن الترمذي، كتاب ٤٨، حديث رقم ٣٠٢٦، ج ٥، ص ٢٣٨. (٢) في ظلال القرآن سيد قطب، م ٢، ج ٥، ص ٦٦٦. (٣) أسباب النزول. الواحدي ص ١٧٣-١٧٦، وانظر قصتها بالتفصيل في: صحيح مسلم، كتاب ٣٦، حديث رقم ٢-١، ج ٣ ص ١٥٦٨-١٥٧٠.

(٤) أسباب النزول، الواحدي، ص ١٧٤.

(٥) صحيح البخاري، كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٦١٧، م ٨، ج ٨، ص ٢٧٧.

لقد انتصر القرآنُ وأفلح المنهجُ وفرض سلطانه دون أن يستخدمَ السلطان! ولكن كيف كان هذا؟ كيف تمت هذه المعجزة التي لا نظير لها في تاريخ البشر؟ لقد تمت المعجزة لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة. أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته وبحضور الله سبحانه فيها حضوراً لا تتسرب الغفلة إليه لحظة من زمان. أخذها جملة لا مفرقة. وعالج الفطرة بطريقته خالق الفطرة. (١)

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملؤه بنشوة الخمر وخيالات السكر وإنما ملأ فراغها باهتمامات. منها نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها من تيه الجاهلية إلى رياض الإسلام البديعة وملأ فراغها بالإيمان وبهذا الإحساس الندي فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر تحلق بها في خيالات كاذبة! (٢)

وهكذا عالج القرآن المدني موضوع تحريم الخمر على ضوء المنهج الرباني وهي التدرج في التشريع للوصول إلى الهدف وهو تحريم الخمر. والحكمة في ذلك أن هذا النهج يجعل الأحكام أخف على النفس مما لو نزلت دفعة واحدة وبالتالي تكون أدعى إلى القبول والامتثال. كما أنه تيسر للمخاطبين لمعرفة الأحكام وحفظها والإحاطة بأسبابها وظروف تشريعها (٣)، والتشريع الإسلامي في جميع مراحل وأطواره وفي جميع وسائله واتجاهاته إنما يهدف إلى الإصلاح الخلقى والنفسي والفكري والإصلاح الاجتماعي والسياسي والقانوني وليس من شك في أن غاياته إنما تلتقي عند إيجاد مجتمع سليم نظيف وشعب ناهض قوي.... (٤)

وراء هذا التسلسل التربوي دروس مهمة للدعاة. منها: أولاً: أن من أشق الأشياء وأصعبها في بناء المجتمع المسلم هو العملية التربوية. وقد يستغرق عمر الداعي لأجلها... فإن تربية الجماعة المسلمة الأولى بالقرآن الكريم لم تتم على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرعة خاطفة ولم تكن تجري بسهولة ويسر. فلقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض جهوداً ضخمة وصبراً طويلاً وعلاجاً بطيئاً في صغار الأمور وكبارها... (٥)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢م، ج ٥، ص ٦٦٦

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٦-٦٦٧ .

(٣) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، زيدان، ص ٩٣ .

(٤) نظرات في الإسلام. الدكتور محمد عبدالله دراز، دار الأرقم، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ص ١٤، وحيث يأتي يشار إليه:

نظرات في الإسلام، دراز. (٥) في ظلال في الميزان، الدكتور صلاح الحاندي، ٣٦٣-٣٦٤ .

وثانياً - التدرج في التكليف... إن كان التدرج في التشريع أحد العوامل التي ساعدت على تقبل هذا التشريع فالتدرج في التكليف أيضاً من عوامل ارتقاء المدعو إلى مراحل معينة. أكبر خطأ يرتكبه الداعي مع من يدعوهُ هو أن يبدأ معه من حيث انتهى هو فهماً وقولاً وعملاً. وينسى أولى الخطوات التي بدأها هو نفسه... فالمفروض أن يبدأ الداعي مع من يدعو من النقطة التي انتهى إليها فهم المدعو وليس من النقطة التي انتهى إليها فهم الداعي!

فعلى الداعي التدرج والتعرف على مداخل البشر. وهذه سنة الله في طريق دعوة الناس... ألا تلاحظ أنه لو نزل على العرب في بداية الإسلام أحكام الخمر دفعةً واحدةً لثقلت عليهم التكاليف ولنفرت قلوبهم عن قبولها. (١)

قال الأستاذ جمعة أمين: "لا بد إذن من تغيير النفوس شيئاً فشيئاً وإعدادها لتقبل أوضاع جديدة. وتهيئة النفوس التائهة لتقبل الحق كما نهيء الطفل للقطام بعد الرضاع. فإن أنت منعتهُ مرةً واحدةً أصبته بضررٍ بالغ قد يهلكه. وإن أنت أخذته بالتدريج أعنته على الاعتماد على نفسه". (٢)

(١) يبدو أن قول عائشة رضي الله عنها يصلح في أن يكون شهيداً على دلالة فقهاء في هذا الباب. قالت رضي الله عنها: ".... إنما نزل أول ما نزل منه سورة من الفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ولو نزل لا تزونا لقالوا لا ندع الزنا أبداً.....". انظر: صحيح البخاري . كتاب ٦٦ . حديث رقم ٤٩٩٣ ، ٩م ، ج ٩ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٢) الدعوة قواعد وأصول. جمعة أمين ص: ١٨٠ .

المبحث الثالث

التناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها

لا نعني بجو نزول السورة أسباب النزول وإنما أشمل من ذلك حيث تكون أسباب النزول جزءاً منه. وذلك لأن أسباب النزول "إما أن تكون قصةً لحادثة وقعت وإما أن يكون سؤالاً طرح على رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستكشاف حكم في موضوع فيقول القرآن إثر الحادثة أو السؤال". (١)

وجو السورة أشمل من ذلك. لأن هناك ما أنزل الله من السور أو الآيات ابتداءً مما هو غير مبني على الحوادث أو السؤال كأكثر الآيات المشتملة على قصص الأمم الغابرة مع أنبيائها أو وصف بعض الوقائع الماضية أو الأخبار الغيبية المستقبلية أو تصوير قيام الساعة أو مشاهد القيامة أو أحوال النعيم والعذاب من غير أن تكون إجابة عن سؤال أو بياناً لحكم شيء وقع.

وفي تعريفه نقول: هو تصوير الجو العام المصاحب لنزول كل السورة أو المقطع أو الآيات لمعالجة وقائع المسلمين من كل ناحية يحتاجونها خلال فترة الدعوة. قلنا إن ليس لكل السورة أو الآيات أسباب نزول خاصة بها ولكن لكل السورة أو الآيات جو نزول خاص بها ويمكن معرفته من خلال أحداث السيرة النبوية وملاحظة سير المجتمع الإسلامي الأول ومراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية إذ إنها تحمل طابع فترة الدعوة.

ونزول القرآن منتجاً لا شك في جو خاص يتناسب مع وقائع الدعوة واحتياجات الجماعة المسلمة في تلك الفترة ولتلبية حاجاتهم الحركية في مكة والمدينة. "وهي الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية في مواجهة الجاهلية العربية في تلك الفترة من الزمان بكل ملاساتها الواقعية". (٢)

ومعرفة جو نزول السورة يعين على الفهم السديد لقضايا الدعوة وطبيعتها في أيام دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وأعوان على دقة الفهم وأدنى إلى استلهام أرجح التأويل وأصح التفاسير كما "كانت معرفة جو القصيدة والظروف التي نظمت خلالها تعين على الفهم السديد وتسعف بالذوق السليم وتواكب الشرح الأدبي جنباً إلى جنب". (٣)

(١) مباحث في علوم القرآن. القطان ص: ٩٥.

(٢) في ظلال في الميزان. د. صلاح الخالدي ص ٣٣٢.

(٣) مباحث في علوم القرآن. صبحي الصالح ص ١٢٩.

ولعل ظلال التعبير في القرآن - أيضا - وإيحاءات المفردات في آياته وألوان التصاوير في قصصه متأثرة بجو نزول السورة أو آياتها ومرتبطة أو توثق الارتباط بوقائع الدعوة والحركة في تلك الفترة! وهذا التناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها سنتناوله من خلال جو نزول للسور التالية:-

١- سورة هود.

٢- سورة الفتح.

٣- سورة الكهف.

المطلب الأول: التناسب الدعوي بين سورة هود وجو نزولها:

لقد نزلت السورة بعد سورة يونس. ونزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء (١). وهذا التسلسل يحدّد لنا الجو العام الذي نزلت فيه سورة هود.

ولعل السورة نزلت ما بين عام الحزن إلى قبل بيعته العقبة حيث توفي في هذه الفترة أبو طالب وخديجة رضي الله عنها، ورفضت ثقيف دعوتَه صلى الله عليه وسلم واستهزأ المشركون بمعجزة الإسراء والمعراج.

وكان أبو طالب في حياته شديد الدفاع عن ابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت قريش لا تستطيع أن تنال النبي بأذى في نفسه طيلة حياته احتراماً له. فلما مات أبو طالب، جرّوت قريش على تشديد الأذى للنبي صلى الله عليه وسلم. (٢)

ثم إن خديجة كانت مهمتها أن تخفف عن الرسول صلى الله عليه وسلم همومه وأحزانه لما يلقاه من عداة قريش وأنها من نعم الله الجليلة على محمد صلى الله عليه وسلم. فقد آزرته في أخرج الأوقات وأعانته على إبلاغ رسالته وشاركته مغارم الجهاد المر وواسته بنفسها ومالها (٣) وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خن الرسالة وكفرون برجالهن وكن مع المشركين من قومهن وآلهن حرباً على الله ورسوله. (٤)

(١) الدليل الكامل لآيات القرآن، د. حسين. ص/ك.

(٢) السيرة النبوية. دروس وعبر. الدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ط٩، ص٥٣، وحيث يأتي يشار إليه: السيرة النبوية، السباعي.

(٣) الإصابة، ابن حجر، م٤، ص٢٧٥.

(٤) فقه السيرة. محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ط٣، ص١٢٢، وحيث يأتي يشار إليه: فقه السيرة، الغزالي.

ولما اشتد على الرسول صلى الله عليه وسلم كيد قريش وأذاها بعد وفاة عمه وزوجه توجه إلى الطائف لعله يجد في ثقيف حسن الإصغاء لدعوته والانتصار لها. ولكنهم ردوه رداً غير جميل وأغروا به صبيانهم فذفوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الطاهرتين. (١) وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف دون أن تستجيب ثقيف لدعوته. وبعد ذلك وقعت معجزة الإسراء والمعراج وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السموات العلى. ثم عاد إلى بيته في مكة تلك الليلة وأخبر قريشاً بأمر المعجزة فهزأت وسخرت. (٢)

ففي هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها وقبلهما سورة الإسراء... وكلها تحمل طابع هذه الفترة وتتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها. وآثار هذه الفترة وجوها واضحة في جو السورة وموضوعاتها، وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه على الحق والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي. (٣)

والتناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها ظاهرة من عدة نواح:-
أولاً - من ناحية استعراض السورة حركة العقيدة على مدار التاريخ.

لقد استعرضت السورة حركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك والعبودية له وحده بلا منازع. ولم تكن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم مبتدعة ولا قولاً غير مسبوق. لقد قالها من قبل نوح (٤) وهود (٥) وصالح (٦) وشعيب (٧) وموسى (٨) وغيرهم... فكلهم قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة.

(١) السيرة النبوية. السباعي ص ٥٤. وانظر أيضاً: السيرة النبوية. ابن هشام ٢م. ص ٦٩-٧٢. (٢) السيرة النبوية. السباعي ص ٥٥.

(٣) في ظلال القرآن. سيد قطب. ٤م، ج ١٢، ص ١٨٤٠-١٨٤١.

(٤) انظر: هود ٢٥-٤٨. (٥) انظر: هود ٥٠-٦٠. (٦) انظر: هود ٦١-٦٨.

(٧) انظر: هود ٨٤-٩٥.

(٨) انظر: هود ٩٦-٩٩.

ثانيا - من ناحية استعراض مواقف الرسل وهم كلهم يتلقون الإعراض والأذى من قومهم.

لقد عرضت السورة مواقف الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهم يتلقون الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء والتهديد والإيذاء بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق ومن ثقة بنصر الله الذي لا شك آت. ثم تصديق العواقب في الدنيا - وفي الآخرة كذلك - لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم بالتدمير للمكذبين وبالنجاة للمؤمنين. (١)

ثالثا - من ناحية التعقيب على القصص بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الدلالات والتوجيهات.

إن الدلالات والتوجيهات لما يحدث كل يوم في حياة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وما يصيبه من مصائب إنما يجيء بطريق التعقيب على قصص السورة.

وهو توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالته والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله وبما أولاهم الله من رعايته ونصره. وتوجيهه صلى الله عليه وسلم إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به.... وذلك بالتنويه إلى دلالة هذه القصص ذاتها على صدق دعواه في الوحي والرسالة. (٢)

فبعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب "تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين" هود: ٤٩ .

وفي نهاية القصص الواردة في السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة "ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنصيب. وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد" هود: ١٠٠-١٠٢ .

(١) في ظلال القرآن، م، ٤، ج ١٢، ص ١٨٤١، وانظر المشهد في قصة نوح. هود: ٢٧-٤٨ والمشهد في قصة هود. هود: ٥٣-٦٠. والمشهد في قصة صالح. هود: ٦٢-٦٨ والمشهد في قصة شعيب. هود: ٨٧-٩٥. (٢) في ظلال القرآن سيد قطب، م، ٤، ج ١٢، ص ١٨٤٢ - ١٨٤٣ .

"ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب. وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير. فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين" هود: ١١٠-١١٥. "وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين. وقل للذين لا يؤمنون أعملوا على مكانتكم إنا عاملون. وانتظروا إنا منتظرون. ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون" هود: ١٢٠-١٢٣. وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركي والدعوي في التوجيه القرآني.

وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافيء للموقف. وهكذا نجد القصص في القرآن تواجه مقتضيات الحركة والدعوة والمعرفة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة.

المطلب الثاني: التناسب الدعوي بين سورة الفتح وجو نزولها

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية (١) في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة (٢). حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليؤدي عمرته فيه وحالوا بينه وبين ذلك وانتهى ذلك بالمصالحة. فلما غر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عز وجل هذه السورة (٣). وكان صلى الله عليه وسلم يسير في بعض أسفاره، وعمر يسير معه ليلاً. فقال صلى الله عليه وسلم: (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) ثم قرأ: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً". (٤) وقبل هذه الحادثة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أنه دخل البيت الحرام وصحابته آمنين مخلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون شيئاً فأمر الناس أن يتجهزوا للخروج إلى مكة معتمرين لا يريد حرباً لقريش ولا قتالاً.

- (١) وفي رواية الواحدي نزلت السورة بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها. وكذلك في رواية السيوطي. انظر: أسباب النزول الواحدي: ٣١٤-٣١٥ ولباب النقول السيوطي ص ١٩٣.
- (٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ٢م، ج ٤، ص ١٦٦، تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٤، ص ١٩٦، والسيرة النبوية: ابن هشام ٣م، ص ٤٢٦ وص ٤٤٤.
- (٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٤، ص ١٩٦.
- (٤) البخاري، كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٨٣٣، م ٨، ج ٨، ص ٥٨٢-٥٨٣ والحديث يشير إلى أن السورة نزلت بكاملها.

وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة حتى في الأشهر الحرم التي يعظمها العرب كلهم في الجاهلية ويضعون السلاح فيها، ويستعظمون القتال في أيامها، والصد عن المسجد الحرام ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن وصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه طوال السنوات الست التي تلت الهجرة حتى كان العام السادس الذي أري فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الرؤيا. (١)

وبعد هذه الرؤيا خرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له. (٢) وأحرم بالعمرة من مكان يسمى بذي الحليفة وليس معهم سلاح إلا سلاح المسافر في تلك العهود: السيوف في أغمادها وسار حتى إذا وصل إلى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي. فقال: "يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا.... لبسوا جلود النمر... يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا... فقال صلى الله عليه وسلم: "يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب!". (٣)

فلما وصل إلى الحديبية جاءه بعض رجال من خزاعة يسألونه عن سبب قدومه فأخبرهم أنه لم يأت إلا ليزور البيت ويعتمر. فرجعوا وقالوا لهم: "إنكم تعجلون على محمد. لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا لهذا البيت" فقالوا: "وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا. ولا تحدث بذلك عنا العرب". (٤)

ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي ليتحدث إلى الرسول بهذا الشأن. وبعد حديث وأخذ ورد بين عروة وبعض الصحابة عاد إلى قريش وحديثهم عما رأى من حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهيبتهم له ورغبتهم في الصلح معه، فأبوا ذلك. (٥) وخلال هذه الفترة الشاقة بعثت قريش أربعين رجلا منهم - أو خمسين - وأمروهم

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب، ٦م، ج ٢٦، ص ٣٢٠٦-٣٢٠٧.

(٢) السيرة النبوية. ابن هشام. ٣م، ص ٤٢٧، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٤، ص ٢٠٥.

(٣) السيرة النبوية ابن هشام ٣م، ص ٤٢٨، وانظر أيضا: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٤، ص ٢٠٥، ومسنَد

الإمام أحمد حديث رقم ١٨٩٣٢، ج ٦، ص ٤٨٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٤، ص ٢٠٦. وانظر أيضا السيرة النبوية، ابن هشام، ٣م، ص ٤٣٢.

(٥) السيرة النبوية. السباعي ص ٩٤، وانظر أيضا: البداية والنهاية. ابن كثير ٢م، ج ٤، ص ١٦٨-١٦٩.

أَنْ يَطُوفُوا بِعَسْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَصْنَبُوا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا فَأَخَذُوا فَأَتَى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَى سَبِيلَهُمْ وَقَدْ كَانُوا رَمَوْا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ. ثُمَّ دَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لِيُبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ فَيُبَلِّغُ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِي أَحَدٌ يَمْنَعُنِي وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عِدَاوَتِي إِيَّاهَا وَغَلْظَتِي عَلَيْهَا وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ. (١)

ثم بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليؤكد لهم الغرض من مجيء الرسول وصحابته. وأبطأ عثمان، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أنه قد قتل. فقال الرسول عندئذ: (لا نبرح حتى نناجز القوم). ودعا المسلمين إلى البيعة على الجهاد والشهادة في سبيل الله فبايعوه تحت الشجرة.... ولما علمت قريش بأمر البيعة خافوا وتنازلوا عن التلاعب ورأوا الصلح معه على أن يرجع في هذا العام ويعود من قابل. ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي ذكر من أمر قتل عثمان باطل... (٢) وأرسلت قريش لذلك سهيل بن عمرو ليتم هذا الصلح. وأخيرا تم الصلح على ما رغبت قريش وعلى وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين. وأن من أتى من عند محمد إلى مكة لم يردوه وأن من أتى محمداً من مكة ردوه إليهم. (٣)

فلما التأمّت الأمور ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: "يا أبا بكر أو ليس برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟" قال: "بلى". قال: "فعلام نعطى الذلة في ديننا؟" فقال أبو بكر: "يا عمر الزم غرزه حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله." قال عمر: "وأنا أشهد." ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: "يا رسول الله أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟" قال: (بلى) قال: "فعلام نعطى الذلة في ديننا؟" فقال: (أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيئني). (٤)

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. ٢م، ج ٤، ص ١٦٩.

(٢) المصدر السابق. ص ١٦٩-١٧٠. (٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج ٤، ص ٢١١، وانظر أيضا: السيرة النبوية.

ابن هشام. ٣م، ص ٤٤٠-٤٤١

(٤) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٨٩٣٢ ج ٦، ص ٤٩٠.

ثم دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليَّ بنَ أبي طالب رضوان الله عليه ليكتب...
فبينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يكتبُ الكتابَ إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو
في الحديد قد انفلتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كان أصحابُ رسول الله
صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكُّون في الفتح لرؤيا رآها رسولُ الله صلى الله عليه
وسلم. فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم
على نفسه دخل الناسُ من ذلك أمرَ عظيمٍ حتى كادوا أن يهلكوا، فلما رأى سهيلُ أبا جندل
قام إليه فضرب وجهه ثم قال: يا محمدُ قد لجتِ القضيةُ بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال
: "صدقت" فقام إليه فأخذ بتلابيبه وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: "يا معشرُ المسلمين
أتردوني إلى أهلِ الشرك فيفتنوني في ديني. فزاد الناسُ شراً إلى ما بهم. فقال رسولُ الله
صلى الله عليه وسلم: "يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله عز وجل جاعلٌ لك ولمن معك
من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك
وأعطونا عليه عهداً. وإنا لن نغدرَ بهم". (١)

فلما فرغ من الصلح أمر الرسول أصحابه بالتحلل من العمرة. فلم يفعلوا ذلك في
موجةٍ من الألم لما حيل بينهم وبين دخول مكة ولما شقَّ عليهم من شروط الصلح. فبادر
عليه السلام بنفسه، فتحلل من العمرة فتبعه المسلمون جميعاً. (٢) واثناء العودة من الحديبية
إلى المدينة نزلت السورة. (٣)

فهذا هو الجو الذي نزلت فيه هذه السورة.

التناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها.

١- إن السورة نزلت في العودة من الحديبية إلى المدينة بعد أحداث تربوية في جو
تربوي لأغراض تربوية ودعوية. التي ربي الله بها من خلالها أصحاب الرسول صلى الله
عليه وسلم. ومن أبرز سماتها:

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم ١٨٩٣٢، ج ٦، ص ٤٩١، وانظر أيضاً رواية البخاري لزيادة التوضيح على مدى
تحمل المسلمين هذا الأمر. وبالحصوص ما يتعلق بقصة أبي جندل ابن النفاوس عن فريش نفسه يريد الالتحاق
بالمسلمين. فقد دخل في دين الله ولقى العذاب من أهله وما هو ذا يرسف في الحديد وتثقل به قيوده! صحيح
البخاري، كتاب ٥٤. حديث رقم، ٢٧٣٢٢، ٢٧٣٣١، م ٥٥، ج ٥، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٢) السيرة النبوية، السبعي ص ٩٤-٩٥. وانظر أيضاً: صحيح البخاري كتاب ٥٤ حديث رقم ٢٧٣٢٢، ٢٧٣٣١، م ٥٥،
ج ٥، ص ٣٣٢. وانظر أيضاً: مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٨٩٣٢، ج ٦، ص ٤٩١-٤٩٢.

(٣) جامع البيان. الطبري. م/١٣. ج/٢٦، ص/٦٨. وانظر أيضاً: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير. ج/٤،
ص/١٩٦.

* بيان أمر هذا الصلح وأنه مظهرٌ لتدبيرٍ إلهيٍّ محضٍ تجلّى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجلّى في أي عمل أو تدبيرٍ آخر. فقد كان نجاحه سزا مرتبطا بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده.

ومن أبرز ذلك استمرارية رجوع حكمة التدبير إلى الله عز وجل. "وكان الله عليما حكيمًا" الفتح: ٤ "وكان الله عزيزا حكيمًا" الفتح: ٧ "وكان الله عزيزا حكيمًا" الفتح: ١٩ "وكان الله بكل شيء عليما" الفتح: ٢٦.

ومن هنا نعتبر أمر هذا الصلح بكل الحوادث فيه من الأسس الهامة في تقويم التربية الإسلامية وتثبيتها في نفس الصحابة رضوان الله عليهم.

* إن الله تعالى أراد من تلك الحوادث أن يبرز الفرق الواضح بين وحي النبوة وتدبير الفكر البشري. وبين توفيق النبي المرسل وتصرف العبقري المفكر. وأراد الله عز وجل أن يُنصِرَ نبوةً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أمام بصيرة كل متأملٍ عاقل. ولعل هذا من بعض تفسير قوله تعالى: "وينصرك الله نصرا عزيزا" الفتح: ٣، أي نصبرا فريدا في بابه. (١)
* إن السورة نزلت لمعالجة كآبة المسلمين وحزنهم. فسبب الكآبة والحزن موجود. سواء من ناحية إعطاء المشركين كل ما سألوه من الشروط وتساهل النبي صلى الله عليه وسلم معهم في أمور لم يجد أحد من الصحابة ما يسوّغ التساهل فيها.

ولقد رأينا كيف استبد الضيق والقلق بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعند المسلمين. وكذلك ما حدث مع أبي جندل بن سهيل بن عمرو وهو فارس من المشركين يرسف في قيوده.... وكذلك محاولة فريق من السفهاء أن يشعلوا المعركة ورمي العسكر بالحجارة والنبل ولزم المسلمون الهدوء وكفوا أيديهم عن الاعتداء، وأشارت إليه الآية: "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما" الفتح: ٢٦.

وكذلك النواحي الأخرى التي عرضناها من خلال جو التزول سابقا. ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى وتفور بانفعالات متنوعة. كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدخول المسجد الحرام، ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول صلى الله عليه وسلم للرجوع عن البيت في هذا العام بعد الإحرام وبعد إشعار الهدى وتقليده.... كان هذا أمرا شاقا على نفوسهم. (٢)

(١) فقه السيرة. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ط ٨، ص ٣٢١، وحيث يأتي يشار إليه: فقه السيرة البوطي.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، م ٦، ج ٢٦، ص ٣٣١٨.

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقائه المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية... ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع. فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه. ويبدو هذا في تباطئهم عن النحر والحلق، حتى قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً^(١) وهم من هم طاعة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتنالاً... ولم ينحروا أو يحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل هذا بنفسه.

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة، لا ينوون قتالاً، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً ثم فوجئوا بموقف قريش وبما شاع من قتلها لعثمان.... فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له، رغم أنهم لم يتوقعوا هذا وما كانت نفوسهم قد خرجت له.... ثم انتهى الأمر بالمصالحة بعد البيعة....

ولكن سرعان ما انتهت هذه الكآبة والحزن وزال الغم واتضح المبهم حينما تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الفتح التي تنزلت عليه عقب الفراع من أمر الصلح كما أنزل الله عليهم السكينة ليزداد إيمانهم وتبشيرهم بالمغفرة والثواب "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً" ٤ .

وحين يسترجع الإنسان هذه الأحداث يدرك معنى قوله تعالى "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين" ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة. ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب. (١)

٢- تناسبت السورة والجو في بيان فقدان الوعي عند المشركين وعدم التزامهم بتقاليدهم. وشأنهم شأن الجاهلية في كل عصر. فيلاحظ أن المشركين قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة حتى في الأشهر الحرم - ذمة القعدة وذى الحجة ومحرم ورجب - التي يعظمها العرب كلهم في الجاهلية ويضعون السلاح فيها.... ولكنهم خالفوا تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن وصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه طوال السنوات وحتى هذه السنة السادسة!

(١) مسند الإمام أحمد. حديث رقم ١٨٩٥٠، ج ٦، ص ٥٠٠

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، م ٦، ج ٢٦، ص ٣٣١٨ .

فيلاحظُ أن رسلَ قريشٍ خلالَ التفاوضِ كانتَ تَعُدُّو على رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وتروحُ فلا يعترضُها أحدٌ. أما رسلُ المسلمين إلى قريشٍ فكادت أن تتعرضَ للهلاكِ. كادَ خراشُ بن أمية الخزاعيُّ يُقتلُ، لولا أن أنقذه الأحييشُ، فرجعَ وقد عقرَ جملَه (١).... فالرسلُ لا تُقتلُ، بيدَ أن غليانَ قريشٍ أفقدها الوعي!

والرجلُ إذا فقدَ وعيَه لا يبالي أن ينتحرَ. وقد انحرفَ كبراءُ مكةَ عن الصراطِ السويِّ. ولم يكثرثوا للمصيرِ القاتمِ الذي ينتظرهم إذا ركبوا رؤوسهم. فلو اصطدمَ المسلمونَ بهم ما قامتَ لهم قائمةٌ ولأصبحتَ حرماتُ مكةَ في صميمها "ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبارَ ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنةَ الله التي قد خلت من قبلٍ ولن تجدَ لسنةِ الله تبديلاً" : ٢٢-٢٣ . (٢)

٣- ربط بين السبِّ المؤدِّي إلى استنفارِ جمهورِ المسلمين بدخولِ مكةَ وبين تفكيرِ زيارةِ المسجدِ الحرامِ.

فالسبِّ المؤدِّي إلى استنفارِ جمهورِ المسلمين لدخولِ مكةَ رؤيا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في منامه أنه يدخلُ الكعبةَ هو والمسلمين حلقين رؤوسهم ومقصرين. فكيف جاءَ التفكيرُ في زيارةِ المسجدِ الحرامِ مع أن الحربَ ما زالت قائمةً بينهم وبين قريشٍ؟ والجوابُ أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بهذا النسكِ المنشودِ إقرارَ حقِ المسلمين في أداءِ عبادتهم وإفهامِ المشركين أن المسجدَ الحرامَ ليس ملكاً لقبيلٍ يحتكرُ القيامَ عليه ويمكنه الصدُّ عنه.... فهو ميراثُ الخليلِ إبراهيم عليه السلام. (٣)

٤- توجيهُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى ما ينبغي أن يكونَ موقفهم مع المخلفين عن الخروجِ إلى تلكِ الساحةِ. فيفضحُ معاذيرهم ويكشفُ ما جال في خواطرهم من سوءِ الظنِّ باللهِ ومن توقعِ السوءِ للرسولِ صلى الله عليه وسلم ومن معه. (٤) وهذا التوجيهُ جاءَ بعدَ الانصرافِ من الحديبيةِ وقبل الوصولِ إلى المدينة لتكونَ المعاملةُ معهم على بينةٍ.

وإن الأعرابَ المنتشرين حولَ يثربَ ومن على شاكلتهم من المنافقين عرفوا أن أهلَ مكةَ سوفَ يقاتلونَ محمداً صلى الله عليه وسلم. وأنه إذا أُبِيَ إلا زيارةَ البيتِ كما أعلنَ، فلنَ تدعَه قريشٌ حتى تهلكَ أو تهلكَ هي دونَ إبلاغه مأربَه.... فهي إذنَ عمرةٌ مخوفةٌ بالأخطارِ في نظرهم... والفرارُ منها أجدى!. (٥)

(١) السيرة النبوية. ابن هشام. م/٣، ص/٤٣٦.

(٢) فقه السيرة. الغزالي. ص: ٣٢٨-٣٢٩.

(٣) المرجع السابق ص: ٣٢٢. (٤) انظر: الفتح: ١١-١٦. (٥) فقه السيرة. الغزالي ص: ٣٢٣.

ولو فرض أن الرسول صلى الله عليه وسلم نجح في مقصده هذا، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل.... فهنا السر في تقديم توجيه الرسول والمؤمنين في قوله "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً": ١١-١٢ .

المطلب الثالث: التناسب الدعوي بين سورة الكهف وجو نزولها.

إن السورة مملوءة بالقصص. في أولها تجيء قصة أصحاب الكهف. وبعدها قصة الجنيتين. وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح. وفي نهايتها قصة ذي القرنين. وتستغرق هذه القصص معظم آيات السورة، فهي واردة في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية. ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها، وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة. (١)

وكونها من السور المكية لا شك في ذلك استناداً إلى حديث رواه البخاري أن سورة الإسراء والكهف ومريم: "إنهن من العتاق الأول وهن من تلابي". (٢)

ولعل الطبري في تفسيره قد بسط الحديث عن جو نزول هذه السورة. حيث إن قريشاً قد بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحرار يهود بالمدينة. فقالوا لهم: "سلوهم عن محمد. وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى قدما المدينة. فسألوا (٣) أحرار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا (٤) لهم أمره وبعض قوله. وقالوا: "إنكم أهل التوراة. وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا" فقالت لهم أحرار يهود: "سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل. وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف. بلغ مشارق الأرض ومغاربها. وما كان نبؤه؟ وسلوه عن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤م، ج ١٥، ص ٢٢٥٦ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب/٦٥، حديث رقم ٤٧٠٨، ٨م، ج ٨، ص ٣٨٨، وقال ابن الأثير في النهاية: (العتاق الأول) السور التي أنزلت أولاً بمكة وأنها من أول ما تعلمه من القرآن. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر الإمام مجد الدين أبو السعدات المبارك ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ج ٣، ص ١٧٩، وحيث يأتي يشار إليه: النهاية، ابن الأثير. (بلاي) أي من أول ما أخذته وتعلمته بمكة. انظر: النهاية، ابن الأثير، ج ١، ص ١٩٤ .

(٣) هكذا في الرواية: بصيغة الجمع. (٤) هكذا في الرواية: بصيغة الجمع.

الروح ما هو؟ فإن أُخبركم بذلك فإنه نبيٌّ فاتبعوه وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول. فاصنعوا في أمره ما بدا لكم". فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش. فقالوا: "يا معشر قريش: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. قد أمرنا أحيارٌ يهود أن نسأله عن أمور. فأخبروهم بها". فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: "يا محمد أخبرنا...". فسألوهم عما أمرتهم به. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبركم غدا بما سألتكم عنه" ولم يستثن فأنصرفوا عنه. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: "وعدنا محمد غدا. واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألتناه عنه" وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف... (١)

وإن المشركين لما أهمهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وازدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته بعثوا النضر وعقبة إلى أحيار اليهود بالمدينة يسألونهم رأيهم في دعوته وهم يطمعون أن يجد لهم الأحيار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به تكذيبهم إياه... (٢)

إن السورة - فيما يبدو - نزلت قبيل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة إذ إن الرسول في هذه الفترة بدأ بعرض الدعوة على القبائل من أهل المدينة في موسم الحج ودعوتهم إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان. فأسلموا وعادوا إلى المدينة فذكروا لقومهم لقيامهم النبي صلى الله عليه وسلم وما دانوا به من الإسلام.

وكان أهل المدينة يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود وإفهام عقيدة التوحيد. وربما حاورهم اليهود في شؤون الأديان ونعموا عليهم عبادة الأوثان، فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود: يوشك أن يبعث الله نبياً فتبعه وتقتلكم معه... (٣)

فالعرب الأميون الذين هُددوا بمبعثه - بالطبع - قد فتحوا مسامعهم له وحينما جاؤوا إلى مكة كثر سؤالهم عن أخبار النبي صلى الله عليه وسلم. وكان هذا التساؤل يُزعج قريشاً. ونظراً لأن الوفود جاءت من المدينة فبعثت قريش شخصين ليأخذا الفتاوى من أحيار

(١) جامع البيان، الطبري، ٩م، ج ١٥، ص ١٩١-١٩٢. وقال المحققان بعد تخريج هذا الحديث في رواية ابن إسحاق من السيرة النبوية لابن هشام: "فيكون الحديث صحيحاً". انظر السيرة النبوية. ابن هشام. تحقيق الدكتور همام

سعيد ومحمد بن عبدالله. م، ص ٣٧١-٣٧٢.

(٢) التحرير والتنوير. ابن عاشور، ج ١٥، ص ٢٤٢.

(٣) فقه السيرة. الغزالي ص ١٤٢-١٤٣.

اليهود الذين يسكنون بجوارهم ويكثرون الحوار الديني بينهم. وذلك ليكون ضربة قاسية تفصل الوفود عن محمد صلى الله عليه وسلم!

وقريش لم تكن بحاجة إلى مثل هذا السؤال والاستفسار للتأكد من صدق محمد صلى الله عليه وسلم لأن محمداً قد عاش بينهم وليداً وتزعزع في ديارهم وهم أعرف الناس بشؤونه كلها. (١)

وبمثل هذا الجو نزلت سورة الكهف. فما هو إذن وجه التناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها؟

أولاً - تسمية السورة بسورة الكهف مأخوذة من قصة أصحاب الكهف المذكورة في هذه السورة ولعل تسميتها بذلك لكونها عمود السورة والموضوع الرئيسي في السورة، إذ إنها ذات صلة وثيقة بجو نزول السورة.

فالسورة كما ذكرنا نزلت قبيل الهجرة النبوية . والهجرة قضية كبيرة خفيفة على اللسان ثقيلة في الواقع . كيف لا؟ فإنها تعني ترك العائلة وترك العشيرة وترك الوطن. ثم الاتجاه إلى مكان - بالطبع - لا تعرف حقيقته أو استقبال أهله له!

فجاءت سورة الكهف وفيها قصة أصحاب الكهف وهي خبر الفتية المؤمنين الذين عاشوا في الزمن الماضي، وهي بمثابة تهديد وتخفيف لعبء هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لكي لا يشعر محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بثقل الهجرة إذا جاء الأمر في ذلك فيما بعد بشأنها.

وستكون المدينة كهف مثل كهف الفتية الذين آمنوا بربهم من أهل الكهف. فهؤلاء الفتية يستروحون عبير الرحمة الإلهية ينشرها الله في أرجاء كهفهم بعد أن فارقوا قومهم المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله، حيث هجروا قومهم طلباً لمرضات الله ورغبة فيما عنده: "وإذا اعتزتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا" الكهف: ١٦ . (٢)

وفي نفس الوقت يصور موقف مشركي مكة بموقف المشركين المعاصرين لأهل الكهف والذين قام أهل الكهف ينكرون عليهم شركهم ويدعونهم إلى عبادة الله الواحد: "هؤلاء

(١) انظر كلام النضر بن الحارث بشأن محمد صلى الله عليه وسلم - على سبيل المثال - في السيرة النبوية، ابن هشام، انظر: السيرة النبوية: ابن هشام. ١م، ص ٣٦٩-٣٧٠ .

(٢) كلمة العدد، د. فرحات، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة الخامسة، العدد الثاني عشر، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ص ١، وحيث يأتي يشار إليه: كلمة العدد، د فرحات.

قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً" الكهف: ١٥. (١) ثم أشارت القصة إلى نهاية الدعوة الإسلامية في مكة وأنها ستكون بالنصر بعد الهجرة مثل نصر الله للفتية حين يعلمون أن دولة الشرك التي اضطهدتهم قد زالت من الوجود. وفي حين أشارت إلى أن نهاية كيد المشركين من أهل مكة سينتهي بالهزيمة وسوء العاقبة في صراعهم مع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. ثانياً - إن السورة كما ذكرنا نزلت جواباً لاستفسار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم. لذلك تضمنت إجابة لما طلبه المشركون من خبر الفتية المؤمنين الذين عاشوا في الزمن الماضي (أصحاب الكهف) وخبر الرجل الذي جاب الأرض شرقاً وغرباً (ذي القرنين). (٢)

والذي يلفت النظر أن السورة بجوار الإجابة عن هذا السؤال قد أوردت خبر موسى عليه السلام مع الرجل الصالح. وهو الأمر الذي لم يطلبه اليهود!

وكأن في ذكر هذا الخبر إشعاراً لليهود بأن عليهم أن يتنازلوا عن كبريائهم وأن يكونوا أكثر تواضعاً وأن يعلموا أن ما اقترحوه على المشركين من أسئلة يلزمهم مثلها فيما أخبرهم به من شأن موسى عليه السلام مما لا يعرفه غيرهم. وبذلك تلزمهم الحجة كما لزم المشركين بعد أن أخبر الله كلاً الفريقين بما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي والنبوة، وأن على اليهود أن يقتدوا بنبيهم موسى عليه السلام والذي لم تمنعه منزلته عند الله ومكانته في أولى العزم وعلمه بالتوراة المتزلة عليه من أن يجسري وراء الرجل الصالح يطلب العلم ويستزيد منه. (٣)

ففي ذكر هذا الخبر تعريض بموقف اليهود من النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم يعرفون خبره وصدقه، ومع ذلك يعرضون عنه حقداً وحسداً واستكباراً. وكان الأجدر بهم أن يتبعوه ويصدقوه ويؤمنوا بالكتاب الذي أنزل عليه مصدقاً لما قبله من التوراة والإنجيل والكتب السابقة. (٤)

(١) كلمة العدد، فرحات ص ١٠.

(٢) أما عن الروح، فقد جاء الجواب في سورة الإسراء في قوله: "ويسأونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيت من العلم إلا قليلاً" الإسراء: ٨٥. ويبدو أن نزول سورة الإسراء استمر إلى وقت نزول سورة الكهف، فأُنزل القرآن منجماً عليها وعلى سورة الكهف. والتفريق بين الجواب عن الروح والقصتين يحتمل أن تكون آية الروح قد نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء. فإنها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها. ولأن الجواب فيها جواب بنفويض العلم إلى الله. وهو مقام يقتضي الإيجاز، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطاً وإطناباً ففرقت آية الروح عن القصتين. انظر: التحرير والتنوير. ابن عاشور ج ١٥ ص ٢٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٩-١٠.

(٤) كلمة العدد. فرحات ص ٩.

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب منهم. ثالثاً - وإذا كانت السورة مملوءةً بالقصص وإلى جوارها بعض مشاهد القيامة فإنها تؤكد للمشركين ومن وراءهم من اليهود صدق دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقته فيما جاءهم به من أمر النبوة عموماً لأن هذه كلها لا يعرفها شخص إلا نبي مرسل! وإضافةً إلى هذا التأكيد فإن السورة في نفس الوقت جاءت تلبيةً لحاجة الدعوة الإسلامية الناشئة ومتطلباتها الملحة، وذلك بعد أن بدأت صراعها مع المجتمع الجاهلي من حولها وغدت أحوج ما تكون إلى التوجيه والتسيّد لترسخ القيم الإسلامية الجديدة، وبناء المجتمع الإسلامي الوليد على أنقاض المجتمع الجاهلي المتداعي.

ومن ثم كانت السورة في جملتها بشاراً للمؤمنين برحمة الله لهم ونصرهم على عدوهم كما أنها إنذارٌ للكافرين ببأس الله وعذابه والهزيمة التي تنتظرهم على أيدي المؤمنين المخلصين. وهي حاجة متجددة دائماً وإبداً طالما أن هناك صراعاً بين جنود الرحمن وأتباع الشيطان. (١)

وتتجلى البشارة والإنذار في قصص السورة كما تتجلى في مشاهد القيامة سواء بسواء. فمثلاً في قصة الجنتين: يرى المؤمنون أنفسهم في موقف الرجل المؤمن الفقير الصابر الشاكر الناصح. في حين يرى المشركون أنفسهم في موقف صاحب الجنتين المتكبر البطر الظالم لنفسه المعتز بماله وولده وجاهه المغتر بدينه الغافل عن أخراه كما يرى كل فريق من المؤمنين والمشركين عاقبته فيما آل إليه صاحبه من مصير. فأما صاحب الجنتين: "وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً" الكهف: ٤٢-٤٣، وأما ذلك الفقير الشاكر فقد أثابه الله على موقفه خيراً: "هناك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً" الكهف: ٤٤ .

كذلك يرى المشركون أنفسهم في مثل الحياة الدنيا السريعة الزوال وقد شغلتهم زينتها الفانية بما فيها من مالٍ وبنين: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" الكهف: ٤٦ . كما يرى المؤمنون أنفسهم في العمل الصالح الذي يبقى أثره ويخلد ذكره ويستوجب من الله المثوبة والأجر: "والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً" الكهف: ٤٦. (٢)

(١) كلمة العدد، د. فرحات، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١١-١٢ .

ثم مشهد من مشاهد القيامة يثير الرعب وينشر الخوف بما يحمل من هول وكرب وينذر به المشركون إذ يرون أنفسهم في مواجهة الحساب: "ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه" الكهف: ٤٩ "ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً" الكهف: ٥٣ .

وفيما جرى للأمم السابقة المكذبة من العذاب الدنيوي إنذار للمشركين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ومن رحمته بهم أن لا يعاجلهم بالعقوبة. وأن يترك لهم فرصة التوبة: "وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً. وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً" الكهف: ٥٨-٥٩ . (١)

والمثال الثاني في قصة ذي القرنين.

وهي في جملتها بشارة للمؤمنين المستضعفين أن ما هم فيه من ضعف وقلة لن يدوم ولن يستمر، وأنه مرحلة لا بد منها على طريق التمكين في الأرض الذي وعدهم الله به. وأن عليهم إذا مكن الله لهم أن يسيروا بسيرة ذي القرنين. وأن ينسجوا على منواله، فهو الحاكم العادل المؤمن الذي ينشر رحمة الله بين عباده. (٢)

وتتجلى البشارة بالرحمة للمؤمنين والإنذار بالعذاب للكافرين في القصة في موقف ذي القرنين من القوم الذين وجدهم عند مغرب الشمس والذين أطلق الله يده فيهم يفعل بهم ما يشاء، فلم يكن منه إلا أن قال: "أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً" الكهف: ٨٧-٨٨ .

وكذلك تتجلى البشارة والإنذار في موقفه من القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، والذين طلبوا منه أن يبني لهم سداً يحول بينهم وبين تدفق السيل البشري الهمجي "يأجوج ومأجوج" مقابل ما يدفعونه إليه، إلا أن رحمته بالمستضعفين ومعاقبته للكافرين يبيان عليه أن يأخذ مالا مقابل ذلك، وإنما طلب إليهم أن يعملوا معه ليعلمهم كيف يكون العمل والبناء. وبعد أن أتم العمل وأقام السد واختبر صلاحيته قال: "هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً" الكهف: ٩٨ .

(١) كلمة العدد، د. فرحات، ص ١٢ . (٢) المرجع السابق ص ١٣ .

وبعد قصة ذي القرنين يأتي التعقيب الأخير ليعرضُ مشاهدَ من القيامة، فيها الإنذار للكافرين "ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا" الكهف: ١٠٦، وفيها البشارة للمؤمنين "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولا" الكهف: ١٠٧-١٠٨. وفيها دعوةٌ إلى عبادة الله وتوحيده والإيمان بالآخرة لأنها الطريق الوحيد الموصل إلى جنة الله ورضوانه. (١)

المبحث الرابع

التناسب الدعوي في المرحلة في الجهاد.

المطلب الأول: الجهاد ومراحله.

الجهاد أنواع. هناك الجهاد باللسان وذلك ببيان شرائع الإسلام ودحض الأباطيل المفتراة عن الإسلام، والجهاد بالمال بإنفاقه في وجوه البر، لا سيما على الغزاة والمقاتلين في سبيل الله بشراء العتاد والأرزاق لهم والجهاد بالنفس بمقاتلة اعداء الله. وإذا أُطلق الجهاد فإنه يراد به الجهاد بالنفس أي القتال. (١)

وطبيعة الجهاد في الإسلام هي تقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبين لسلطان الله وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله بالقوة وغيزها إلى الدينونة لله وحده.... ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في الأرض كلها لتحرير الإنسان كله. (٢)

المسلمون في مكة لم يكونوا مأمورين بالقتال. فلما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأيده بنصره بعباده المؤمنين الأنصار... أذن لهم حينئذ في القتال. (٣) ومن زعم أن قوله تعالى: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" الحج: ٣٩ دليل على الإذن بالقتال في مكة لأن السورة مكية فهو غلط. وذلك لوجوه (٤):

أولاً: إن سياق الآية يدل على أن الإذن بالقتال إنما هو بعد الهجرة و بعد إخراجهم من ديارهم فإنه قال: "الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله" الحج: ٤٠ وهؤلاء هم المهاجرون.

ثانياً: إن قوله تعالى: "هذان خصمان اختصموا في ربهم" الحج: ١٩، نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين. (٥)

(١) أصول الدعوة. عبد الكريم زيدان. مؤسسة الرسالة، بيروت. ومكتبة البشائر عمان. ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م ط ٣، ص/ ٢٧٣، وحيث يأتي يشار إليه: أصول الدعوة، زيدان. وانظر أيضاً: قبسات من حياة الرسول. الشيخ أحمد محمد عتاف. دار إحياء العلوم. بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م. ط ١٠، ص ٦٤ وحيث يأتي يشار إليه: قبسات، عتاف .

(٢) معالم في الطريق. سيد قطب. ص / ٦٦ - ٦٧ و ٧٦ .
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية، تحقيق وتخريج وتعليق: شيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة بيروت ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت. ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م. ط ٢٣، ج ٣، ص / ٦٩ - ٧٠ وحيث يأتي يشار إليه: زاد المعاد، ابن القيم.

(٤) المصدر السابق ص ٧٠-٧١

(٥) صحيح البخاري، كتاب ٦٥، حديث رقم ٤٧٤٣ - ٤٧٤٤ . م ٨ ، ج ٨ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

ثالثاً: قد خاطب الله المؤمنين في آخر السورة بقوله: "يا أيها الذين آمنوا" والخطابُ بذلك كلُّه مدنيٌّ فأما خطابُ "يا أيها الناس" فمشترك. (١)

رابعاً: وروى عن ابن عباس أنه قال: "لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم؟ إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. فأنزل الله عز وجل "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" الحج: ٣٩. فقال أبو بكر: لقد علمت أنه سيكون قتال (٢). وهي أول آية نزلت في القتال. (٣)

وهكذا ثبت أن الإذن بالقتال كان بالمدينة، ثم كان القتال المفروض عليهم على مراحل. ويقصد بالمرحلة المراحل التي مرَّ بها تشريعُه وبيانُ أحكامه.

وفي الكلام عن مراحل الجهاد التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية، فإن لابن القيم في زاد المعاد تلخيصاً جيداً في ذلك. وقد قال ذلك تحت عنوان: "فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل". (٤)

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مأذوناً له في الجهاد في مكة. ومكث في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله، والعذاب ينصبُّ على أصحابه من كل جانب، بل تصدى له المشركون فنالوا منه صلوات الله وسلامه عليه وعذبوا أصحابه. وكانت الآيات تنزل ولكنها لا تشرع القتال. (٥)

والحرب التي أعلنتها قريش في هذه المرحلة لا تخرج عن الأساليب التالية: (٦)

- ١- الإشاعة الكاذبة للضغط على المجتمع.
- ٢- الاضطهاد والتعذيب للضغط على الأتباع.
- ٣- الحرب النفسية بالمساومات لإفساد مضمون الدعوة.

(١) زاد المعاد، ابن القيم، ج ٣، ص ٧٠.
(٢) سنن الترمذي، كتاب ٤٨، باب ٢٣، حديث رقم ٣١٧١. ج ٥، ص ٣٢٥. وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) زاد المعاد، ابن القيم، ج ٣، ص ٧١.
(٤) المصدر السابق، ص ١٥٨-١٦١.
(٥) الجهاد في التصور الإسلامي. إبراهيم النعمة. مطبعة الجمهور - الموصل، الجمهورية العراقية. ١٩٨٢م. ص ٣٢، وحيث يأتي يشار إليه: الجهاد، إبراهيم نعمة.
(٦) الجهاد في الإسلام منهج وتطبيق. الدكتور رؤوف شلي، دار القلم، الكويت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. ط ١ ص ٣٩، وحيث يأتي يشار إليه: الجهاد في الإسلام، رؤوف شلي

وبقي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مكة إلى أن أذن الله له بالهجرة وأذن له بالقتال وأمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد وأمر أن يقاتل من نقض عهده. (١)

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام. حيث أمر أن يقاتل أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية. وأمر بقتال الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان. وجعل أهل العهد في السورة ثلاثة أقسام: فالذين نقضوا العهد أمر بقتالهم والذين لهم عهد مؤقت أمر أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم.... والذين لهم عهد مطلق أمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم.... ونتج عن ذلك أن أسلم أصحاب العهود هؤلاء. (٢)

واستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة إلى ثلاثة أقسام: محاربين ومعاهدين وذميين. وبعد أن أسلم المعاهدون صاروا قسمين: محاربين وذميين. وصار أهل الأرض مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد سورة براءة ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ومسلم له آمن وخائف محارب. (٣)

المطلب الثاني: التناسب الدعوى في المرحلية في الجهاد.

وبعد هذا الاستعراض عن مراحل الجهاد نحاول أن نرى ما هو التناسب الدعوى فيها. فإن الحديث عنه ظاهر من خلال الدروس التالية:

١- إن المراحل في الجهاد تعبر عن طبيعة الدعوة الهادئة المتأنية.

(١) زاد المعاد. ابن القيم، ج/٣، ص/١٥٩.

(٢) المنهج الحركي، الدكتور صلاح الخالدي. ص/٤٥٩-٤٦٠. وانظر أيضا: زاد المعاد، ابن القيم ج٣، ص١٥٩-١٦٠.

(٣) المنهج الحركي، د. صلاح الخالدي. ص/٤٦٠. وانظر أيضا: زاد المعاد ابن القيم ج٣، ص١٦٠. وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكف سرايرهم إلى الله. وأن يجاهدهم بالعلم والحجة وأمره أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاه أن يصلي عليهم وأن يقوم على قبورهم وأخير أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم. انظر: زاد المعاد ابن القيم، ج٣، ص١٦١.

أُتْلَحَظُ أَنَّ خِطَّةَ الْجِهَادِ وَضَعَتْ بَتَأْنٍ دُونَ عَجَلَةٍ رَغْمَ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَشْكُونُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أذى الكفار. (١)

وذلك لأن العجلة تورث الندامة وطبيعة الدعوة هادئة متأنية. ومن علامات الجهاد الصبر. وأول مراحل التربية في الجهاد بالسيف الجهاد بالصبر حتى لا يُرْفَعَ سَيْفٌ إِلَّا فِي حَقِّ وَمِنْ أَجْلِ الْحَقِّ. وَلَوْ اسْتخدمتِ الدَّعْوَةُ الْجِهَادَ بِالسَّيْفِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ لَمَا أُمِكنَ التَّمييزُ بَيْنَ سَيْفٍ يُرْفَعُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَسَيْفٍ يُرْفَعُ لِلتَّأثيرِ أَوْ الْحَمِيَةِ أَوْ الْغَضَبِ مِنْ أَجْلِ الذَّاتِ أَوْ الْقَوْمِيَةِ... (٢)

٢- إن المراحل أيضا عبارة عن خطة ربانية أوحى بها الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وكان قدرُ الله عز وجل أن يدخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جميع مراحلها وأن يكلفهم بتنفيذ جميع بنودها.... وذلك لكي يلتزموا بمنهج ربهم الذي كان ينزل به الفرقان على رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل مرحلة. وإذا تأهلوا لدخول المرحلة التالية تنزلت عليهم آيات جديدة وتكاليف جديدة تناسب المرحلة الجديدة.... وهكذا استطاع الجيل الأول من أجيال دعوة الاسلام أن يصلوا إلى المرحلة النهائية في الجهاد وصاروا مكلفين بنشر دين الله في مختلف بقاع الأرض وقتال الكفار في اقطارها. (٣)

٣- ومن مراحل الجهاد هذه تتجلى عدة سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين، منها:-(٤)

السمة الأولى: هي الواقعية الجديدة في منهج هذا الدين. فهو حركة تواجه واقعا بشريا بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي.... وهي تواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية عملية تسندها سلطات ذات قوة مادية...

ومن ثم فإن الحركة الاسلامية تواجه هذا الواقع كله بما يكافؤه من الدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات كما أنها تواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها التي تخضعهم بالقهر والتضليل ليعبدوا غير ربهم الجليل.

(١) انظر على سبيل المثال قصة خباب بن الأرت في سنن أبي داود، كتاب الجهاد: سنن أبي داود. كتاب الجهاد.

حديث رقم ٢٦٤٩. ٢م، ٣ ج، ص ٤٧.

(٢) الجهاد في الاسلام، رؤوف شليبي، ص ٤١. (٣) الجهاد مبادئه وأساليبه. الأستاذ الدكتور محمد نعيم ياسين. دار

الفرقان. عمان ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ط ٣ ص ٧٩، وحيث يأتي يشار إليه: الجهاد مبادئه وأساليبه. نعيم ياسين.

(٤) معالم في الطريق، سيد قطب ص ٦٤.

"إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد.... وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده". (١)

السمة الثانية: هي الواقعية الحركية. لأن الدين حركة ذات مراحل، وكل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية. وكل مرحلة تمهد للمرحلة التي تليها... فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل جامدة.... والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ولا يراعون هذه السمة فيه ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها يخلطون خلطاً شديداً ويلبسون منهج هذا الدين لباساً مضللاً ويحملون مالا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية. ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً يمثل القواعد النهائية في هذا الدين. (٢)

السمة الثالثة: إن هذه الحركة الدائبة والوسائل المتجددة لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة. ولا عن أهدافه المرسومة ومنذ اليوم الأول سواءً فهو عندما يخاطب العشرة الأقربين أو يخاطب قريشاً أو يخاطب العرب أجمعين أو يخاطب العالمين إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة. ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد وهو إخلاص العبودية لله والخروج من العبودية للعباد. ولا مساومة في هذه القاعدة ولا لين.... ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد في خطة مرسومة ذات مراحل محددة ولكل مرحلة وسائلها المتجددة - كما ذكرنا سابقاً-. (٣)

٤- المرحلية في الجهاد تلقي درساً مهماً للدعوة الإسلامية إذ للمسلمين أن يعملوا بحكم أي مرحلة منها إذا كانت ظروفهم فيها مشابهة للظروف التي نزلت فيها آياتها... والذين لا ينتبهون إلى هذا الدرس سيضطرون بالقول إلى مواجهة الواقع بما لا يكافؤه وبالتكليف بما هو فوق الطاقة. (٤)

قال سيد قطب رحمه الله: "إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة. وذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي

(١) معالم في الطريق، سيد قطب ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٤-٦٥ . (٣) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٤) الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغاياته، دة عبدالله بن أحمد القادري، دار المنارة، جدة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ط ١، ج ١، ص ١٨٩، وحيث يأتي يشار إليه، الجهاد في سبيل الله، أحمد القادري.

تحدد - عن طريق الاجتهاد المطلق - أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف، وفي زمان من الأزمنة، وفي مكان من الأمكنة. مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام. كما كان حالها منذ نزول سورة التوبة... (١)

فيجوز للأمة المسلمة في مرحلة الضعف أن تأخذ بمرحلة من مراحل الجهاد السابقة لكن على أنها مرحلة وليست صفة عامة وحكماً نهائياً. وأنها حالة اضطرارية خاصة يجب العمل على تجاوزها إلى المرحلة النهائية للجهاد كما هو في بيان القرآن الكريم. (٢)

إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا. وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة. وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر تطبيقها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى، وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين... إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها، في إزالة العوائق عن طريقها حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة. (٣)

٥- إن القتال لم يشرع مرة واحدة وإنما على مراحل لحكمة دعوية.

فقد أمر المسلمون بكف أيديهم عن القتال في مكة على الرغم من اعتداء المشركين عليهم وإيذائهم بكل ألوان الأذى وكان المناسب في منطق الإنسان أن يصدر قراراً بوجوب القتال.... ولكن لم يكن حال الأمر بالقتال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة.

وقد تعرض لذلك سيد قطب في ظلال القرآن. فبين أن الفترة المكية كانت فترة إعداد وتربية للأفراد الذين عاشوا قبل إسلامهم بأخلاق خاصة فردية اندفاعية... والآن لا بد وأن يتعودوا على الأخلاق الدعوية والمعاني التنظيمية... وأن الدعوة السلمية في المجتمع الجاهلي كانت أشد تأثيراً من الصراع المسلح. ولو كانت الدعوة قتالية من يومها الأول فإن موقف الكفار منها هو العناد والقتال منذ اليوم الأول وأنه لو أذن للمسلمين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣م، ج ١٠، ص ١٥٨٠.

(٢) المنهج الحركي، د. صلاح الخالدي، ٤٥٨-٤٥٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣م، ج ١٠، ص ١٥٨١.

في القتال لقامت معركة بين القريب وقريبه في داخل كل بيت لأنه لم تكن في مكة سلطة نظامية تواجه المسلمين وتعذبهم. وإنما كان كل بيت يتكفل بتأديب وتعذيب مسلميه. وقد يكون ذلك سبباً في نفور الناس من الإسلام. كما أن الله تعالى قد علم أن كثيراً من المعاندين الذين كانوا يفتنون المؤمنين سيكونون بعد من جنود الإسلام. ويضاف إلى ذلك أنه كان يوجد في المجتمع الجاهلي من ينصر المظلوم الكريم الذي يحتمل الأذى. وربما كان ذلك لأن عدد المسلمين قليل وكانوا محصورين في مكة ولو واجهوا المشركين مقاتلين لهم بالسلاح لتمت إبادتهم وزالت الدعوة الإسلامية. (١)

فأما بعد الهجرة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتسرع بالقتال فوراً. وإنما عقد معاهدة مع اليهود ومع من بقي مشركاً من أهل المدينة ومع المقيمين حولها وكانت طبيعة المرحلة التي تمر بها الجماعة المسلمة تقتضي ذلك. (٢)

وقد كانت الدعوة تهدف من المعاهدة إلى أمرين: (٣)

١- أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يريد اعتراف سكان المدينة ومن حولها بالكيان السياسي للجماعة المسلمة وسلطانها الفعلي على المدينة بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا يعني فتح المجال أمام الدعوة الإسلامية والتحرك بتبليغها للناس دون عوائق.

٢- التفرغ - في هذه المرحلة - لقريش إذ عداوتها للإسلام معروفة ومركزها بين القبائل مرموق. والقبائل تنتظر نتيجة ونهاية المعركة بين قريش والجماعة المسلمة. ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل سرايا لتعرض قوافل قريش. وأول سرية كانت أرسلها بعد الهجرة بسبعة أشهر.

ثم نزلت المراحل بشأن الجهاد بعد ذلك بحسب قوة الجماعة المسلمة في المدينة ونموها وحركتها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣م، ج ٩، ص ١٤٣٨ - ١٤٣٩.

(٢) المنهج الحركي، د. صلاح الخالدي، ص ٤٥٦.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣م ج ٩، ص ١٤٣٩، وانظر أيضاً: المنهج الحركي. د. صلاح الخالدي. ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

الخاتمة

وبعد أن منّ الله عليّ بإتمام هذا البحث وعشت معه ومع القرآن أوقاتاً طيبة ممتعة أخلص إلى النتائج التالية:

١- الحديث عن المناسبات القرآنية حديث رائع مشوق لأنها علم تعرف منه عللُ ترتيب أجزاء القرآن في آياته وسوره طبقاً لترتيب التلاوة في المصحف العثماني. ورغم أنه علم عظيم والحديث عنه رائع مشوق ولكن قد قلّ الحديث عنه سواء في القديم أو في الحديث لصعوبتها ودقتها.

فالمحاولة فيها ليست قليلة، ولكنها لا تخلو من التكلف لإهمال مؤلفيها التقيد خلال دراستهم عنها بنظام معين، وأقرب مثال إلى ذلك ابن شهيد ميسلون محمد بن كمال أحمد الخطيب - ساعه الله - في كتابه المسمى "نظرة العجلان في أغراض القرآن بمناسبة آيات ووحدّة الموضوع في سورة" فإن هذه التسمية تلقى ضوءاً على اكتشاف عظيم في علم المناسبات، ولكن هذا الاسم لا ينسجم مع تصرف الكاتب في كتابه لاشتماله على التكلف من البداية وحتى النهاية.

ويشبهه في ذلك الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم في كتابه "الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره" والدكتور مصطفى مسلم في كتابه "مباحث في التفسير الموضوعي".

وفي القديم نجد الإمام السيوطي في كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور" كما كان قبله وقد وقع بيد الإمام البقاعي في كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" والإمام ابن الزبير في كتابه "البرهان في تناسب سور القرآن" علماً بأن البقاعي نقل عن ابن الزبير كثيراً بل نصوصاً كاملة حينما وصل إلى حديثه عن المناسبة بين السور. إلا أن تكلف البقاعي أقل من السيوطي لأن البقاعي يحاول أن يبحث عن تناسق الآيات في السورة مع مقصود السورة والربط بين السورة وما قبلها بحسب موضوعها ويتمثل غالباً بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها! بينما السيوطي قد ناسب بين السور غالباً بحسب ألفاظها وكلماتها، ومعظم الأحيان بحسب آياتها المتشابهة وفي القليل حسب موضوعها.

وكم كنت أتمنى من هؤلاء دراسة منظمة تراعي ترتيبها في السورة كما ينبغي بين السور على سبيل المثال مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها ومناسبة فاتحة السورة لموضوعها

ومناسبة خاتمة السورة لموضوعها.. وما إلى ذلك.

٢- وبعد هذه الجولة أستطيع أن أقسم المؤلفات في المناسبات وفق التقسيم التالي:
أ- من أفرد بالتأليف: وذلك مثل ابن الزبير والبقاعي والسيوطي والفراهي والغماري وابن شهيد ميسلون والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم.

ب- من عرض له من المفسرين: وذلك مثل الزحشري والفخر الرازي والبيضاوي وأبي حيان ونظام الدين النيسابوري وأبي السعود والألوسي ومحمد رشيد رضا وأحمد مصطفى المراغي ومحمود شلتوت وسيد قطب وسعيد حوى ووهبة الزحيلي.
ج- من عرض له من الكتاب: وذلك مثل الزركشي في "البرهان في علوم القرآن" والسيوطي في "الإتقان في علوم القرآن" والشاطبي في "الموافقات في أصول الشريعة" والدكتور دراز في "النبأ العظيم" وسيد قطب في "التصوير الفني في القرآن" و "مشاهد القيامة".

٣- اتجاهات العلماء في المناسبات القرآنية من الممكن أن نقسمها إلى أربعة اتجاهات:

أ- القول بعدم وجود المناسبة

ب- القول بالمناسبة في حال دون حال

ج- القول بالمناسبة

ز- القول بأكثر من مناسبة

٤- إن السبب الرئيسي لوقوع العلماء في التكلف خلال حديثهم عن المناسبات بشكل عام راجع إلى الطريقة التي يلجأ إليها في اكتشاف المناسبة في السور غالب الأحيان وهي طريقة التحليل، إذ إنهم لا يجاوزون الآيتين المتجاورتين وبالتالي ينجصر البحث في معنى الآيتين ولا يتجاوزونهما إلى معان أخرى تفهم من مجموع الآيات في السورة الواحدة التي تتحد فيها الآيات في السور كلها.

وهذه الطريقة تؤدي إلى وقوع المشكلات لأنها لم تكن دائماً تسعفهم في الحصول على المناسبة القوية والارتباط الحقيقي فيلجأون إلى مناسبات ضعيفة ركيكة ربما اضطرتهم إلى شيء من التكلف.

والطريقة المفضلة في ذلك هي أن لا يتقدم الناظر إلى بحث المناسبة بين أجزاء السورة والآيات إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها. ولما كانت مقدرة الباحثين المتأملين في النص القرآني متفاوتة فلا بد من أن تتفاوت النتائج التي ينتهون إليها، ومن ثم فقد تكون هناك أكثر من وجهة نظر في المناسبات

بين الآيات في السورة الواحدة أو بين السور تقوى وتضعف بحسب قوة التأمل وقوة الدليل وضعفهما.

٥- وفي النهاية لا بد من الاعتراف أن المناسبات القرآنية لا تقتصر في مرجعها إلى موضوع رابط بين الآيات والسور فقط كما لا تقتصر في مرجعها إلى المناسبات البيانية والدعوية وإنما هناك مناسبات أخرى تحتاج إلى تطرق آخر مثل التناسب المنطقي بين الآيات وبين السور وغيره.

وبفضل الله وتوفيقه تم هذا البحث.... ومهما بلغ من شأن فإنه يبقى جهدا بشريا سمته الضعف والقصور رغم أنني قد واصلت في مجي هذا الليل بالنهار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ملخص الرسالة

في مناسبات سور القرآن

إن الكاتب في هذه الرسالة يحاول أن يتحدث عن موضوع مناسبات سور القرآن وهي إما أن تكون في السورة الواحدة كما يمكن أن تكون بين السور ويشمل المناسبات الموضوعية والبيانية والدعوية.

واقترنت طبيعة البحث أن تكون في تمهيد وباين وخاتمة.

أما التمهيد فقد تحدث فيه الكاتب عن تمهيد في علم المناسبات .

أما الباب الأول فخصص للحديث عن المناسبات الموضوعية على النحو التالي:

أولاً: التناسب الموضوعي في السورة الواحدة وفيه المباحث التالية:

١- مناسبة فاتحة السورة لموضوعها.

٢- مناسبة خاتمة السورة لموضوعها.

٣- مناسبة قصص السورة لموضوعها.

٤- مناسبة خاتمة السورة لفتحها.

٥- مناسبة المعترضات في السورة.

ثانياً: التناسب الموضوعي بين السورتين المتجاورتين وفيه مبحثان:

١- المناسبة الموضوعية بين السورة والتي قبلها.

٢- المناسبة الموضوعية بين السورة والتي بعدها.

أما الباب الثاني فخصص للحديث عن المناسبات البيانية والدعوية على

النحو التالي:

أولاً: التناسب البياني وفيه المباحث التالية:

١- التناسب البياني بين موضوع السورة وإطارها.

٢- التناسب البياني في صياغة مفردات السورة.

٣- التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه.

٤- التناسب البياني في التفصيل بعد الإجمال.

٥- التناسب البياني في التقابل.

ثانياً: التناسب الدعوي وفيه المباحث التالية:

- ١- التناسب الدعوي في موضوع القرآن المكي.
- ٢- التناسب الدعوي في موضوع القرآن المدني.
- ٣- التناسب الدعوي بين السورة وجو نزولها.
- ٤- التناسب الدعوي في المرحلة في الجهاد.

أمّا الخاتمة فإنها تتضمن أهمّ النتائج التي توصل إليها الكاتب من خلال حديثه في هذه الرسالة.

فهرس للآيات القرآنية

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة	رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
٤١	المائدة	٣١-٣٠	١٣٢	البقرة	٩-٨
١٥٠	=	٤٤	١٠٧	=	١٣-١١
١٣٩	=	٦٧	١٠٨	=	١٣
١٥٦	=	٩١-٩٠	١٠٨ و ١٠٩	=	٣٥
٤١	=	١١٤	١٥٢	=	١٤٣
١٢٤	الأنعام	٩٧	١٥٢	=	١٤٤
٧٩	=	١٦٥	١٥٢	=	١٤٤-١٤٣
١١٤	الأعراف	٤٩	١٥٢	=	١٥٤
١٥٠	=	٥٤	١٠٨	=	٢١٩
١١٨ و ١١٩	=	٥٧	١١٤	=	٢٢٥
١٢٩	=	٩٣-٨٥	١٥٥	=	٢٨٦
٧٠	=	١٥٨	١٣٢ و ٣٠	=	٢٦
٣٧	=	١٧٦	١٣١	آل عمران	٢٦
٥٣	الأنفال	٢	٦٣	=	٢٦
٥٠	=	٣٠	٣٧	=	٦٢
١٠٩	التوبة	٣٨	١٢٦ و ٨١	=	١٠٧-١٠٦
١٣٩	=	٧١	١٣٩	=	١١٠
١١٤	=	٩٧	١١٤	=	١٨٦
٨٨	يونس	١	١٢٨	النساء	٢٤-٢٢
٩٠	=	٢-١	١٥٦	=	٤٣
٨٩	=	٢	١٥٠	=	٦٥
٨٩	=	١١-٧	٣٩	المائدة	١
٨٩	=	١٥-١٣	٤٢	=	٢٣
٨٩	=	١٧	٤٠ و ٤١	=	٢٤
٨٩	=	٣٩-٣٧	٤٠	=	٢٥
١١٥	=	٥٣			
١٢٩	=	٩٨			
٨٨	هود	١			
٩١	=	٢-١			

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة	رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
١١٨	الرعد	١٢-١٣	٩٠	هود	١٨-١٢
٢٩	=	٣٦	٩١	=	١٤-١٣
٢٨	=	٤٣	١٤٢	=	٢٦-٢٥
٣٣	الحجر	١٥-١١	٧٧	=	٢٨
١٢٧	=	٦٦-٦٥	٧٨	=	٢٩
١٢٧	=	٦٦	١٦٢	=	٤٩
١١٤	=	٧٢	١٤٢	=	٥٠
٥٠	=	٧٦	٧٨	=	٥١
١٢٩	=	٧٩-٧٨	٧٧	=	٥٣
١٠٧ و ١٤١	=	٩٦-٩٢	١٤٣	=	٦١
٣٢	=	٩٩-٩٤	٧٧	=	٧١
١٠٧ و ١٤١	=	٩٩-٩٧	١٤٣	=	٨٤
١٢٠	النحل	١٦	١٢٩	=	٩٥-٨٤
١٤٢	=	٣٦	١٦٢	=	١٠٢-١٠٠
١٤٢	=	٥٩-٥٨	١٢٦	=	١٠٨-١٠٥
١٥٥	=	٦٧	١٦٣	=	١١٥-١١٠
٣٤ و ١٣٩	=	١٢٥	١٦٣	=	١٢٣-١٢٠
٣٤	=	١٢٨-١٢٥	٥٤	يوسف	٣-١
١٠٦	الإسراء	٦٠	٣٧	=	٣
٨٢	=	٨١	١٠٦ و ٣٦	=	٥
٥٨	=	٩٤	١٠٩	=	١٧
٣٧	الكهف	١٤-١٣	١٠٨	=	٣٠
١٧٢	=	١٥	١٠٧ و ١٠٦	=	٤٤-٤٣
١٧٢	=	١٦	١٠٦	=	٤٤
١٧٤	=	٤٣-٤٢	١١٤	=	٩١
١٧٤	=	٤٤	١٠٦	=	١٠٠
١١٧	=	٤٥	٧٨	=	١٠٤
١٧٤	=	٤٦	٧٧ و ١٣٩	=	١٠٨
١٧٥	=	٤٩	٥٤	=	١١١

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة	رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
٤٠	الحج	١٧٧	٥٢	الكهف	١٧٥
٦٢	=	١٢٨	٥٩-٥٨	=	١٧٥
٧-١	المؤمنون	١٢٨	٨٨-٨٧	=	١٧٥
٢-٢	=	١٣٢	٩٨	=	١٧٥
٤	=	١١٥	١٠٦	=	١٧٦
٢٠-١٨	=	١٢٨	١٠٨-١٠٧	=	١٧٦
٢٤	=	٨٦	٢٦-٢٠	مريم	٦٢
١١٨-١١٧	=	٦١	٢٥-٤٣	=	٦٢
٢٢	النور	١١٤	٨-١	طه	١٠٢
٤٣	=	١١٩	٢٨-٢٥	=	٨٩
٣-١	الفرقان	١٧	٢٩	=	٤٥
٨٤	الشعراء	٨٤	٤٦-٤٢	=	٤٤
١٣٢	=	١٢٧	٥٩-٥٦	=	٤٤
١٣٤-١٣٣	=	١٢٧	٧١-٧٠	=	٤٤
١٩٠-١٧٦	=	١٢٩	٧٣-٧٢	=	٤٤
١٣	النمل	٤٩	٩٨	=	٤٥
١٤	=	٤٩	١٢٠	=	١٢٦
١٦-١٥	=	٤٨	١٢٤-١٢٣	=	٤٦ و ٤٥
٥٠	=	١٣١	١١٤	=	٦٩
٧٦	=	١٢٨	٥	الأنبياء	١٠٦
٩٠	=	١٣١	٥٢-٥١	=	١٤٢
٤٤-٣	القصص	١٢٨	٥٧	=	١١٥
٢٣	=	١٥٩	٦٧-٦٦	=	١٤٢
٢٥	=	٢٧	٨٠-٧٨	=	١٢٧
٤٨	=	٧٢	٨١	=	١١٨
٥٦	=	٢٣	٨٨-٨٧	=	١٢٩
٧٣	=	١٣٢	٩٠	=	١٠٩
٨٢-٧٦	=	١٢٨	١٩	الحج	١٧٧
٨٧	=	١٢٩	٢٩	=	١٧٧ و ١٧٨

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة	رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
٢٨ - ٢٦	الزخرف	٦٤	١ - ٢	العنكبوت	٥٩
٦١	=	٦٧	٢٧ - ٢٦	=	١٢٩
٨٩	=	١٤١	٦٩	=	٥٩
٢ - ١	الجاثية	٩١	٦ - ١	الروم	٥٩
٢٥ - ٢١	=	٩١	٤٨	=	١١٨
٢٧ - ٢٥	=	٩٢	٥١ - ٤٨	=	١١٩
٢٧ - ٢٦	=	٢٦	٦٠	=	٥٩
٢ - ١	الأحقاف	٩١	٢٧ - ٢٦	السجدة	١٥٥
٣ - ٢	=	٩٢	٢١	الأحزاب	١٢٩
٣	=	٩٢	٥٠	=	١٠٨
٥ - ٢	=	٩٢	٥١	=	١٠٩
٦ - ٤	=	٩٢	٥٩	=	١٠٩
٧	=	٩٢	٢ - ١	سبأ	١٨
٣ - ١	محمد	١١١	٢	=	٢٠
٤	=	١١١	٩	فاطر	١١٩
٨	=	١١١	٧٧	يس	١٣٦
١٠	=	١١١	١٠٥ - ١٠٤	الصفات	١٠٦
١٥	=	١١١	١٣٨ - ١٣٧	=	٥٠
٢٠	=	١١١	١٤٨ - ١٣٩	=	١٢٩
٢٨	=	١١٢	١٦٠ - ١٥٨	=	٦٢
٣ - ١	الفتح	٦٠	٦	ص	١١٥
٣	=	١٦٧	١٣ - ١٢	=	١٢٩
٤	=	١٦٧	٣٦	=	١١٨
٤	=	١٦٨	٥٥	الزمر	١٠٨
٧	=	١٦٧	٢ - ١	فصلت	١٠٣
١٢ - ١١	=	١٧١	١٣	=	١٠٣
١٩	=	١٦٧	٢٦	=	١٠٣
٢٣ - ٢٢	=	١٦٩	٢٦	=	١٢٤
٢٦	=	١٦٧	٢٩	الشورى	١٣٤
			٢١ - ٢٢	الزخرف	٦٤

رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الآية
٢٢	المتحنة	٩	١٦٧	الفتح	٢٧
١٥٩	=	١١	١٠٧	=	٢٩
٥٥ و ٢٤	=	١٣	١٠٥	الحجرات	١٤
١٢١	القلم	٢ - ١	٢٦	=	١٨
١١٢	=	١٦ - ١	١١٦ و ٥٨	ق	٢ - ١
١٢٩	=	٥٠ - ٤٨	١٢٩	=	١٣ - ١٢
١٢٦	الحاقة	٨ - ٤	٥٨	=	٤٥
٢٦	المعارج	٤٤ - ٤٢	١١٧ و ١١٥	الذاريات	٦ - ١
٢٢	نوح	١٠ - ٥	١١٧	=	٢٣ - ٢٢
٥٦	المزمل	٤ - ١	١١٦	الطور	٦ - ١
٨٦	=	١٠ - ١	١٣٧	=	٢٧ - ٢٢
٨٥	=	٩ - ٨	١٢١	النجم	٢ - ٢
١٤١	=	١١ - ١٠	١٢١ و ١٢٠	=	٤٩
٧٨	=	١٣ - ١١	١٢٧	=	٥٠
٨٨	=	١٩ - ١٥	١٢٧	=	٥١
٧٨	=	١٨ - ١٧	١٢٧	=	٥٢
٨٦	=	١٩	١٢٧	=	٥٤ - ٥٣
٥٦	=	٢٠	١٢٧	القمر	١٦ - ٩
٨٥	المدثر	٢ - ١	١٢٧	=	٢١ - ١٨
٨٦	=	٥ - ٢	١٢٧	=	٢١ - ٢٣
٨٥	=	٧ - ٣	١٢٧	=	٢٩ - ٢٢
٨٥	=	٧	١٣٦	الواقعة	٤٥ - ٤١
٧٦	=	١٠ - ٨	٩٣	=	٩٦
٧٨	=	١٧ - ٨	٩٣	الحديد	١
٧٦	=	٥١ - ١١	٩٣	=	١٥ - ١٢
			٧٢	المجادلة	١١
			٥٥	المتحنة	١
			٢٢	=	٦ - ٤
			٢٢	=	٨

رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الآية
٧٦ و ٧٥	القيامة	٤٠ - ٣٦	٨٦	المدثر	١٥
٧٦	النازعات	١١	٧٦	=	١٦
١٢٤	عبس	٢٩ - ٢٥	٨٨	=	٢٥ - ١٨
١٤٢	المطففين	٣ - ١	٨٧	=	٢٨ - ١٨
٥١	البروج	٩	٧٦	=	٢٠ - ١٩
١٠٤	الطارق	٧ - ٦	٧٦	=	٢٥ - ٢٣
١٢٢	=	١٤ - ١١	٧٦	=	٢٩ - ٢٦
١٣٥	الغاشية	٧ - ١	٨٨	=	٢٠ - ٢٦
١٣٥	=	١٦ - ٨	٨٧	=	٤٨ - ٣٨
١٠١	الفجر	٤ - ١	٧٥	=	٤٧ - ٤٢
١٠٤	=	٦	٨٦	=	٥٦ - ٤٥
١٠٠	=	١٤ - ٦	٨٦ و ٧٥	=	٥١ - ٤٩
١٠٠	=	١٦ - ١٥	٧٥	=	٥٣
١٠٠	=	٢٠ - ١٧	٧٥	القيامة	٢ - ١
١٠٠	=	٢٦ - ٢١	٧٦ و ٧٥	=	٤ - ٣
١٠٠	=	٣٠ - ٢٧	٧٦	=	١٢ - ٣
١١٤	البلد	١	٧٥	=	١٢ - ١٠
١١٦	=	٣ - ١	٦٥	=	١٩ - ١٦
١٠٠	الليل	٢ - ١	٧٦	=	٢١ - ٢٠
١٣٢	=	١٠ - ٥	١٣٥	=	٢٥ - ٢١
٩٧	الضحى	٥ - ٣	٦٨	=	٢٣ - ٢٢
٩٧	=	٨ - ٦	١٣٥ و ٦٨	=	٢٥ - ٢٤
٨٥	=	١١	١٣٦	=	٢٣ - ٢٦
٨٥	ألم نشرح	١	٦٨	=	٢٥ - ٢٦
٨٤	=	٦ - ١	٧٦	=	٢٣ - ٢١

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
١ - ٢	التين	١١٦
٤ - ٦	=	٧٩
٢ - ٥	العلق	١٢٢
٦ - ٨	العاديات	٩٨
٩ - ١١	=	٩٨
١ - ٢	القارعة	١٠٤
١ - ٢	العصر	١٠٣
١	الفيل	١٠٤
٢	=	٨٢
٤	=	٨٢
٥	=	٨٢
٢ - ٣	الماعون	١٣٣
٥	=	١٣٣
٦	=	١٣٣
٧	=	١٣٣
١	الكوثر	١٣٣
٢	=	١٣٣
١ - ٢	=	١٠٤
٢	=	١٣٣
٦	الكافرون	٨٠
١	اللب	٨٠

فهرس الأحاديث الشريفة

رقم الصفحة	أول الحديث
١٧٠	- إن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط
٩٦	- "إن من البيان لسحراً"
	- ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
١٦٥	"يا رسول الله أولسنا مسلمين؟..."
١٦٥	- ثم بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان....
١٦٦	- ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب....
١٦٥	- ثم دعا عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة....
١٥٢	- جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم بقلب وجهه في السماء....
١٦٦	- "صدقت"
	- فقد فرض الله على نبيه صلى الله عليه وسلم وسائر
١٤٢	المسلمين خمسين صلاة....
٥٢	- "قد كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ...."
٧٣	- كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادة....
	- كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
٦٩	أنزل الوحي يحرك به لسانه....
٨٢	- "لا إله إلا الله وحده صدق وعده...."
١٦٥	- "لا نبرح حتى نتاجز القوم" ودعا المسلمين إلى البيعة على الجهاد....
١٦٣	- "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ...."
١٦٩	- لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر....
١٢٤	- "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم...."
٥١	- والله إنك لخير أرض الله...."
	- وبعد هذه الرؤيا خرج الرسول صلى الله عليه وسلم
١٦٤	ومن معه من المهاجرين....
١٦٦	- "يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله عز وجل جاعل لك...."
٨٠	- "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا...."
١٦٤	- "يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب!."

فهرس تراجم الأعلام

رقم الصفحة	الأعلام
٢	أحمد بن فارس
٧	ابن الزبير
٨	أبو بكر النيسابوري
٧	البقاعي
٣	الزركشي
٤	السيوطي
٥	الشوكاني
٦	عز الدين عبدالسلام
٧	الغماري
٦	الفخر الرازي
٤	الفراهي
٦٥	القفال
٧	نظام الدين النيسابوري

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الاتقان في علوم القرآن، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: أبو الفضل ابراهيم، مكتبة دار التراث، ط ٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أو تفسير أبو السعود، العلامة أبو السعود، دار الفكر.
- الأساس في التفسير، الأستاذ سعيد حوى، دار السلام، مصر، ط ٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .
- أساليب القرآن، المعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، ١٣٨٩هـ .
- أساليب القسم في اللغة وفي القرآن الكريم، الدكتور أحمد الحوفي، مجلة كلية الشريعة، مطبعة الحكومة، بغداد، العدد الرابع: ١٣٨٧-١٣٨٨هـ / ١٩٦٧-١٩٦٨م .
- أسباب النزول، الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تعليق وتخريج: الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، تقديم رمزي سعد الدين الدمشقي، دار البشائر الإسلامية ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م .
- الإصابة في تمييز الصحابة، شيخ الإسلام أحمد بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت.
- أصول التفسير وقواعده، الشيخ خالد العك، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .
- أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة البشائر، عمان ط ٣، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م .
- إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، المطبعة العامرة، القاهرة، ١٢٨٤هـ-١٨٦٧م .
- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم، وسوره، محمد أحمد يوسف القاسم، ط ١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .
- الإعجاز البياني للقرآن الكريم، مسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية، د عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢ .
- الإعجاز في نظم القرآن، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط ١ ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .
- إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، دار الباز، مكة المكرمة،

- ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- إعجاز القرآن والبلاغة والنبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الفكر العربي، ط ٣، ١٩٢٧م.
- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، لبنان، ط ٦، ١٩٨٤م.
- إمعان في أقسام القرآن، المعلم عبد الحميد الفراهي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي ناصر الدين أبوسعيد عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبدالله محمود شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، ١٩٨٦م.
- إيجاز البيان في سور القرآن، د. محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، ط ٢، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط ٢.
- الإيمان أثره في حياة الإنسان، الدكتور حسن الترابي، دار القلم، كويت، ط ٤، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- البداية في التفسير الموضوعي دراسة منهجية موضوعية، د. عبد الحفي الفرماوي، ط ٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحوم ومجموعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٥، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- بدع التفاسير، عبدالله محمد الصديق الغماري، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٦٥م.
- البديع في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٧٩م.
- بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري: تحقيق: حفي محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، ط ١، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.
- البرهان في تناسب سور القرآن، الإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تقديم وتحقيق، د. سعيد الفلاح، وزارة التعليم العالي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،

- إدارة الثقافة والنشر، المملكة السعودية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
 - البلاغة فنونها وأفنانها، (علم البيان والبديع) د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
 - البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، الاستاذ الدكتور حسن عباس، دار الفرقان، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
 - بيان إعجاز القرآن للخطابي، تحليل ومقارنة ونقد، الدكتور فضل حسن عباس، دراسات: مجلة علمية متخصصة ومحكمة تصدر عن الجامعة الأردنية، عمان، المجلد الرابع عشر، العدد العاشر، صفر ١٤٠٨هـ - تشرين أول ١٩٨٧م.
 - البيان في إعجاز القرآن، د. صلاح الخالدوي، دار عمار، عمان، ١٩٨٩م.
 - تاج العروس جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي.
 - تاريخ الأمم والملوك، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
 - تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.
 - تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، بدران أبو العينين بدران، دار النهضة العربية، بيروت.
 - التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
 - التبيان في علم البيان المطلق على إعجاز القرآن، الزملكاني، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.
 - ترجمة صاحب هذه الرسالة المعلم عبد الحميد الفراهي، السيد سليمان الندوي، دار المصنفين، الهند، ١٣٤٩هـ.
 - التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٩، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
 - التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية، د. شفيع السيد، دار الفكر العربي، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
 - التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت ط١،

١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

- التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني الحنفي، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- تفسير التحرير والتنوير، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير سورة التين، المعلم عبد الحميد الفراهي، بحث مخطوط.
- تفسير سورة الذاريات، د. أحمد حسن فرحات، بحث مخطوط.
- تفسير سورة الفيل، المعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة إصلاح، أعظم كره، الهند.
- تفسير سورة القيامة، المعلم عبد الحميد الفراهي، مكتبة الدائرة الحميدية، الهند، ط٢، ١٤٠٣هـ.
- تفسير سورة اللهب، المعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة معارف، أعظم كره، الهند.
- تفسير سورة النجم، د. أحمد حسن فرحات، بحث مخطوط.
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، الإمام محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٣.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تقديم، د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى، الإمام الأكبر محمود شلتوت، دار الشروق، بيروت - لبنان، ط١٠، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- تفسير القرآن المسمى تبصير الرحمن وتيسير المنان، العلامة علي بن أحمد بن إبراهيم المهامبي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط٣.
- التفسير الكبير، الإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- تفسير المراغي، الأستاذ أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، ١٣٦٥هـ.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الأستاذ د. وهبه الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

- تفسير النفسي الإمام أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المعلم عبد الحميد الفراهي، سلسلة دائرة الحميدية، الهند ١٣٥٧هـ.
- تناسق الدرر في تناسب السور، الإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الفكر، ط ٢.
- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي، بإشراف اللجنة العلمية، بدار الرشيد، دار الرشيد، دمشق.
- جند الله ثقافة وأخلاقاً، الأستاذ سعيد حوى، دار عمار، عمان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- جواهر البيان في تناسب سور القرآن، أبو الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري الحسيني، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الجهاد في الإسلام منهج وتطبيق، د. رؤوف شلي، دار القلم، الكويت، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- الجهاد في التصور الإسلامي، إبراهيم النعمة، مطبعة الجمهور - الموصل، الجمهورية العراقية، ١٩٨٢م.
- الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، د. عبدالله بن أحمد القادري، دار المنارة، جدة، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- الجهاد ميادينه وأساليبه، الأستاذ د. محمد نعيم ياسين، دار الفرقان، عمان - الأردن، ط ٣، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الحاكم الجسمي ومنهجه في تفسير القرآن، د. عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة دمشق، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط ٢، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
- دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط ٣، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- الدراسات القرآنية الموضوعية، الدكتور مسموع أحمد أبو طالب، دار الطباعة.

- المحمدية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز برواية ابن أبي الفرج الاردستاني، المنسوب للخطيب للأسكافي، طبعة مصححه ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- الدعوة الإسلامية في عهدها المدني مناهجها وغاياتها، د. رؤوف شلي، مطبعة الفجر الجديد، مصر.
- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، منهجها وغاياتها، د. رؤوف شلي، دار القلم، كويت، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- الدعوة إلى الإسلام تاريخها في عهد النبي والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة وما يجب الآن، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
- الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، وتخرّيج وتعليق: الدكتور عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- دلائل النظام، المعلم عبد الحميد الفراهي، دائرة الحميدية ومكبتها، ط١، ١٣٨٨هـ.
- الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم، الدكتور حسين محمد فهمي الشافعي، إشراف على إصدارها: محمد توفيق عويضة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- زاد المسير في علم التنفير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- زاد المعاد في هدى خير العباد، الإمام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزّرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية، تحقيق وتخرّيج وتعليق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية الكويت، ط٢٣، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

- سنن ابن ماجة، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، الإمام أبو داود سليمان بن السجستاني الأزدي، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- سنن الترمذي، أبو عيسى بن عيسى بن سورة، تحقيق: أحمد محمد شاکر وغيره، دار إحياء، التراث العربي، بيروت.
- سنن الدارمي، الإمام أبو محمد عبدالله بن بهرام الدارمي، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومجموعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق وتعليق وتخریج: الدكتور همام سعيد ومحمد بن عبدالله أبو صعيك، مكتبة المنار، الزرقاء، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- السيرة النبوية، دروس وعبر، الدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٩، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- سورة يوسف، دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- شرح التلخيص في علوم البلاغة للإمام جلال الدين القزويني، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٥٠هـ-١٩٣٢م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحلي بن العماد الحنبلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- صحيح البخاري بشرح فتح الباري، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، تحقيق: عبد العزيز بن عبدالله بن باز، دار الفكر.
- صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٩١م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، إدارة الشؤون الدينية، قطر، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- طبقات المفسرين، الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، ضبط أعلامهما: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- طريق الدعوة في ظلال القرآن، جمع وإعداد: أحمد فائز، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- العرب في العصور القديمة مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، لطفي عبدالوهاب يحيى، دار المعرفة الجامعية، ط ٢، ١٩٧٩م.
- العز بن عبدالسلام حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، د. عبدالله بن إبراهيم الوهيني، ط ٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- علوم القرآن، مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، الدكتور عدنان زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- العقيدة في القرآن، د. عبد السلام التونجي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس - الجماهير العربية الليبية، ط ١، ١٩٨٦م.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، ط ١، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجل، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- فقه السيرة دارسات منهجية عملية لسيرة المصطفى عليه السلام وما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ط ٨، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الفقه المنهجي للعبادات وملحقاتها، الدكتور مصطفى الحن وعلي الشريحي والدكتور مصطفى البغا، دار العلوم، دمشق، ط ١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- فكرة المناسبات بين آيات القرآن وسوره، د. أحمد حسن فرحات، بحث مخطوط.
- فن البديع، د. عبد القادر حسين، دار الشروق، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاعر الكبيشي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- في تأويل آية الزخرف، الدكتور أحمد حسن فرحات، مجلة الشريعة والدراسات

- الإسلامية جامعة الكويت، السنة السادسة، العدد الرابع عشر، محرم ١٤١٠هـ-أغسطس ١٩٨٩م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية الخامسة عشرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- في ظلال القرآن في الميزان، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق، مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- قياسات من حياة الرسول، الشيخ أحمد محمد عسّاف، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١٠، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- قيس من نور القرآن الكريم، الدكتور محمد علي الصابوني، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب، ملحق مع البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدّري، عبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- القول في بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٨٧هـ-١٩٨٦م.
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الإمام محمد بن عمر الزخشي، تصحيح مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- كلمة العدد، الدكتور أحمد حسن فرحات، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة

- الكويت، السنة الخامسة، العدد الثاني عشر، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٣، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
 - لباب النقول في أسباب النزول، الإمام جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٤، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
 - لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، الأفرريقي المصري، دار الفكر.
 - لطائف المتان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، الدكتور فضل حسن عباس، دار النور، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
 - ماذا خسر العالم باخطا المسلمين، السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٦، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
 - مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
 - مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٨، ١٩٩٠م.
 - مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٨، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
 - مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط ٢، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين بن أبي بكر الهيثمي، تحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط ٣، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية، تحقيق: عبدالله الأنصاري، والسيد عبد العال، طبع على نفقة أمير دولة قطر، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
 - مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق وضبط: حمزة فتح الله، ترتيب: محمود فاطر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
 - مدخل إلى ظلال القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار المنارة جدة، السعودية، ط ١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
 - المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
 - المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

- المفردات القرآنية، مظهر من مظاهر الإعجاز، الدكتور فضل حسن عباس، بحث مخطوط.
- المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تعليق عبدالله محمد الدرويش، دار الفكر، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط ٧، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- مصاعد النظر لإشراف على مقاصد العمور، البقاعي، تقديم وتحقيق وتعليق وتخريج الدكتور عبد السميع أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، بيروت ط ١٠، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، عمر رضا كخالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، دار الفكر.
- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس والدكتور عبد الحلیم منتصر وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد، إشراف: حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، دار الأمواج، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- مع قصص السابقين في القرآن (١)، الدكتور صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- مكى القرآن ومدنيه، محمد الهادي كريدان، المنشأة العامة، للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ط ١، ١٣٩٤هـ-١٩٨٤م.
- المنطلق، محمد أحمد الراشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٠هـ-١٩٧٦م.
- المنهج الحركي في ظلال القرآن، الدكتور صلاح الخالدي، دار المنارة، جدة، ط ١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- من أساليب البيان في القرآن الكريم، محمد علي أبو حمدة، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط ٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- من أساليب القرآن، الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- منهج تربوي فريد في القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، ط ٢.

- منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، علي بن جابر الحربي، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الموافقات في أصول الشريعة، العلامة أبو اسحاق إبراهيم الشاطبي، ضبط الأستاذ محمد عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد البيجاوي، دار المعرفة، بيروت.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، دار القلم، كويت، ط٣، ١٩٨٨م.
- نصب الراية لأحاديث الهداية، العلامة جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي، دار الحديث.
- نظرات في الإسلام، د. محمد عبدالله دراز، دار الأرقم، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- نظرة العجلان في أغراض القرآن بمناسبة آياته ووحدة الموضوع في سوره، ابن شهيد ميلون محمد بن كمال أحمد الخطيب، المطبعة العصرية، دمشق ١٣٦٥هـ.
- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، د. صلاح الخالدي، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، إشراف: الدكتور محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- النظم الفني في القرآن، عبد المتعال الصعيدي، المطبعة النموذجية.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، تحقيق الدكتور بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، الإمام مجد الدين أبو السعدات المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.
- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، الدكتور محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

١	المقدمة
١	التمهيد: تمهيد في علم المناسبات واتجاهات العلماء فيه مع فكرة تاريخية عن تطور التأليف فيه .
١٤	الباب الأول: التناسب الموضوعي
١٦	الفصل الأول: التناسب الموضوعي في السورة الواحدة
١٧	المبحث الأول: مناسبة فاتحة السورة لموضوعها
١٨	المطلب الأول: مناسبة فاتحة سورة الفرقان لموضوعها
١٩	المطلب الثاني: مناسبة فاتحة سورة سبأ لموضوعها
٢١	المطلب الثالث: مناسبة فاتحة سورة محمد لموضوعها
٢٣	المطلب الرابع: مناسبة فاتحة سورة الممتحنة لموضوعها
٢٧	المبحث الثاني: مناسبة خاتمة السورة لموضوعها
٢٨	المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة الرعد لموضوعها
٣٠	المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة البقرة لموضوعها
٣٢	المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة الحجر لموضوعها
٣٤	المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة النحل لموضوعها
٣٧	المبحث الثالث: مناسبة قصص السورة لموضوعها
٣٩	المطلب الأول: مناسبة قصص سورة المائدة لموضوعها
	المطلب الثاني: مناسبة قصص موسى وآدم في سورة
٤٤	طه لموضوعها
٤٦	المطلب الثالث: مناسبة قصص في سورة النمل لموضوعها
٥١	المطلب الرابع: مناسبة قصص سورة البروج لموضوعها
٥٤	المبحث الرابع: مناسبة خاتمة السورة لفاحتها
	القسم الأول: ظاهرة المناسبة حيث تفتح السورة
٥٤	بالموضوع وتختتم بنفسه

- ٥٤ المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة يوسف لفاحتها
- ٥٥ المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة الممتحنة لفاحتها
- ٥٦ المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة المزمل لفاحتها
- ٥٨ المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة ق لفاحتها
- القسم الثاني: خفاء المناسبة حيث تفتح السورة
بالموضوع وتختتم بغيره ولكن التناسب بينهما
في الموضوع الآخر.
- ٥٩ المطلب الأول: مناسبة خاتمة سورة الروم لفاحتها
- ٥٩ المطلب الثاني: مناسبة خاتمة سورة العنكبوت لفاحتها
- ٦٠ المطلب الثالث: مناسبة خاتمة سورة الفتح لفاحتها
- ٦١ المطلب الرابع: مناسبة خاتمة سورة المؤمنون لفاحتها
- ٦٢ المبحث الخامس: مناسبة المعارضات في السورة
- ٦٤ المطلب الأول: مناسبة المعارضة في سورة الزخرف
- ٦٥ المطلب الثاني: مناسبة المعارضة في سورة القيامة
- ٧٠ المطلب الثالث: مناسبة المعارضة في سورة الأعراف
- ٧٢ المطلب الرابع: مناسبة المعارضة في سورة المجادلة
- ٧٤ الفصل الثاني: التناسب الموضوعي بين السورتين المتجاورتين
- ٧٥ المبحث الأول: المناسبة الموضوعية بين السورة والتي قبلها
- المطلب الأول: المناسبة الموضوعية بين سورة
القيامة وقبلها المدثر
- ٧٥ المطلب الثاني: المناسبة الموضوعية بين سورة يوسف
وقبلها هود
- ٧٧ المطلب الثالث: المناسبة الموضوعية بين سورة التين
وقبلها ألم نشرح
- ٧٨ المطلب الرابع: المناسبة الموضوعية بين سورة اللهب
وقبلها النصر
- ٧٩ المطلب الخامس: المناسبة الموضوعية بين سورة الفيل

- ٨٦ وقبلها الهزمة
- المبحث الثاني: المناسبة الموضوعية بين السورة
- ٨٤ والتي بعدها
- المطلب الأول: المناسبة الموضوعية بين سورة الضحى
- ٨٤ وبعدها ألم نشرح
- المطلب الثاني: المناسبة الموضوعية بين سورة المزمل
- ٨٥ وبعدها المدثر
- المطلب الثالث: المناسبة الموضوعية بين سورة
- ٨٨ يونس وبعدها هود
- المطلب الرابع: المناسبة الموضوعية بين سورة الجاثية
- ٩١ وبعدها الأحقاف
- المطلب الخامس: المناسبة الموضوعية بين سورة الواقعة
- ٩٣ وبعدها الحديد
- ٩٤ الباب الثاني: التناسب البياني والدعوى
- ٩٥ الفصل الأول: التناسب البياني
- ٩٧ المبحث الأول: التناسب البياني بين موضوع السورة وإطارها
- المطلب الأول: تناسب موضوع السورة وإطارها من جهة
- ٩٧ جو عرض الموضوع
- المطلب الثاني: تناسب موضوع السورة وإطارها من جهة
- ٩٨ لون الصورة أو مشاهدتها في السورة
- ١٠٢ المبحث الثاني: التناسب البياني في صياغة مفردات السورة
- ١٠٢ المطلب الأول: جمال وقعها في السورة
- المطلب الثاني: تناسب دلالتها لما لا تتناسب له عادة دلالات
- ١٠٩ المفردات أو العبارات الأخرى
- المطلب الثالث: صياغة مفردات السورة بما يناسب
- ١١١ موضوع السورة
- ١١٤ المبحث الثالث: التناسب البياني بين المقسم به والمقسم عليه

- المطلب الأول: وجوه التناسب البياني بين المقسم به
 ١١٦ والمقسم عليه
- المطلب الثاني: التناسب البياني بين المقسم به
 ١١٧ والمقسم عليه في بداية السورة
- المطلب الثالث: التناسب البياني بين المقسم به والمقسم
 ١٢٢ عليه في وسط السورة
- المبحث الرابع: التناسب البياني في التفصيل بعد الإجمال
 ١٢٥
- المطلب الأول: التفصيل بعد الإجمال في السورة الواحدة
 ١٢٦
- المطلب الثاني: التفصيل بعد الإجمال بين السور
 ١٢٧
- المبحث الخامس: التناسب البياني في التقابل
 ١٣٠
- المطلب الأول: التقابل من ناحية طبيعة وقوعه في القرآن
 ١٣١
- المطلب الثاني: التقابل من ناحية طبيعة صورته في القرآن
 ١٣٢
- ١٣٨ الفصل الثاني: التناسب الدعوي
- المبحث الأول: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المكي
 ١٤١
- المطلب الأول: العقيدة هي موضوع القرآن المكي
 ١٤٢
- المطلب الثاني: التناسب الدعوي في كون العقيدة
 الموضوع الأول للدعوة
 ١٤٤
- المبحث الثاني: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المدني
 ١٤٩
- المطلب الأول: التناسب الدعوي في موضوع تحويل القبلة
 ١٥١
- المطلب الثاني: التناسب الدعوي في موضوع تحريم الخمر
 ١٥٤
- المبحث الثالث: التناسب الدعوي بين السورة
 وجو نزولها
 ١٥٩
- المطلب الأول: التناسب الدعوي بين سورة هود
 وجو نزولها
 ١٦٠
- المطلب الثاني: التناسب الدعوي بين سورة الفتح
 وجو نزولها
 ١٦٢

	المطلب الثالث: التناسب الدعوي بين سورة الكهف
١٧٠	وجو نزولها
١٧٧	المبحث الرابع: التناسب الدعوي في المرحلية في الجهاد
١٧٧	المطلب الأول: الجهاد ومراحله
١٧٩	المطلب الثاني: التناسب الدعوي في المرحلية في الجهاد
١٨٤	الخاتمة: في بيان أهم نتائج البحث
١٨٨	ملخص الرسالة
١٩٠	فهرس للآيات القرآنية
١٩٧	فهرس الأحاديث الشريفة
١٩٨	فهرس تراجم الأعلام
١٩٩	ثبت المصادر والمراجع
٢١١	فهرس الموضوعات
-	The summary of the thesis

The Summary of the Thesis

"The occasions of the suras of the Holy Koran"

This thesis deals with the occasions of the Koran's suras. These occasions might be found in one sura or more. The occasions are divided into three types: Subjective, preachy, and rhetorical. The research, of course, has an introduction, body, and conclusion.

The introduction deals with the science of the occasions and the attitudes of the scholars towards it including historical background about the development of this science.

The First part of the body is concerned about the subjective occasions as the following:

Firstly, the subjective appropriateness in one sura including:

- 1- The occasion of the beginning of the sura with regard to its subject.
- 2- The occasion of the ending of the sura with regard to its subject.
- 3- The occasion the stories mentioned in the sura with regard to its subject.
- 4- The occasion of the ending of the sura with regard to its beginning.
- 5- The occasion of the protests in the sura .

Secondly, the subjective appropriateness between the neighbouring suras includes:

- 1- The subjective appropriateness between the sura and its preceding.
- 2- The subjective appropriateness between the sura and the next sura.

As for the second part of the body, it includes the rhetorical occasions as the following:

٤١٧٥٩٨

Firstly, the rhetorical appropriateness including:

- 1- The rhetorical appropriateness between the subject of the sura and its framework:

- 2- The rhetorical appropriateness in forming the words of the sura.
- 3- The rhetorical appropriateness between the "sworn-by" and the "sworn-with".
- 4- The rhetorical appropriateness in elaboration after briefing.
- 5- The rhetorical appropriateness in parallelism.

Secondly, the preachy appropriateness including:

- 1- The preachy appropriateness in the subject of the Meccan suras.
- 2- The preachy appropriateness in the subject of the Medina suras.
- 3- The preachy appropriateness between the sura and its atmosphere.
- 4- The preachy appropriateness in the phased jihad.

As for the ending, it includes the most important conclusion that the researcher arrived at through this study.